التاريخ الإسلامي

— ٥ —

الدولة العباسية

الجزء الأول

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة السادسة

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠ (٠٥)

دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧

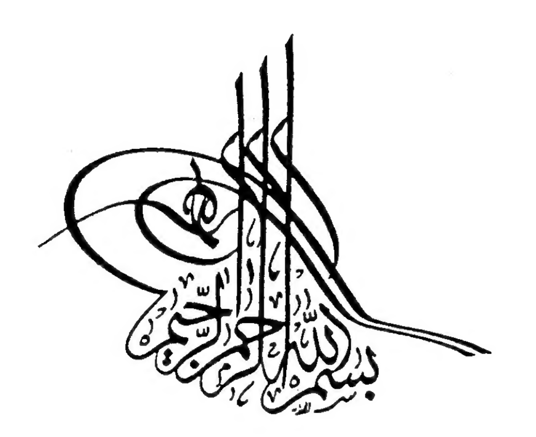
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥



— ٥ —

الدولة العباسية

الجزء الأول


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة عن الدولة العباسيّة

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين، محمّد بن عبد الله خاتم النبيين، وإمام المتقين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين **وبعد**

فإنّ الشّيعة قد لعبوا في تشويه تاريخ بني العبّاس الدور نفسه الذي عملوه في تغيير صفحات بني أُميّة بالاشتراك مع العبّاسيين، خصوم بني أُميّة السياسيين، وحُكام العصر الذي دُوِّن فيه التاريخ. ذلك أنّ آل البيت الذين كانت الدعوة باسمهم، وعلى أساسها انفرط عقد بني أُميّة، قد انفرد من بينهم بنو العباس الذين استأثروا وحدهم بالسلطة دون بني عمومتهم من أبناء أبي طالب، وأزاحوهم من وجههم، بل ومن جانبهم الأمر الذي جعل أبناء أبي طالب يحقدون على بني العبّاس، وينازعونهم الأمر، ويعملون على تشويه سمعتهم وبالتالي تاريخهم.

لقد استغلّ كلّ طامحٍ للسلطة حبّ آل البيت بل محبة أبناء أبي طالب خاصةً فأظهر التشيّع لهم، وحاول تحقيق مآربه من وراء ذلك. لذلك ظهرت فرق كثيرة حملت المظهر الشيعي، وسلكت مسلكاً فيه كلّ بُعدٍ عن الإسلام، وتحت هذا المظهر قامت حركة الزنج في جنوبي العراق، وعليه قامت القرامطة، والنصيرية، والإسماعيلية، والحمدانيون، ثم قامت الدولة العبيدية (الفاطمية)، ومنها نشأ الدروز، هذا بالإضافة إلى الفرقة الإمامية (الاثنا عشرية) التي بدأت تصيغ أفكاراً لها، وتُبلورها، ثم نسبتها للعصور

التي خلت وللرجال الذين مضوا، وما هم كذلك، واختلط الأمر على المؤرخين المحدثين، وظنّوا أن هذه الأفكار قد نشأت منذ صدر الإسلام، وحمّلوها عظماء رجال ذلك العهد، أمثال علي زين العابدين بن الحسين، وابنه زيد، وحفيده جعفر الصادق، وشاع ذلك. وما جاء القرن الرابع الهجري إلاّ ومدّعو التشيّع يسيطرون على أكثر أرجاء الدولة الإسلامية، ولم يعملوا على وحدة صفوفهم ذلك لأنهم لم يكونوا فرقةً واحدةً، ولم يحملوا فكراً واحداً، بل ولا هدفاً واحداً، وإنما لكلّ إمارةٍ أو دولةٍ رقعة من الأرض تحكمها، الأمر الذي يدلّ على أنّهم رجال طامعون، وأصحاب مصالحِ وغاياتٍ اتخذوا من التشيّع وسيلةً لهم للسيطرة على الحكم وتحقيق أغراضهم من وراء ذلك. فقد سيطر القرامطة على الجزيرة العربية كلها باستثناء منطقة عسير، ووصلوا إلى الشام، وطرقوا أبواب مصر، وحكم الفاطميون شمالي إفريقية، ثمّ أخضعوا مصر وجعلوها قاعدة ملكهم، وأخضع الحمدانيون شمالي بلاد الشام، وسيطر البويهيون على الدولة العبّاسية، ومع ادعائهم جميعاً للشيعة إلا أن دولهم بقيت متفرقةً، بل كثيراً ما اقتتلت وتناحرت، فقد وقف الفاطميون في وجه القرامطة، وصدّوهم عن مصر، وقاتل البويهيون الحمدانيين.

وتوقفت الفتوحات الإسلامية منذ أواخر العهد الأموي، وانصرف الناس إلى الصراع الداخلي، حتى إذا نهض العباسيون بالأمر، واستقرّ لهم، وخلد الناس إلى الراحة قليلاً استغل هذا الوضع كلّ من كان يخفي في نفسه شيئاً، وكان معظم هؤلاء المستغلين من المجوس حيث أظهروا التشيّع وساروا مع أبناء جلدتهم من المسلمين الفرس وراء العباسيين حتى إذا نهضوا بالحكم تسلّم بعض الفرس سلطاتٍ واسعةً، فاستفاد المستغلون من العصبية، وعملوا على تهديم الإسلام، وظهرت بينهم حركات سنباذ، والمسلمية، والراوندية، والمقنعية، والبابكية، بل وأصابع الاتهام تشير إلى داعية بني العباس الأول، أبي مسلم الخراساني، إذ نسبت بعض هذه الفرق نفسها له، أو طالبت بدمه، وإن كان هذا يبدو استغلالاً وإفادةً من وضعه،

وطريقة للتخلّص بعد أن قدّم الذي قدّم، وإلى البرامكة وغيرهم، ومن هنا بدأت تبزغ قرون العصبية.

وطال عهد العباسيين (١٣٢ ـ ٦٥٦هـ) فوصل إلى ما يقرب من خمسة قرون وربع القرن، وضعُفت أيامهم في آخرها إذ زاد ظهور العصبية فقامت دول على أساسها، ولم يكن لها داعٍ لقيامها لولا فكرة العصبية التي حملتها، واللغة التي أحيتها من جديد، فظهرت الدولة السامانية، والغزنوية، والخوارزمية، ولا شك فإن الطموح السياسي كان أساساً في نشأتها، ثم نما باسم العصبية لدوامها، ودعم الشعب لها.

كما انفصلت أجزاء عن الدولة رسمياً، وأعلنت عن قيام خلافةٍ مستقلةٍ فيها، فكانت الخلافة الأموية في الأندلس، والفاطمية في مصر وأجزاء من إفريقية، ولم تكن هذه الدولة الإسلامية على تفاهم فيما بينها، بل على العكس كانت معاديةً بعضها لبعض، وكل منها علَى صلةٍ بأعداء الثانية، فالعباسيون في بغداد يصادقون حكام الفرنجة خصوم أمويي الأندلس، هذا مع العلم أنه لا يوجد في دار الإسلام سوى خليفةٍ واحدٍ، والمسلمون جميعاً تضمّهم دولة واحدة، وهذا يدلّ على ضعف الروح الإسلامية لدى المسلمين في ذلك العهد بالنسبة إلى ما كان عليه المسلمون الأوائل وفي الصدر الأول.

وكانت أرجاء الدولة متسعةً، وعدد السكان كبيراً وخاصة في العاصمة، وقواعد الولايات، التي تضمّ أشتاتاً من الناس، وهذا يستدعي جنداً كثيراً يوطّد أركان السلطة، ويحفظ الأمن، ولما كان أهل البلاد يعيشون في حالة من الرخاء والرفاه فهم بعيدون عن حياة الجندية، وما دامت الفتوحات الإسلامية قد توقفت، ولم يعد الجهاد على نطاقٍ واسعٍ كما كان، وإنّما في أوقاتٍ محددةٍ تقتضيه الظروف، ولهذا فإن السكان لاَ يرون ضرورةً للانخراط في الحياة العسكرية. وكان الخليفة عندها مضطراً لاستقدام جنودٍ من مناطق لا تزال غير مترفةٍ بعد، أو قد دانت بالإسلام منذ وقتٍ قصيرٍ، أو يأتي بالأسرى والمماليك، وينشئهم تنشئةً عسكريةً بعد أن

يدخلوا في الإسلام. وقد جيء بجندٍ من الترك، وترقوا في الرتب حتى غدوا قادةً، ثم أصبح الأمر بيدهم يخلعون الخليفة إن شاءوا، ويعيّنون من أرادوا، فضعُفت هيبة الخلافة، وانخفضت مهابة السلطة. ومن المعلوم أن الترف انصراف عن المهمة الرئيسية للإنسان واتجاه نحو الملذات وجمع المال، والتفاخر بالملك، وما ذكر أبداً ترف بخير، وكثرة المال ابتلاء من الله، فإما أن يُحسن الإنسان بإنفاقه وصرفه في وجوه الخير، وطاعة الله، وإما في غير ما أمر الله. وقد ذكر الترف في ثمانية مواضع في كتاب الله، تنصبّ كلها على الكافرين، والمجرمين، والفاسقين. يقول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾[1]، ويقول تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾[2]. ويقول تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾[3]. ويقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾[4]. ويقول تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾[5]. ويقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[6]. ويقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن

---

(١) سورة هود: الآية ١١٦.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١٦.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ١٣.

(٤) سورة المؤمنون: الآية ٣٣.

(٥) سورة المؤمنون: الآية ٦٤.

(٦) سورة سبأ: الآية ٣٤.

نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1]. ويقول تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾[2]. ومآل الترف إلى الفساد، وضياع السلطة، وانهيار الدولة، وزوال الأمة. وقد زال الأمويون عندما أصابهم الترف، ودالت دولة بني العباس عندما حلّ فيها الترف، وسقطت الأندلس بيد النصارى وضاعت نهائياً بعد أن انصرف السكان إلى الترف...

ومن المعلوم أن الجند إذا أعطوا الحكم استأثروا وتفرّدوا به، استبدوا، وطغوا، وظلموا، فالجند إنما وجدوا للقتال، والقائد لا يملك طاعة جنده إلا أيام الجهاد وقتال أعداء الله، أمّا أن يستخدم جمعهم لتحقيق أغراضه، وقتال المسلمين وأمرائهم، وتغيير الأوضاع فهذا أمر لا تستقيم معه الحياة الاجتماعية، وإن كان هذا لا يمنع من وجود قادةٍ عسكريين على درجةٍ من القوة والصلاح، ولكن لا يلبث الأمر بعدهم أن يعود إلى سابق عهده. فإن الحاكم الطاغية الذي يفرض سلطانه بالقوة قد يعطي الحكم هيبةً أو سمعةً خارجيةً مدةً من الزمن، ولكن ينهار الوضع بعده مباشرةً. لأن النفوس تكون قد ضعُفت، واعتادت على الذلّ الذي ذاقته وقت الطغيان، ومُنعت من حرية الفكر، فإن الأرض لا تحرر من الظلم بجموعٍ لا يملكون الحرية، والفكر لا ينتشر على أيدي أُناسٍ لا يملكون حريةَ الفكر، والطغيان يسلب الناس الحرية فيجعلهم عبيداً، ويسلبهم حرية الفكر ليتمكن من السيطرة عليهم، ولهذا تحرص الدول التي تعادي الإسلام أن تحاربه بحكام طغاةٍ من الجند. وتجعل من الجيش مرتزقةً مهما تقووا بالسلاح والعتادَ إلاّ أنّ خسارة معركةٍ واحدةٍ تجعل الهزائم تتوالى عليه إذ تنخفض المعنويات مباشرةً. هؤلاء الجند الذين

(١) سورة الزخرف: الآية ٢٣.

(٢) سورة الواقعة: الآيات ٤١ ـ ٤٥.

سيطروا على الدولة العباسية قد أضعفوا أمرها، واستبدوا بحكمها، وكانوا سبباً في متاعبها، رغم أن دعاة العصبية قد عدّوا هذا الضعف نتيجة سيطرة عناصر من غير العرب، ولكن طغيان الجند لا يختلف بين شعبٍ وآخر، فطغيان العرب كطغيان غيرهم والنتائج واحدة. وما من مرةٍ حكم الجند من أيّ عنصرٍ كانوا إلاّ وتأخّرت البلاد، وتلا حكمهم تراجع مُفاجئ.

وإن كثرة الأموال التي تدفقت على المسلمين زمن الفتوحات، وزادت أعطياتهم، وكثرة المستخدمين الذين جُلبوا، والأرقاء الذين أُخذوا في الحروب، والعبيد الذين اشتروا، كلهم قد اشتغلوا لساداتهم، وقدّموا لهم المال الكثير، ووفّروا لهم الراحة، وهو ما جعل السكان في حالةٍ من الرفاهية والرخاء إذ أعطوا أعمالهم كلها للعبيد، وعاشوا هم في راحةٍ فانصرف بعضهم نحو العلم وأنتج الخير الكثير، واتجه بعضهم نحو العمران فشيّدوا الأبنية، ومال بعضهم نحو المفاسد فغبّ منها ما شاء له هواه، وتمرّغ في حمأتها تمرّغ الحيوان في الوحل، وكان هذا بمفهوم الماديين وأنصارهم حضارةً، فقالوا: إن الحضارة الإسلامية قد بلغت أوجها في العصر العباسي، إذ فسّروا الحضارة بمفهومهم المادي البحت فنظروا إلى جانب العلم، والعمران، والمفاسد، وركّزوا على جانب من السكان وهم المترفون المرفهون، وتركوا الجانب الآخر وهم الفقراء وما يعانون، وما نجم عن ذلك من حركات، وبالتالي انهارت الدولة وسقطت تحت ضربات المغول، ولم تستطع أن تقاوم لما أصابها من ترفٍ، وذُلٍّ من طغيان الجند، وتفتتٍ من نشوء العصبيات، وخيانةٍ من الشيعة، ومن هنا نستطيع أن نقول: إن تاريخ الدولة العباسية قد أعطاه طابعه في التدوين، والحركات التي نشأت، والدول التي قامت، والضعف الذي حدث أربع نقاط هي:

١ ـ الشيعة والحركات الباطنية.

٢ ـ سيطرة الجند على مقدرات الدولة.

٣ ـ العصبية التي استفحل أمرها.

٤ ـ المظاهر الحضارية المادية.

ويجب بحث هذه النقاط الأربع بالتفصيل ليتبيّن لنا تاريخ الدولة العباسية بشكلٍ أقرب إلى الواقع مما هو عليه من التسجيل الآن.

* * *

١ ـ الشيعة والحركات الباطنيّة

أ ـ الشيعة:

ينظر المسلمون إلى آل بيت رسول الله ﷺ نظرة احترامٍ وتقديرٍ، وكان لهذه النظرة أثر كبير في الحياة السياسية عامةً، وينحصر آلِ البيت في أبناء أبي طالب عمّ رسول الله، الذين أسلموا وهم: علي، وجعفر، وعقيل، رضي الله عنهم، وفي آل العباس عمّ رسول الله والذي أسلم مع أخيه الحمزة، رضي الله عنهما، من بين أعمام رسول الله، ولكن الحمزة سيد الشهداء لم يعقب. ولم يشمل آل البيت بقية أبناء أعمام رسول الله من الزبير، والحارث، وأبي لهب، حيث جاء إسلام هؤلاء الأبناء متأخراً، وربما انحصر آل البيت في أبناء علي رضي الله عنه من زوجه فاطمة ابنة رسول الله، ﷺ، حيث انقطع عقب رسول الله إلاّ منها، هذا إضافةً إلى قرابة علي، وسابقته في الإسلام، وجهاده أعداء الله، وإصهاره لرسول الله، وحتى رأى بعض المسلمين في هذا سبباً في أحقيته بالخلافة، وأحقية أبنائه من بعده. رغم ما في هذا القول من مجانبةٍ عن تعاليم الإسلام، لأن الخلافة ليست وراثيةً، وإنّما لها شروط يفرضها الصلاح والتقوى والقوة في الحق، وتحق لأي مسلمٍ تتوفر فيه الشروط، وإن اشترط بعضهم القرشية وليس معهم الدليل.

تسلّم عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه، الخلافة بعد عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فهو رابع الخلفاء الراشدين، واختلف مع والي الشام معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، بشأن قتلة سيدنا عثمان، وقد أدى ذلك الخلاف إلى صراع بين الطرفين انتهى بقتل علي، رضي الله عنه، بيدِ

آثمةٍ من الخوارج، وصفا الجو لمعاوية بعد أن تنازل له الحسن بن علي، رضي الله عنهما، عن الخلافة. وكان عام الجماعة عام ٤١هـ.

اتجهت أنظار المسلمين إلى الحسن بن علي، رضي الله عنهما، إذ كان أفضل أهل زمانه، وتوفي عام ٥٠هـ، وقيل مات مسموماً. وكان أخوه الحسين بن علي، رضي الله عنهما، بعده سيّد عصره، وقد خرج على يزيد بن معاوية فاستشهد في كربلاء عام ٦١هـ، واستشهد معه اثنان وعشرون من أهله، من إخوته[١]، وأبنائه[٢]، وأبناء أخيه الحسن[٣]، وأبناء عمومته أولاد جعفر بن أبي طالب[٤]، وأبناء عقيل بن أبي طالب[٥].

أقام أبناء علي وأحفاده بعد ذلك في المدينة المنورة، وكانوا جميعاً أهل هدايةٍ وخيرٍ، ولكن المدينة لم تلبث أن ثارت على يزيد بعد أن وصلت إليها أخبار فاجعة كربلاء، فداهمها جيش الشام، وجرت معركة رهيبة بين الطرفين، عُرفت بمعركة الحَرّة، واستشهد فيها اثنان من أولاد عبد الله بن جعفر، وهما: أبو بكر، وعون الأصغر. وبعد مدة قتل المختار بن أبي عبيد الثقفي عبيد الله بن علي بن أبي طالب.

أما آل العباس فقد برز منهم أبناء عبد الله بن العباس، وأشهرهم علي بن عبد الله[٦] وكان يقيم بالحُميمة من البلقاء من أعمال الأردن.

---

(١) استشهد من إخوته يوم كربلاء: عبد الله، وجعفر، وعثمان، والعباس، ومحمد الأصغر، وأبو بكر.

(٢) استشهد من أبنائه: علي الأكبر، وعبد الله.

(٣) استشهد من أبناء أخيه الحسن: أبو بكر، والقاسم، وعبد الله.

(٤) استشهد من أبناء عبد الله بن جعفر: عون الأكبر، ومحمد، وعبيد الله.

(٥) استشهد من أبناء عقيل وأولادهم: مسلم بن عقيل قبل كربلاء، عبد الرحمن بن عقيل، وجعفر بن عقيل، وعبد الله الأكبر بن عقيل، ومحمد بن مسلم، وعبد الله بن مسلم، ومحمد بن أبي سعيد الأحول بن عقيل.

(٦) علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب: ولد عام ٤٠هـ يوم استشهد علي بن أبي طالب، ويكنى بأبي محمد، وهو جد الخلفاء العباسيين، ومن أعيان التابعين. كان كثير العبادة والصلاة، فغلب عليه لقب «السجّاد»، وكان من أجمل الناس وأوسمهم، عظيم=

ويبدو أن عبد الله بن محمد (بن الحنفية) بن علي بن أبي طالب والملقب بأبي هاشم قد عاد من الشام من زيارة الخليفة سليمان بن عبد الملك، وأحسّ بدنو أجله في الطريق، فعرّج على ابن عمه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس[1]، وطلب منه أن يعمل ضدّ بني أمية للإطاحة بهم (إذ ذُكر لأبي هاشم أنه قد سُمّ من قبل سليمان بن عبد الملك فأثار ذلك نقمةً بالغةً في نفسه على بني أُمية)، ولم يكن أبو هاشم هذا سيّد بني هاشم، كما لم يكن أبوه محمد، ولم يعدّه كذلك إلا الكيسانية أتباع المختار بن أبي عبيد، ولكن سُلّطت الأضواء على أبي هاشم بعد هذه الحادثة، وعُدّ سيّد آل البيت، وعُدّ موته بسبب ما سُقي من سمّ على أيدي بني أمية لأغراضٍ سياسيةٍ.

أثار كلام عبد الله بن محمد ما في نفس محمد بن علي من طموحٍ فبدأ يعمل لذلك، ولكنه لم يدع لنفسه، وإنما جعل الدعوة إلى الرضا من آل محمد حنكةً منه كي لا يفرّق صفوف آل البيت، وحتى ينتظم أنصارهم جميعاً في الدعوة، وفي الوقت نفسه يُعمّي عن نفسه، وفي الواقع فإن العمل كان له ما دامت الأمور مرتبطةً به، ويحرّك الدعاة والأنصار حسب ما يشاء، وزيادةً في التعمية فقد بقي هو في الحميمة في الأردن، وجعل مقرّ الدعوة مدينة الكوفة حيث يقيم كبير الدعاة، ويكثر فيها أنصار آل البيت، ولا يأتي إليه في الحميمة إلا كبار دعاته، ويمرون عليها على شكل تجارٍ، أو حجّاجاً إلى بيت الله الحرام، فيلتقون به، ويتلقّون التعليمات منه.

= الهيبة، جليل القدر، أهانه الوليد بن عبد الملك وضربه، واعتقله هشام بن عبد الملك، فمات في السجن عام ١١٨هـ في البلقاء.

(١) محمد بن علي بن عبد الله بن العباس: ولد بالحميمة عام ٦٢هـ، بدأ دعوته سنة مائة للهجرة، كانت تجبى له خمس الأموال من أنصاره يدفعونها إلى النقباء، وتحمل إليه، وينفقها فيما يرى فيه المصلحة. كان عاقلاً حليماً، جميلاً وسيماً، وتوفي بالشراة عام ١٢٥هـ، وقد أوصى من بعده لابنه إبراهيم، وهو والد السفاح والمنصور.

وساعد على قيام الدعوة وانتشارها حركة زيد بن علي[(١)] بالكوفة عام ١٢٢هـ واستشهاده فيها، ثم قيام ابنه يحيى[(٢)] من بعده في مدينة بلخ[(٣)] عام ١٢٥هـ بعد أن فرّ من الكوفة إثر مقتل أبيه، ودعا لنفسه سراً، فقبض عليه، ثم أطلق سراحه بأمر من الخليفة الوليد بن يزيد، وسُيّر إلى الشام، فاعتصم في بعض الطريق، وقاتل أنصار الأمويين حتى قُتل. وكذلك خروج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر[(٤)] بالكوفة أيضاً عام ١٢٧هـ أيام يزيد بن الوليد، ثم انتقل إلى المشرق وقصدته بنو هاشم وفيهم أبو العباس السفاح، وأبو جعفر المنصور وعمّاهما عبد الله بن علي، وعيسى بن علي، وكذلك بعض بني أمية منهم سليمان بن هشام بن عبد الملك، وعمر بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان، وغلب على المشرق حتى تولى أمر بني أمية مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين فهُزم عبد الله، وفرّ إلى خراسان، فقبض عليه عامل هراة من قبل أبي مسلم الخراساني، وقتله خنقاً عام ١٣١هـ. وعلى الرغم مما في الخروج على الإمام من مخالفاتٍ شرعيةٍ

---

(١) زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسين: ولد عام ٧٩هـ، من خطباء بني هاشم، قال عنه أبو حنيفة: ما رأيت في زمانه أفقه منه، ولا أسرع جواباً ولا أبين قولاً، وكانت إقامته بالكوفة، وقرأ على واصل بن عطاء (رأس المعتزلة)، ذهب إلى الشام، فضيّق عليه هشام بن عبد الملك، وسجنه خمسة أشهر، وعاد إلى العراق، ثم إلى المدينة، ولحق به إلى المدينة بعض الكوفيين يحرضونه على الثورة فرجع معهم إلى الكوفة عام ١٢٠هـ فبايعه بعض أهلها، وقاتله والي العراق يومئذٍ يوسف بن عمر الثقفي، ودارت معارك بين الطرفين انتهت بمقتل زيد عام ١٢٢هـ بعد أن خذله أهل الكوفة.

(٢) يحيى بن زيد: ولد عام ٩٨هـ، وكان من الأبطال الأشداء، انتقل إلى بلخ بعد مصرع أبيه، ودعا إلى نفسه سراً، طلبه أمير العراق يوسف بن عمر الثقفي فقبض عليه نصر بن سيار والي خراسان، وأطلق سراحه بأمر الوليد بن يزيد، وأمر بالسير إلى الشام، فأبطأ بسرخس، ثم انتقل إلى بيهق ثم إلى نيسابور، وامتنع، فقاتله واليها عمرو بن زرارة بعشرة آلاف، ويحيى بسبعين رجلاً، فهزمهم يحيى، وقتل عمراً، ثم انصرف إلى هراة، ثم قاتله نصر بن سيار في الجوزجان فقتل يحيى بسهم أصابه عام ١٢٥هـ.

(٣) بلخ: مدينة في خراسان تقع اليوم في أفغانستان.

(٤) اتهم عبد الله بن معاوية بن عبد الله بالزندقة، وكان فتّاكاً سيء الحاشية.

إلاّ أن يُظهر كفراً بواحاً، أو يُصاب بجنونٍ فإنّ عامة الناس تنظر نظرة عطفٍ إلى من تحلّ به نكبة، وخاصةً إذا كان من أهل البيت، ويدعو إلى إصلاح ما فسد، وهذه العواطف قد هيأت الجو للدعوة العباسية.

وما ظنّ أبناء علي إلاّ أنّ لهم في الدعوة نصيباً، فلما قام العباسيون بالأمر، واستأثروا بالحكم، وقف شيعة أبناء علي موقفاً معادياً للعباسيين، وقاموا يعملون ضدهم، فمن جانبٍ ثاروا ضدهم، واستمرت حركاتهم، ومن جانبٍ آخر اتهموهم بالظلم، ورموهم بالمفاسد، وأشاعوا الدعايات ضدهم، والسخرية منهم ومن تصرفاتهم، وبالمقابل فقد لاحق العباسيون خصومهم السياسيين من شيعة أبناء علي، وشدّدوا عليهم، واضطهدوهم، ونكّلوا بزعماء ثوراتهم كي يُلقوا بينهم الرعب، وأحياناً حاولوا استرضاء بعضهم اتقاءً وخوفاً من حركاتهم، فتقوقع الشيعة على أنفسهم، بعد أن أصابهم ما أصابهم فجعلوا لأنفسهم عقيدةً خاصةً بهم اختلفت عن الإسلام، إذ جعلوا لأئمتهم العصمة، وعدّوهم مخصصين من عند الله، ونسبوا لهم التأويل والمعرفة دون سواهم، وطعنوا بصحابة رسول الله، ﷺ، ونسبوا هذا كله إلى أعلام المسلمين من آل البيت فدوّنوا كتباً ونسبوها لسابقين مثل نهج البلاغة الذي نُسب لسيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، كما أوجدوا فقهاً خاصاً ونسبوه لجعفر الصادق ـ رحمه الله ـ وهكذا...

وأشاعوا الكذب على الخلفاء العباسيين وخاصةً الأقوياء منهم والصالحين أمثال هارون الرشيد الذي كان يحجّ أو يغزو، والمتوكل الذي أحيا السنة، والمعتضد الذي كان قوياً، ولننظر إلى بعض هذه الإفتراءات التي يبدو فيها الاختراع مباشرة. أخرج السلفي في الطيوريات بسنده عن ابن المبارك قال: لما أفضت الخلافة إلى الرشيد وقعت في نفسه جارية من جواري المهدي، فراودها عن نفسها، فقالت: لا أصلح لك، إن أباك قد طاف بي، فشغف بها، فأرسل إلى أبي يوسف[1]، فسأله: أعندك في هذا

---

(١) أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي، ولد في الكوفة =

شيء؟ فقال: يا أمير المؤمنين أوَ كلما ادعت أمة شيئاً ينبغي أن تُصدَّق، لا تُصدِّقها فإنّها ليست مأمونة، قال ابن المبارك[1]: فلم أدرِ ممن أعجب من هذا الذي وضع يده في دماء المسلمين وأموالهم يتحرّج عن خرمة أبيه، أم من هذه الأمة التي رغبت بنفسها عن أمير المؤمنين، أم من هذا فقيه الأرض وقاضيها! قال: اهتك حرمة أبيك، واقض شهوتك، وصيّره في رقبتي[2]. وذكروا أشياء عن الرشيد وأبي نواس[3] يندى لها الجبين، وأبو نواس لم ير الرشيد، ولم يدخل عليه[4]، وذكروا أشياء أكثر من ذلك عن صلة أبي نواس بزوج الرشيد، زبيدة بنت جعفر بن المنصور[5]، فقالوا: إن

= عام ١١٣هـ، وتفقّه بالحديث والرواية، ثم لزم أبا حنيفة، فغلب عليه الرأي، وولي القضاء ببغداد أيام المهدي، والهادي، والرشيد، ومات ببغداد في خلافة الرشيد عام ١٨٢هـ وهو على القضاء، وهو أول من دُعي قاضي القضاة، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة، وكان واسع العلم بالتفسير والمغازي وأيام العرب.

(١) ابن المبارك: عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء، التميمي، المروزي، أبو عبد الرحمن: الحافظ، المجاهد، التاجر، أفنى عمره في الرحلات حاجاً، ومجاهداً، وتاجراً، وجمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء. كان من سكان خراسان، ولد عام ١١٨هـ، وتوفي بهيت على نهر الفرات عام ١٨١، وهو أول من صنّف في الجهاد.

(٢) تاريخ الخلفاء ـ جلال الدين السيوطي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ص٢٩١.

(٣) أبو نواس: الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن صباح الحكمي بالولاء: كان جده مولى للجراح بن عبد الله الحكمي، أمير خراسان، فنسب إليه، وكان أبوه من جند مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، انتقل إلى الأهواز، وتزوج هناك، وأنجب أبا نواس. نشأ أبو نواس بالبصرة: ورحل إلى بغداد، ثم إلى دمشق، ومنها إلى مصر، وعاد إلى بغداد حيث توفي فيها عام ١٩٨هـ.

(٤) انظر مختار الأغاني لابن منظور ـ الجزء الرابع ص١٦٦ طبعة المكتب الإسلامي بدمشق عام ١٣٨٦هـ.

(٥) زبيدة بنت جعفر بن المنصور، أم جعفر: زوجة هارون الرشيد وبنت عمه، وأم الخليفة الأمين، من فضليات النساء. تزوج بها الرشيد عام ١٦٥هـ، ومات عنها، وقتل بعد ذلك ابنها الأمين، فاضطهدها رجال المأمون فكتبت إليه تشكو حالها فعطف عليها وأكرمها، وجعل لها قصراً في دار الخلافة، وأقام لها الخدم، وتوفيت عام ٢١٦هـ، وإليها تنسب (عين زبيدة) في مكة، جلبت إليها الماء من أقصى وادي نعمان شرقي مكة، وأقامت له الأقنية حتى أوصلته إلى مكة. وكانت أكثر نساء عصرها ديناً وجمالاً، وطريق الحج من =

أبا نواس دخل مرةً قصر الخليفة فرأى الرشيد نائماً مُغطى فاستلقى فوقه، فرفع الرشيد رأسه ونهره، وقال: ما هذا يا أبا نواس؟ فقال: معذرةً يا أمير المؤمنين فقد ظننتك السيدة زبيدة ـ والله ـ.

ويتهمون الأمين بكثرة شربه الخمر[1]، ثم نراهم يصفونه بأنه أراد قتل أبي نواس عندما انتهى إليه أنه يشربها[2].

ولننظر إلى ما قيل عن المتوكل في لهوه وعشقه لجواريه الكثيرات، وهذه الجواري الأديبات الشاعرات اللواتي ينظمن الشعر، وبأفضل من أي شاعرٍ بل يقُلنه إرتجالاً وبشكلٍ جيدٍ قويٍ، وسبكٍ متينٍ، ومعنىً جزلٍ، بل لهن كرامات، بحيث يظهر وضع مثل هذه الروايات والتعب في إخراجها بهذه الصورة المبالغ فيها.

وأخرج عن علي بن الجهم قال: أُهدي إلى المتوكل جارية يقال لها محبوبة، قد نشأت بالطائف، وتعلّمت الأدب، وروت الأشعار فأغري المتوكل بها، ثمّ إنه غضب عليها، ومنع جواري القصر من كلامها، فدخلتُ عليه يوماً، فقال لي: قد رأيت محبوبة في منامي كأني قد صالحتها وصالحتني، فقلت: خيراً يا أمير المؤمنين، فقال: قم بنا لننظر ما هي عليه، فقمنا حتى أتينا حجرتها، فإذا هي تضرب على العود وتقول:

أدور في القصر لا أرى أحداً … أشكو إليه ولا يكلمني

حتى كأني أتيت معصيةً … ليست لها توبة تخلصني

فهل شفيع لنا إلى ملكٍ … قد زارني في الكرى وصالحني؟

حتى إذا ما الصباح لاح لنا … عاد إلى هجره فصارمني

فصاح المتوكل، فخرجت، فأكبت على رجليه تقبلهما، فقالت: يا

= بغداد إلى مكة يسمى باسمها (درب زبيدة) حيث المصانع والآبار والبرك والمنازل من آثارها.

(١) انظر مختار الأغاني الجزء الرابع ص٧٣.

(٢) المرجع السابق ص٩٠ ـ ٩١.

سيدي رأيتك في ليلتي هذه كأنك قد صالحتني، قال: وأنا والله قد رأيتك، فردّها إلى مرتبتها، فلما قُتل المتوكل فصارت إلى بغا الكبير، فأمر بها يوماً للمنادمة، فجلست منكسة، فقال: غنّي، فاعتلت، فأقسم عليها وأمر بالعود، فوضع في حجرها، فغنّت ارتجالاً:

أيّ عـــيـــشٍ يـــلـــذّ لـــي ... لا أرى فـــيـــه جـــعـــفـــرا؟
مـــلـــك قـــد رأيـــتـــه ... فـــي نـــجـــيـــعٍ مـــعـــفّـــرا
كـــلّ مـــن كـــان ذا هـــيـــا ... مٍ وســـقـــمٍ فـــقـــد بـــرا
غـــيـــر مـــحـــبـــوبـــة الـــتـــي ... لـــو تـــرى الـــمـــوت يـــشـــتـــرى
لاشـــتـــرتـــه بـــمـــا حـــوتـــ ... ـــه يـــداهـــا لـــتُـــقـــبـــرا
فـــإنَّ مـــوت الـــحـــزيـــن أطـــ ... ـــيـــب مـــن أن يـــعـــمـــرا

فغضب بُغا، وأمر بها فسُجنت، فكان آخر العهد بها[1].

وأخرج عن أبي العيناء قال: أهديت إلى المتوكل جارية شاعرة اسمها فضل، فقال لها: أشاعرة أنت؟ قالت: هكذا زعم من باعني واشتراني، فقال: انشدينا شيئاً من شعرك، فأنشدته:

استقبل المُلْكُ إمامُ الهدى ... عام ثلاثٍ وثلاثينا
خلافة أفضت إلى جعفر ... وهو ابن سبع بعد عشرينا
إنا لنرجو يا إمام الهدى ... أن تملك الملك ثمانينا
لا قدس الله امرأً لم يقل ... عند دعائي لك: آمينا[2]

وفي حكايةٍ اخترعت حوالي القرن الرابع الهجري أن عضد الدولة خطب الأميرة جميلة الحمدانية[3]، فامتنعت عليه؛ فلما أسرها استولى على

---

(١) تاريخ الخلفاء ـ السيوطي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ الطبعة الأولى ١٣٧١ ص٣٥٣.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) جميلة الحمدانية: جميلة بنت ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان صاحب=

جميع أموالها، وقيل إنه فرض عليها مالاً، وألزمها إما أن تُؤدّيه أو تختلف إلى دار القحاب، لتكتسب ما تُؤدّيه؛ حتى إذا ضاق بها الأمر انتهزت غفلة الموكلين بها، وغرّقت نفسها في دِجلة[1].

وإذا كان الخلفاء بهذا اللهو المفرط، وهذا المجون الواسع فمن الذي كان يسوس أمور البلاد، ويذود عنها، ويرسل الجيوش، وينطلق أمامها أحياناً، وأحياناً أخرى ينطلق الأمراء من أبناء الخليفة، وإخوته، وأبناء عمومته والذين من المفروض حسب هذه الروايات أن يكونوا مثل إمامهم.

وإذا كان الخلفاء على هذه الصورة المدوّنة في التاريخ فمن الذي شاد هذه الحضارة العظيمة التي نفتخر بها بين أمم الأرض، وهي في أعلى مستوى مما شادته الأمم الأخرى. . . . أهكذا جاءت ودون تعب ومن غير جهد، أم أقامها غير أسلافنا ثم نسبت لهم.

حقيقةً إن الذين شادوا حضارتنا رجال عظماء ولكن التاريخ الذي دُوّن بأيدٍ مغرضةٍ قد حطّ من شأنهم كثيراً.

وإن تواري كثير من الطالبيين واختفاءهم قد سهل ادعاء كثير من الرجالات النسب الهاشمي، وبسبب حب المسلمين لآل البيت قد جعل كثيراً من الطامعين في السلطة ينسبون أنفسهم لآل البيت حتى يلتفّ الناس حولهم ثمّ يقومون بحركاتٍ ضد الدولة. ومن هذه الحركات كانت فتنة الزنج، ودعوة العبيديين (الفاطميون)، وبعض القرامطة، والفرق الباطنية، حتى اختلط الأمر على كثير من المؤرخين.

= الموصل: إحدى شهيرات النساء في الكرم والعقل والجمال. لم تتزوج أنفة من أن يتحكم بها الزوج، حجت عام ٣٦٦هـ وأنفقت الكثير. ولما تغلّب عضد الدولة على أخيها أبي تغلب أمير الموصل عام ٣٦٩، فرّ أبو تغلب إلى الرملة، ورحلت معه جميلة في جماعة من حاشيته، فخرج عليه أمير طيء (دغفل بن مفرج) فقتل أبا تغلب وحمل جميلة إلى حلب ثم إلى بغداد، فاعتقلها عضد الدولة في حجرة، ثم أركبها جملاً وشهّر بها، وألقاها في دجلة، فماتت غرقاً عام ٣٧١.

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ـ آدم متز ـ ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة دار الكتاب العربي بيروت ـ المجلد الثاني ص١٧٤.

٢ ـ سيطرة الجند على مقدرات الدولة

لم يكن هناك جند دائمون أيام رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين، رضوان الله عليهم، وإنما يهرع المسلمون للانخراط في صفوف الجيش المنطلق للجهاد كلّما دعا الداعي، ويُعيّن الخليفة لهم أميراً يطيعونه في غير معصية[١]. والأمير بدوره يختار قادة الجناحين، والقلب، والساقة، ويبثّ العيون وهكذا. كما يكون حول الخليفة عدد من الأفراد ينفّذون أوامره في الحدود، وأمور الحسبة. وقد يكون لزعماء القبائل دور في مساعدة الخليفة أو الأمير، وفي تنفيذ ما يُطلب منهم لإلقاء القبض على بعض رجالاتهم إن دعت الحاجة إلى ذلك ـ ولم تدع في تلك الأيام ـ.

وحرص عمر الفاروق، رضي الله عنه، ألا يختلط المجاهدون (الجند) بسكان المدن كي لا يخلدوا إلى الراحة، ويميلوا إلى الدعة، فأمر أن يقيموا في معسكراتٍ خاصةٍ بعيدةٍ عن المدن، ونشأت نتيجة ذلك مدن البصرة، والكوفة، والفسطاط. ولعلنا نرى اليوم أثر الجند في المدن عندما يختلطون بالأهالي، وما ينتج عنه من تعدي الجند، وغطرسة الضباط، وأثر ذلك أيضاً على الناحية الأمنية.

ولم يختلف الأمر كثيراً في العهد الأموي والعصر العباسي الأول عمّا كان عليه في صدر الإسلام، ما دامت توجد فتوحات أو غزوات على الأقل، وما دام الخلفاء أقوياء، وللحكم هيبة. فلمّا توقّفت الفتوحات، وقلّ الغزو، وضعُف الخلفاء، وذهبت هيبة السلطة اختلف الأمر تماماً، إذ لم

---

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «على المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصيةٍ، فإذا أمر بمعصيةٍ فلا سمع ولا طاعة». متفق عليه.

يعد هناك جند للجهاد، وبدأت حركات التمرّد تحدث، ولم يجد المسلمون دائماً ضرورةً للتطوع في سبيل القضاء عليها حتى يُلزموا إلزاماً، كما أن السكان قد مالوا إلى الرخاء بسبب كثرة الأموال التي وردت عليهم، وقيام الرقيق بشؤونهم وأعمالهم، لذا كان على الخليفة أن يجد له جنداً يساعدونه لتنفيذ أوامره، ويكونون له سيفاً على حركات التمرد، ومن تسوّل له نفسه بالعصيان. ولم يكن هؤلاء من العرب أو من الفرس لأن كليهما قد عاش في حياة الترف الأمر الذي اضطر معه الخليفة إلى إيجاد هؤلاء الجند من الترك الذين كانت بلادهم قد فُتحت أجزاء منها ولا تزال مناطق واسعة منها في أواسط آسيا تعيش على الوثنية، فيأتي منها الرقيق، ويجلب الأسرى حيث تقوم بعض الغزوات، فيأخذ الخليفة أعداداً من هؤلاء الأسرى أو الأرقاء ممن يجد فيهم ملامح النباهة وعناصر الذكاء، ويربيهم تربيةً عسكريةً، ويستعين بهم في الملمات، وكثُر عدد هؤلاء الجند مع الزمن، وقوي نفوذهم لأنهم أصبحوا عصا الحاكم التي يضرب بها خصومه، وأصبح مركز قادتهم عظيماً لأنّهم وحدهم يستطيعون أن يوطّدوا الأمن، ويُخضعوا أية قوةٍ مهما علت، ثم غلبوا على أمر الخليفة نفسه حتى قتلوا الخليفة المتوكل على الله عام ٢٤٧هـ. وأصبح الخلفاء بعدئذٍ ألعوبةً بأيديهم يعزلون من شاءوا، ويقتلون من شاءوا، ويمثّلون بمن شاءوا، واستمر ذلك حتى جاء البويهيون فسيطروا على السلطة كعسكريين، وكذلك أتى السلاجقة بعدهم، ولم يختلفوا عنهم من حيث الصفة. هؤلاء الجند أمرهم واحد سواء أكانوا عرباً، أم فُرساً، أم تُركاً، هم عسكريون، فالأمر ليس مقتصراً على جنسٍ أو خاصاً به، فالجندي الذي رُبّي تربيةً عسكريةً، وعاش مع السيف والرمح، وتعامل معهما، هو غير الذي يسوس الأمور، ويدبّر الشؤون، يلين لشخص، ويقسو على آخر، ويستعمل الحكمة، ويضع كلّ شيءٍ في موضعه. والجندي الذي يعيش في الثكنات، ويكون على أُهبة القتال في كلّ وقت، ويخوض غمار المعارك حسب الأوامر التي تُعطى إليه هو غير الذي يحيا بين أهله، يخطط للمعركة من وجهة نظرٍ سياسيةٍ، ويبحث في النتائج، وما تؤدي إليه. وإن الذي يحيا حياةً قاسيةً قد يحقد

على أولئك الذين يعيشون حياة المترفين فيعمل ضدهم، ويحاول أن يسلبهم ذلك، فإذا تمّ له سار على ما كانوا عليه. . . وهذا ما يكون من العسكريين في كلّ وقت. وهذا التسلّط العسكري على الحكم العباسي في عصره الثاني هو الذي أضعف الدولة لا لأن هؤلاء العسكريين ينتمون إلى شعبٍ غير الشعب العربي كما يدّعي دعاة العصبية العربية.

وعندما خضعت الدولة للعسكريين، وسيطر الجند على مقدراتها بدأ أمرها يضعف، وشأنها ينحطّ، وهذا الأمر دائم. وقد يكتسب مع سيطرة العسكريين بعض الدعاية الخارجية، والهيبة المصطنعة، ولكنه أمر ظاهري ولا يلبث أن ينهار بعد زوال حكم الطاغية أو مع أول معركةٍ، وإن كانت صغيرةً، لأن الشعب الذي أُذِلّ لا يمكن أن يُقاتل به، والفرد الذي جُوِّع لا يُمكنه أن يتحرك ويُضحّي بأوامر الذين جوّعوه.

ونلاحظ في العصر الحديث أنّه عندما تعجز الدول الكبرى على تحقيق أهدافها في بعض الدول الضعيفة لعزّة شعبها وأنفته فإن تلك الدول الكبرى تعمل على إخضاع تلك الشعوب بحكوماتٍ عسكريةٍ تنفّذ أغراض الدول الكبرى، ولا يجرؤ أحد على الوقوف في وجهها. ويضع العسكريون الأمور في غير موضعها، ويُذلّون الشعب، ويُفقرونه، كي يخضع لهم، ويسكت عن تصرفاتهم، وتضعف الروح المعنوية، وتعجز الأُمّة عن تحقيق أيّ نصرٍ، والقيام بأيّ أمر، وهذا ما تريده الدول الكبرى التي تستطيع بعدها أن تحقق كلّ ما تشاء دون أيّة مقاومةٍ، مع أن دعاية السلطة قد تكون قويةً ولكنها بالكلام والإعلام.

* * *

٣- العصبية التي استفحل أمرها

بعد أن فتح المسلمون بلاد فارس دان أهلها بالإسلام، وأقول أهلها أي غالبية أهلها، ولم يكن هذا الدخول واحداً لدى جميع السكان، إذ كان بعضهم صادقاً بإيمانه، وقد أخلص النية، وعمل لدينه بكل طاقاته وإمكاناته، وكان بعضهم دون ذلك، وقد أسلم عن قناعةٍ ويقين، وهذا شأن الغالبية العظمى، ولكن هذا لا يمنع من وجود أشخاصٍ دخلوا في الإسلام تقيةً عندما رأوا دخول الناس في دين الله، أو خوفاً من السيف، وقد أظهروا الإسلام، وأبطنوا المجوسية، ديانة فارس القديمة، ومنهم من اكتفى بذلك، ومنهم من عمل ضد الإسلام، وحاربه تحت ظلّه، فإنّ الذين كانوا سدنة النار، وأفادوا من مهنتهم، وضاعت عليهم الفائدة بمجيء الإسلام، كرهوا الإسلام، وحقدوا عليه، وكذا من كان مستفيداً من السلطة سواء أكان من رجالها أم من أنصارهم فهؤلاء لم يريدوا أن يفهموا الإسلام، بل لم يرغبوا في بحث الأمر مطلقاً، وإنّما نظروا إليه من زاويتهم الخاصة ومما استقر في أذهانهم سابقاً لذا فهم أعداء الإسلام، وإن أظهروه رسمياً، وبقوا على ذلك. وفي كلّ أُمّةٍ وفي كل شعبٍ يمكن أن توجد عناصر من هذا النوع، ألم تبق عناصر من قريش ضد الإسلام رغم انتصاره؟ ألم تبق أشخاص من المنافقين في المدينة المنورة مقرّ حكم رسول الله ﷺ، وبين أظهر صحابة رسول الله؟ ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٠٢﴾[1]. بل رُبمّا نشأت عناصر من هذا النوع أثناء المسيرة، وهذا أمر طبيعي، ألم يكن لنا اعتراضات على المختار بن أبي عبيد الثقفي وأمثاله ممن ادعوا ادعاءاتٍ وادعاءاتٍ ولا نزال في القرن الأول الهجري؟ وفي العصور التي تلت ظهر بين العرب كما ظهر بين غيرهم من ادعى النسب، ومن ادعى النبوة، ومن ادعى غير ذلك.

هؤلاء الذين أظهروا الإسلام من الفرس وبقوا على مجوسيتهم، وإن كانوا قلةً إلاّ أنّهم قد استفادوا من العصبية، ومن صلتهم ببعض أبناء جنسهم، ومعرفتهم لهم، ما داموا لم يصرّحوا بحقيقتهم، وقاموا بأدوارٍ على غايةٍ من السوء. ولكن من طرفٍ آخر نلاحظ العصبية عند العرب ـ ومع الأسف ـ فإن دعاتها بدلاً من أن يتحدّثوا عن هؤلاء المتعصبين من الفرس، وعقيدتهم الفاسدة التي جمعتهم، وحقدهم على الإسلام، والأدوار الخطيرة التي قاموا بها، فإنهم قد قابلوهم بعصبيةٍ أشدّ منها فاتهموا الفرس جميعاً، وجعلوا معاداتهم للعرب والإسلام أساساً لكل عمل، وفسّروا كل تصرفٍ لهم بهذا.

عمّم دعاة العصبية العربية هذا الاتجاه على الفرس جميعاً الأمر الذي جعل العصبية الفارسية تنمو، واستطاع المتعصبون من الفرس أن يدخلوا إلى كثيرٍ من الحركات التي تعادي الإسلام، ذلك أن عدداً من الفرس قد بقيت عندهم خلفية جاهلية، وهي أنّ الحاكم له صفة القدسية، وينتقل الحكم بالوراثة، فأظهروا التشيع لأن الشيعة قالوا بضرورة انتقال الخلافة بعد رسول الله ﷺ إلى علي بن أبي طالب وأبنائه من فاطمة، رضي الله عنها، من بعده، ويمكن ملاحظة نسل الحسين بن علي بن أبي طالب قد انحصر بولده علي زين العابدين بن الحسين والذي أمه سلافة بنت ملك الفرس يزدجرد وبذا فقد اتصل نسل ملوك الفرس بأحد أعلام آل البيت، وهكذا فإن أئمة الشيعة التي دوّنت قد حُصرت بنسل علي زين العابدين بن الحسين.

---

(١) سورة التوبة: الآيتان ١٠١ ـ ١٠٢.

وكان من هؤلاء الذين أظهروا التشيع الحركات الباطنية، والذين ادعوا النسب إلى رسول الله ﷺ، وحركات بعض المتصوفة الذين ادعوا القيام بأعمالٍ خارجة عن سنن الكون، وكان لهم شطحات وشطحات، كما قال بعضهم بالحلول، ووحدة الوجود، ورفع بعضهم التكاليف عن أتباعه، ومن وراء ذلك كلّه العمل على تهديم الإسلام.

ويمكن أن نضيف في عامل العصبية إعلان إيران أنها خليفة لدولة فارس القديمة، وإعلان قيام دولة الشيعة فيها أيام أولجايتو (محمد خدابنده)[1] عام ٧٠٤هـ، ثم أيام الصفويين[2] عام ٩٠٦هـ، وكان للخلاف المذهبي دوره في هذا الشأن.

كما أن لعامل التاريخ أثراً كبيراً في نشأة هذه العصبية، وهو ما نتحدث عنه الآن: تمّ فتح بلاد فارس بعد أن انساح المسلمون فيها إثر معركة نهاوند عام ٢١هـ أيام الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، إلاّ أنّ بعض المناطق قد عادت فانتفضت فجدّد الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فتحها، واستقر وضع المسلمين هناك نهائياً. ولما نقل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، مركز خلافته إلى الكوفة كان المشرق يتبعه، وكان عامله على خراسان زياد بن أبيه، واستمر ذلك حتى استشهد سيدنا علي، ثم تنازل سيدنا الحسن لمعاوية، رضي الله عنه، فأبى زياد بن أبيه واعتصم بخراسان، ولم يتمكن معاوية من خراسان حتى استرضى زياداً، وقرّبه منه.

---

(١) اولجايتو بن أرغون بن اباقا بن هولاكو: تولّى حكم الدولة الإيلخانية المغولية في بلاد إيران عام ٧٠٤هـ بعد وفاة أخيه غازان الذي شبّ على البوذية، ثم اعتنق الإسلام، ومع هذا فقد استمر في قتاله للمماليك، وهو الذي فاوضه ابن تيمية. وكذا فإن اولجايتو قد نشأ على النصرانية، ثم اعتنق الإسلام، وتسمّى باسم (محمد خدابنده)، وقد نشر المذهب الشيعي في منطقة حكمه، وأصبح الدين الإسلامي هو السائد في دولة إيلخانات الفرس، ولكن تجزأت هذه الدولة من بعده.

(٢) أسس دولة الصفويين إسماعيل الصفوي عام ٩٠٦ وتعرف باسم (القزلباشية)، وكانت شيعية متعصبة.

ولم يكن الأمويون أصحاب عصبيةٍ عربيةٍ وضد الفرس أو الموالي، مع العلم أن الفرس شيء والموالي شيء آخر كما سيمر معنا - إن شاء الله -، كما تُصوِّر ذلك كتب التاريخ التي بين أيدينا، وليس من أمر تستدلّ به على رأيها سوى حادثةٍ فهمت بشكلٍ غير صحيح، وهي حادثة الجراح الحكمي أيام عمر بن عبد العزيز، وهي أنّه قد أخذ الجزية من بعض الناس من المجوس، ثمّ دانوا بالإسلام بعد مرور مدةٍ من العام فلم يردّ لهم ما أخذ عن عامهم ذلك، واجتهد وعدّ ما أُخذ لا يُردّ، وإنما تسقط الجزية بعد عامهم ذاك، فرفعوا هذا الأمر إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز، فقضى لهم، وردّ ما أُخِذَ منهم، وأجاب واليه جوابه الشهير «إن الله بعث محمداً هادياً، ولم يبعثه جابياً».

ولم تكن هناك ضرورة لاستقدام عمال وولاة من فارس إلى بلاد الشام أو غيرها من الأمصار في الجناح الغربي من الدولة الإسلامية، إذ أن كلّ منطقةٍ تكفي نفسها بعمالها وأمرائها وخاصة أن هناك اختلافاً في اللغة، ومع هذا فقد استعمل الأمويون بعض العناصر الفارسية في المواضع التي هم بحاجةٍ إليها. أما في فارس فقد استفاد الولاة من الفرس في كثيرٍ من المناصب ومراكز الإدارة. وهذا الأمر عام في مختلف الأمصار الإسلامية فلم يستعمل الأمويون البربر في الشام ولا في فارس، وإنما استعملوهم في المغرب والأندلس، كما أن العباسيين لم ينقلوا عمالاً لهم من فارس إلى غيرها من الأمصار في الجناح الغربي من الدولة.

وأما وجود العناصر العربية في بقية الأمصار فإن الفتوحات الإسلامية الأولى قد قامت على سواعد العرب، وقد استقر أعداد من الفاتحين في المناطق التي دخلوها، بل إن قبائل وبطوناً كاملةً قد استقرت في جهةٍ معينةٍ نتيجة وجود كثيرين من الفاتحين من أبنائها. وأما وجودهم في مركز القيادة فهذا أمر طبيعي بصفتهم الفاتحين، وبصفة الخلفاء من العرب، ويعتمدون على من يعرفون، وكما حدث هذا عند الأمويين حدث عند العباسيين.

وأما ما يُذكر من عداوة الفرس للعرب في اشتراكهم ضد الأمويين في

حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي[١]، وحروب ابن الزبير، وحركة ابن الأشعث[٢] فإن هذا الكلام يُعدّ في مُنتهى التجنّي على التاريخ، فإذا كانت هذه الحركات قد قامت في هذه المنطقة فهل يُعقل أن يكون أتباعها من البربر، أو الصقالبة؟ أليس سكان المنطقة هم الذين قاموا بالحركة؟. ومن ناحية أخرى فهل كان أتباعها من الفرس أكثر من أتباعها من العرب؟ وهل كان قادتها ومحركوها إلا من العرب؟ الواقع أن معظم جنودها وقادتهم كانوا من العرب، فلماذا إذن قتال العرب للأمويين أصحاب النزعة والعصبية العربية؟ إن العصبية بين القيسية واليمانية العربيتين كانت أشد بكثير من العصبية بين العرب والفرس، وإن الخلاف بين الشاميين والحجازيين في الأندلس كان أشد مما هو بين العرب والبربر.

وعندما قامت الدعوة العباسية اتخذت الكوفة مركزاً لها بصفة أن أنصار آل البيت فيها كثيرون، ومنها يمكن التوجه نحو خراسان والاتصال فيها بسهولةٍ ويسر. ثمّ إنّ الدعاة والإمام قد رأوا ضرورة التركيز على

---

(١) المختار بن أبي عبيد الثقفي: ولد في السنة الأولى للهجرة في الطائف، وانتقل مع أبيه إلى المدينة زمن عمر بن الخطاب، واستشهد أبوه يوم الجسر، وبقي هو في المدينة منقطعاً إلى بني هاشم، وتزوج عبد الله بن عمر أخته صفية، ثم انتقل إلى العراق مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وسكن بعده البصرة. وبعد مقتل الحسين أظهر نقمته على عبيد الله بن زياد، فحبسه، ثم نفاه إلى الطائف بعد شفاعة ابن عمر له. وعندما قام عبد الله بن الزبير بالأمر في مكة كان معه، ثم استأذنه بالدعوة له بالعراق، وانتقل إليها، وهناك دعا لمحمد بن الحنفية، وإلى قتل الذين قتلوا الحسين فتبعه الناس، وخرج بهم على والي الكوفة فغلب عليها، واستولى على الموصل، وقتل قتلة الحسين، وهاجم مكة، ثم قتله مصعب بن الزبير والي البصرة من قبل أخيه عبد الله وذلك عام ٦٧هـ.

(٢) عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي: سيّره الحجاج لغزو بلاد الترك فيما وراء سجستان، فغزا بعض أطرافها، وانتصر، وأخبر الحجاج بذلك، وأنه يرى ترك التوغل في بلادهم حتى يمضي فصل الشتاء البارد، وكي يتعرف على مداخلها، فخالفه الحجاج، واتهمه، ووبخه، وأمره بالمضي قدماً، واستشار عبد الرحمن جنده فلم يروا رأي الحجاج، واتفقوا على نبذ طاعته، ومبايعة عبد الرحمن، ثم خلعوا عبد الملك، واتجهوا إلى العراق، وجرت معارك ضخمة بين الطرفين، هزم في آخرها عبد الرحمن وقتل عام ٨٥ بعد أن دان له المشرق باستثناء خراسان التي عليها المهلب.

الدعوة في خراسان لا لأنها مركز ثقل بالنسبة إلى الفرس أو إلى الترك، وإنّما لقيام الصراع على أشدّه بين القيسية واليمانية من العرب حيث يمكن الإفادة من هذا الصراع وكسب العناصر المحايدة التي ضاقت ذرعاً بهذا النزاع، أو كسب اليمانية التي تشكُل أكثرية المجموعة العربية هناك، والتي تعادي والي خراسان نصر بن سيّار الذي يعتمد على القيسية ويتعصّب لها. وقد وجد الدعاة العباسيون فعلاً أذناً صاغيةً في خراسان، وتمكّنوا من النشاط حتى تمّ لهم الأمر، ولم تكن خراسان لتختلف عن غيرها من الأمصار الإسلامية.

وهناك نقطة يمكن أن نلاحظها وهي أن سكان خراسان ليسوا من الفرس، وإنما هم من الأتراك، ومعروف أن حاضرتها كانت مدينة مرو، وهي ضمن بلاد التركمان التي تخضع اليوم للروس، وأنّ خراسان التي كانت تشمل ما يقع الآن في شمال بلاد الأفغان، وشمال شرقي إيران، وبلاد التركمان، إن هذه المناطق تضمّ اليوم سكاناً من الترك بأكثريتهم، وكذا كانت يومذاك، وإن ضمّت إضافةً إلى ذلك مجموعاتٍ من الفرس من السكان الأصليين، ومجموعاتٍ من العرب والفرس جاءوا فاتحين واستقروا فيها. إلاّ أن ارتباط قيام الدعوة العباسية بخراسان، وارتباط تلك الدولة في أذهاننا بالفرس قد جعلنا نتصور دائماً سكان خراسان من الفرس، وهو الأمر المفهوم لدى أكثرية الناس، وقامت عصبية على الوهم ضد الفرس، هذا بالإضافة إلى أن الرجل الذي قامت الدولة على كاهله، أبو مسلم الخراساني، قد نسب إلى خراسان، والواقع أنه ليس من خراسان وإنما من فارس، كما أن هذا إنما هو اسم حركي، فاسمه إبراهيم بن عثمان.

قامت الدولة العباسية نتيجة التخطيط والسرية على أيدي سكان خراسان سواء أكانوا عرباً أم فُرساً أم تُركاً، وشكل طبيعي أن يحصل هؤلاء على مراكز كبيرة ومناصب عاليةٍ في الدولة، وكان من جملة هؤلاء أعداد من الفرس ـ مع أنهم أقلّ من غيرهم ـ ما داموا يشكّلون جزءاً من السكان، وبرز منهم فئة، وظنّ بعضهم أن الدولة أصبحت لهم ما دام منهم كبير

القادة، وهو أبو مسلم الخراساني. ثمّ لم يلبث أن حصل نزاع بينهم وبين الخلفاء العباسيين الذين لا يريدون أن يستأثر غيرهم بالسلطة سواء أكان عربياً أم فارسياً أم تركياً، وكما تخلّصوا من أبي مسلم الخراساني فإنهم قد تخلّصوا أيضاً من عبد الله بن علي العباسي الهاشمي عمّ الخليفة، وقائد الدولة، بل إن الخليفة المنصور قد ضرب أحدهما بالآخر، فلماذا ركّز أصحاب العصبيات على أبي مسلم وأغفلوا التخلص من عبد الله بن علي؟ فكلاهما صاحب أطماع بغضّ النظر عن فارسية الأول وعربية الثانية.

إن النزاع الذي حصل بين العرب والفرس في العصر العباسي الأول ـ على زعمهم ـ ولم يحدث نزاعاً وليس هو بالمعنى العصبي القومي الذي عرفته البلدان الإسلامية في أيامها الأخيرة نتيجة العدوى التي انتقلت إليها من أوربا. وإذا سلّطنا الأضواء على ذلك الصراع بين العرب والفرس فلماذا نغفل الخلاف بين القيسية واليمانية؟ وعندما نعلم أن اليمانية وقفت مع الفرس تقاوم الأمويين الذين يدعمون القيسية، عرفنا أن النزاع لم يكن قومياً وإنما لتحقيق الأطماع والمصالح. وهو ما حدث تماماً من خلاف بين الشاميين والحجازيين في الأندلس.

وإن النزاع الذي حدث بين التجمعات في العصر العباسي الأول، إنما هو تكتلات لتحقيق أغراض قبل أن يكون عصبيةً قوميةً، فقد بقي عدد من الفرس بجانب الخلفاء العباسيين بعد أن ضربوا أبا مسلم الخراساني، والبرامكة وغيرهم، وقام بعضهم بضرب فُرسٍ آخرين، إن القومية العلمانية الحديثة هي التي ركّزت على ذلك التعصب، وزادت فيه، وأعطته تلك الصفة، ووصفت العهد العباسي بنزعةٍ خاصةٍ، إن هذه الصفة وتلك النزعة لم تكن معروفتين يومذاك أبداً.

* * *

٤ - المظاهر المادّية الحضاريّة

الحضارة هي الاستقرار، والأمن، والسعادة النفسية بتأمين أهداف الإنسان وحاجاته المادية الأساسية المتطوِّرة والتي تتفق والمدة الزمنية التي يعيش فيها الإنسان، والتي تحقق خدمته ورفاهيته، فإذا وُجدت الحضارة نتج عنها ما يُعرف بمظاهر الحضارة، وهي التي يظنّها الناس ـ غلطاً ـ هي الحضارة. وتختلف هذه المظاهر باختلاف تطور الوسائل وباختلاف مفهوم الإنسان عن الحياة وهو الذي ينبع من العقيدة. فالماديون يحسبون الآلات هي وسيلة التطور وحدها، ويعدّون طلب الملذّات، والحصول على الشهوات، وتأمين المصالح الخاصة، وبناء الجاه، وحب الشهرة تقع كلّها ضمن خدمة البشر بغضّ النظر عن الطرق التي يحصلون عليها، وما ينتج عنها من نتائج اجتماعية، أي ولو أدّى ذلك إلى تدمير مجتمعٍ كاملٍ أو قتل أفراد أمةٍ جميعاً. أما المسلمون فيعدون الوسائل التربوية والمادية هي مجال التطور، ولا تفيد الثانية دون الأولى، ويحسبون الوسيلة الشرعية هي وحدها التي تقع ضمن خدمة الإنسان مع النظر إلى سلامة المجتمع والنتائج الإيجابية الصحيحة، أما الوسائل غير الشرعية فهي من الأمور السلبية التي تضرّ بالمجتمع، وتفتك به، وتقضي على ما أقام من تقدمٍ وتطور للوسائل، وتهدم بالتالي ما شُيّد من حضارة.

إنّ تطوّر الوسائل هو من نتائج تصوّر الإنسان للحياة وبيان مهمته فيها، وهذا ما تقدّمه العقيدة، فالعقائد المادية تبيح للفرد أن يتصرّف بما يملك من وسائل لتأمين رغبات غرائزه دون النظر إلى النتائج، أو تسمح للجماعة أن تعصر الفرد عصراً تُذيب معه كامل شخصيته، وإن كان له الحق أن يُطلق العنان لغرائزه البهيمية دون رادع. وأن الوسائل تتطور في سبيل

الحصول على المنفعة المادية سواء أكان للفرد أم للدولة، ومن وراء المنفعة المادية الشهوة والشهرة وما إلى ذلك، وكل يُسمّي ما يعتقد حضارةً. أما الإسلام فقد وضع لكلٍ حدّاً يقف عنده بحيث لا تطغى الجماعة على الفرد، ولا ينطلق الفرد بلا حدود، ويبحث الإسلام في النتائج الاجتماعية ليبقى المجتمع صحيحاً، ويؤدي دوره في الحياة كاملاً. فالحضارة إذن من نتاج العقيدة التي ترسم لأتباعها تصوّراً خاصاً عن الحياة، وتبياناً لمهمتهم فيها، ومن هذه المهمة يندفع المرء إلى العمل والنشاط، فينشأ التطور، ويحدث التقدم، وتكون الحضارة.

ولما كانت هناك عقائد مختلفة تتباين في نظرتها إلى الحياة، وإلى مهمة البشر في الدنيا، وإلى سعادة الناس كانت هناك حضارات مختلفة. فالحضارة المادية ينظر بعض أتباعها إلى سعادة الإنسان في الحياة في حريته الكاملة بغضّ النظر عن مصلحة المجتمع، لذا فهي تُهيء المُناخ المناسب ليمارس الفرد حريته كاملةً، ومن هذه الحرية ينطلق ويُطوِّر الوسائل المادية ليتمكَّن من تحقيق كلّ ما تصبو إليه نفسه، على حين ينظر بعض أتباع الحضارة المادية الآخرين إلى مصلحة الجماعة ويجعلون الفرد يذوب ضمنها ويعمل لها، ويطلبون منه أن يعمل ما في وسعه لسعادتها ـ حسب زعمهم ـ.

أما الإسلام فيعدّ الإنسان مستخلفاً في الأرض، وعليه أن يقوم بإعمارها حق القيام، ويؤدي مهمته التي أُنيطت به حق الأداء، ويعدّ الإسلام الإنسان مسؤولاً عن ذلك في الدنيا أمام النظام، وفي الآخرة أمام الله الذي استخلفه في الأرض، وأوكل إليه القيام بهذه المهمة، وسخّر له ما في السموات وما في الأرض، وأسبغ عليه نعمه ظاهرةً وباطنةً، لذا فقد كان على المرء القيام بالعمل في الأرض، وإحياء الموات منها، واستغلال ما فيها أحسن استغلال، ومن هنا كانت الحضارة الزراعية، وما يتبعها في كلّ ما يتعلق بالأرض، وكلّ ما يرتبط بها من وسائل الاقتصاد من صناعةٍ، وتجارةٍ، ومن مواصلات، وكانت الدولة هي المسؤولة عن تنقّل الناس، وتأمين مصالحهم، وحماية سيرهم وقوافلهم.

كما يهتم الإسلام بالإنسان ويكّرمه، ويهتم بصحته، وحريته، وعقله، وتفكيره، لذا فقد اهتم بعقيدة المرء، ونزع ما في نفسه من أساطير وأوهام، وما يعلق فيها من شوائب وخُرافات، وحرر عقله مما يسيطر على عقول الجاهليين من تنجيمٍ، وطيرةٍ، وهامةٍ، ومنع كلّ ما يحول دون انطلاق فكر المسلم، وتحرّره من كل قيدٍ يمكن أن يُفرض عليه، وبذا أخرجه من الظلمات، والظلم، والاستبداد. ومن الناحية الصحية حرّم الإسلام كلّ ما يُؤذي جسم الإنسان أو نفسه من سمُوم، ومُسكرات، ومُخدرات، ومنع الإنسان أن يقتل نفسه أو غيره، وهدّد الفاعل بأقسى العقوبات، وهي نار جهنم. وكذا اهتم بالمساواة بين الأفراد بعضهم مع بعض، وحرص على عدم التمييز بين عناصر المجتمع على أساس المال، أو الأصول والبيئات، أو المسكن والمكان، أو المهنة والعمل كي لا تنشأ الطبقات، وحتى لا يكون انفصام بين أبناء المجتمع الواحد، وحتى لا تكون الضغائن والأحقاد، وحتى لا يحدث الصراع الذي يقوم بين الطبقات في المجتمعات الحالية، وإنما ينظر الإسلام إلى الجميع النظرة الإنسانية، نظرة المساواة بصفة أنهم جميعاً يعودون إلى أصلٍ واحدٍ. كما أمر بنشر العدالة بين الرعية، والتعاطف والتراحم بين الجِوار وأولي الأرحام ثم بين المسلمين جميعاً. واهتم بالعدل، وعدم النظر إلى منصب الأفراد ومركزهم، والخليفة فرد من المجتمع، كما طالب أولي الأمر بالتواضع وعدم الترفع على الرعايا، وإن كان هذا للمسلمين جميعاً إلاّ أنه خصّ أولي الأمر منهم، فهم أحق في هذا، وأكثر مسؤوليةً في ذلك. ولم يكلّف الإسلام المرء فوق طاقته، ولم يحمّله ما لا يستطيع، ولم يأمره بالسخرة في الأعمال للسادة والأشراف - كما كان يحدث عند بقية الأمم، ولا في مشروعات الدولة إلاّ إذا كانت خدمةً عامةً ينال منها الفرد المكلف، أو فيها مصلحة للمسلمين جميعاً، لذا لم يهتم المسلمون ببناء القصور المنيفة والبيوتات الشامخة، ولا المساجد الفخمة كي لا يحدث الحقد، وينظر الفرد إلى المسؤول عنه نظرة الكراهية، أو إلى الغني نظرة الحقد والبغض، وما حدث في تاريخ المسلمين من هذا لم يكن إلاّ في الأيام الأخيرة يوم بدأ الإسلام ينحسر من نفوس أبنائه.

والدولة الإسلامية مسؤولة عن تأمين العمل لرعاياها، وعن مسكنهم، وطعامهم، ورعاية حالات العجز والشيخوخة بغضّ النظر في عقيدة الأفراد الذين تصيبهم هذه الحالات.

فالحضارة الإسلامية إنسانية تختلف عن غيرها من الحضارات المادية اختلافاً بيّناً. وهي حضارة قائمة بذاتها تنبع من العقيدة الإسلامية، من نظرة المسلم للحياة، ومهمته فيها، وما يُحقق للنفس من سموٍ، وما يُؤمن للمجتمع من رفاهٍ وسعادةٍ، على حين أن بقية الحضارات المادية تأتي من نظرة الإنسان المادية، وما يحقق فيها لنفسه من ترفٍ، وما يتمتع من ملذّات، وما يُحقق من شهواتٍ وشهرةٍ وبناء عزٍّ. وتنظر إلى ما شاده القدماء أو المتأخرون من أبنيةٍ وقصور، وهياكل ومعابد، وأهراماتٍ ومقابر، وساحاتٍ ومسارح، وبقيت شامخةً على مدى قرونٍ طويلةٍ تنظر إلى هذه كلها نظرة عادية فهي ليست إلاّ فن عمراني لم يُشد لخدمة البشر وسعادتهم، وإنما أُقيمت حسب أهواء حكامٍ، وقامت على أعمال السخرة، وإرهاق الناس وتكليفهم ما لا يطيقون.

ومن هذا المنطلق فإن الحضارة قد بلغت أوجها عندما استقرّ الناس، وساد الأمن، وعمّ بينهم العدل، وانتشرت المساواة، وأُمّنت حاجاتهم الأساسية، وانطلقوا لتحقيق أهدافهم ومهمتهم في الحياة بكل رضىً للحصول على السعادة النفسية وهذا ما تمّ في صدر الإسلام فكانت الحضارة العظيمة ومن ثَمّ أخذت تبدو مظاهرها من هذا المنطلق فيما بعد، وللحضارة مظاهر متعددة فهناك مظاهر أساسية هي: العلم والأخلاق والإنتاج، ومظاهر كمالية هي: البناء والعمران، وهناك مظاهر ترفيهية هي: الزخرفة والموسيقى والفن و... وإذا وصلت الحضارة إلى المظاهر الترفيهية بدأ الترف أو بدأت نهاية الحضارة وهذا ما حدث في الدولة العباسية حيث بدأت الحضارة تنهار، وسقطت الدولة، ولم تصل الحضارة إلى أوجها كما يتصور الماديون.

عاش الإنسان في أكثر جزيرة العرب قبل الإسلام متنقلاً لا يأمن على

نفسه، ولا على عرضه لكثرة الغارات التي تحدث، والأيام بين القبائل التي لا تنتهي، فإذا انتقل الإنسان إلى مدينةٍ واستقر بها، وترك حياة الترحال والانتقال قالوا: إنه تحضّر، فالاستقرار بداية مراحل الحضارة. فلما جاء الإسلام، وتأسست دولته الأولى في المدينة المنورة أيام رسول الله ﷺ ساد الأمن، وزال الخوف، وأمن الناس على أنفسهم وعلى أموالهم، وأعراضهم، ونال كلٌّ حقّه حيث العدل والمساواة، وحصل على حاجاته الأساسية. وبدأ المسلمون بعد ذاك ينطلقون للدعوة لأفكارهم وعقيدتهم ويحققون بذلك مهمتهم في الحياة بالعبادة وإخراج الناس من الظلمات إلى النور فدانت لهم الجزيرة العربية وانطلقوا خارجها يُتممون مهمتهم، وبهذه الدعوة وهذه الفتوحات كانوا سعداء جداً، وبذا وصلت الحياة في الدولة الإسلامية أيام رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين إلى السعادة التامة بحيث لا يريد الإنسان أكثر مما هو فيه ـ حسب زمنه ـ من حيث الحاجات الأساسية والعمل العقيدي من عبادةٍ وجهادٍ. . . . . ولما كانت تُحقّق لكلّ إنسانٍ كلّ مبتغاه وما يتمناه فهو في سعادة، وهو في أوج الحضارة وعلى قمتها.

وفي العصر الأموي تتابعت الفتوحات، وبقيت أهداف المسلمين تتأمن بالجهاد، وإن ضعُفت أسس الحضارة قليلاً، حيث ظهرت بوادر العصبية الجاهلية، وكادت المساواة تبدو ضعيفةً، وغدا الخليفة يتصرف ببعض بيت المال، وزاد هذا في أواخر عهد الأمويين، واستمر الوضع في العهد العباسي الأول، وتوقّفت الفتوحات، وتناقصت أعمال الجهاد، إلاّ أنّ ما جاء من أموال بسبب الفتوحات السابقة، وما دخل البلاد من رقيق نتيجة الشراء بسبب الثراء ونتيجة الجهاد فإن مظاهر الحضارة قد بدأت تنحو منحى جديداً فالذين تمسكوا بأسس الحضارة الصحيحة قد انصرفوا نحو العلم فأنتجوا، وعاش آخرون في الترف واتجهوا نحو مظاهر الحضارة الكمالية فكان البناء، والعمران، وشقّ الأقنية، والزراعة، والتجارة وإن كان معظم ذلك كان يتم بأيدٍ غير أيدي السكان الأصليين من رقيقٍ وزنجٍ جُلبوا إلى المنطقة. وانصرف آخرون أيضاً نحو مظاهر الحضارة الترفيهية فعاشوا في

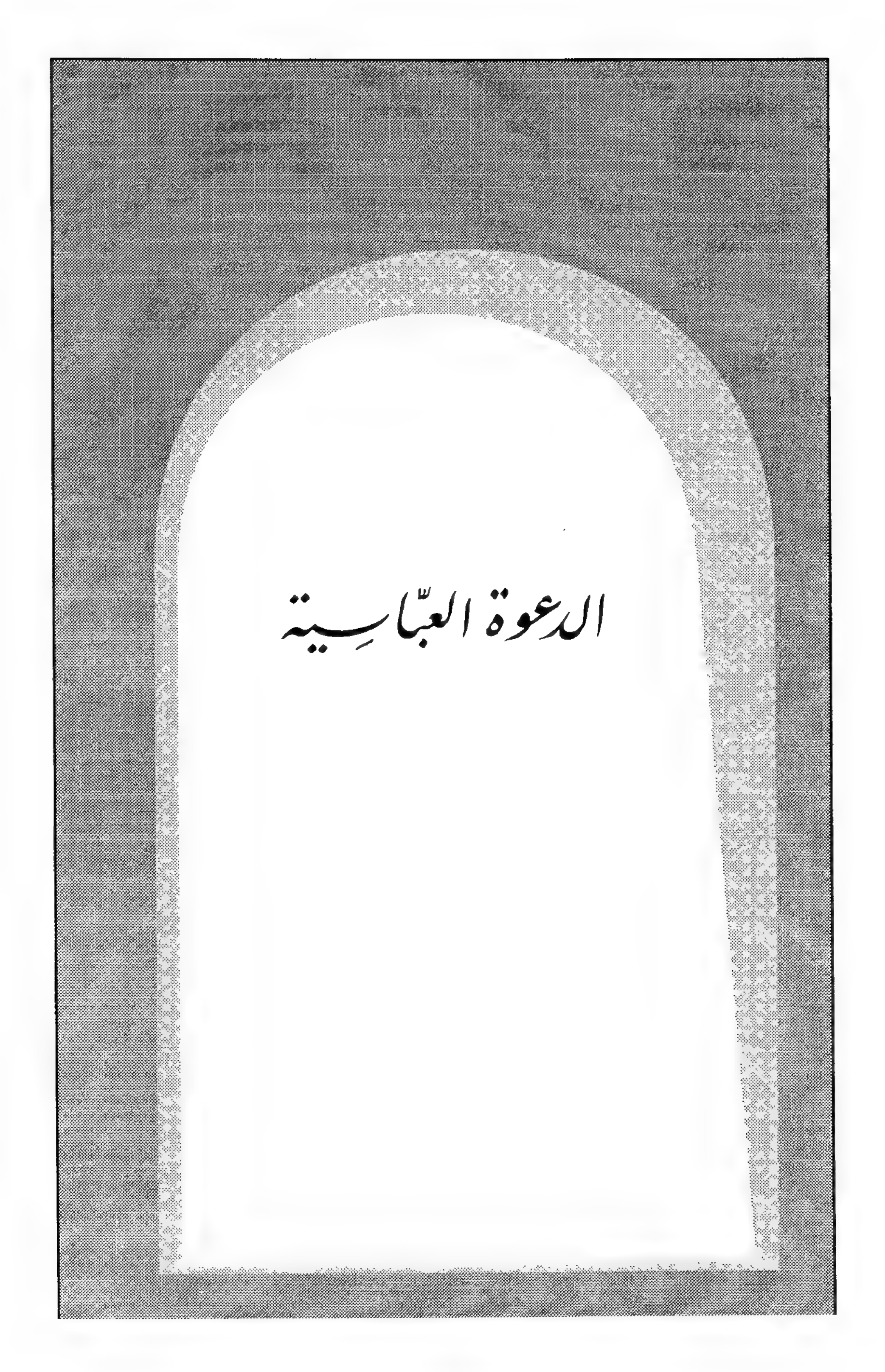
الغناء، والموسيقى، والشراب، ونتيجة الترف بدأت الحضارة تتراجع تدريجياً حتى قضى ذلك على الدولة العباسية إذ أن أُسس الحضارة في الأمن، والعدل، والمساواة، واحترام الإنسان قد بدأت تتراجع، ومع زوال الأُسس والأُصول تداعت الأغصان والفروع وتساقطت الثمار وبعضها لا يزال فجّاً لم ينضج، وبعضها قد جفّ ويبس بانقطاع النسغ الذي كان يأتي عن طريق الأسس.

ويمكن أن نقول: إن أسس الحضارة وأصولها قد بلغت أوجها في عهد رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين رضوان الله عليهم، وبدأت آثارها تظهر بعد الفتوحات إلاّ أن الترف قد أعطى آثاراً ترفيهيةً فتهدّمت الحضارة منذ وضوح مظاهرها إذ زالت أُسسها.

وهكذا فالتاريخ العباسي وقع تحت تأثير الشيعة الذين شوّهوا تاريخ الخلفاء وغيّروا وجه العهد، وفي النهاية سقطت بغداد بعد خيانة الوزير الشيعي مؤيد الدين العلقمي الذي ظاهر المغول وأطمعهم بالسير إلى بغداد ثم سلّمهم إياها. وتحت تأثير العصبية التي جزّأت الدولة، وقطّعت أوصالها، وتحت تأثير الحكم العسكري الذي أذلّ الخلفاء والرعية على حدٍّ سواء، وحكم بالحذاء، ثم هناك الترف الذي صرف الناس عن غاياتهم.

فالشيعة، والقومية، والحكم العسكري، والترف مصيبة الدولة العباسية بالأمس، ومصيبتنا اليوم.

* * *



الدعوة العبّاسِية

إنّ حبّ المسلمين لآل البيت، ثم عطفهم عليهم وخاصةً بعد فاجعة كربلاء جعل كلّ طامعٍ يدّعي أنّه يعمل أو يدعو لأحد رجالات آل البيت، ومن بين هؤلاء الطامعين المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي كان مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في العراق، وسكن البصرة بعده، ثم نفاه عبيد الله بن زياد بعد حادثة كربلاء إلى الطائف بعد أن سجنه مدةً، ثم كان مع ابن الزبير، وتظاهر أنّه من دعاته، وطلب منه السفر إلى العراق ليعمل له، فوافقه، وانتقل المختار إلى العراق، وهناك دعا لمحمد بن علي بن أبي طالب المعروف بـ (ابن الحنفية)[1]، ولكنّ محمداً لم يستجب له، وتبرّأ منه، وأعلن كذبه، غير أن المختار ادّعى أنّ هذا الرفض أو عدم الرضا من صفات الإمام. وقد قال محمد بن علي مرةً عندما بلغه أنّ بعض الناس يزعمون أن عند آل البيت كثيراً من أسرار العلم «وإنّا ـ والله ـ ما ورثنا من رسول الله ﷺ إلاّ ما بين هذين اللوحين، وأشار إلى المصحف. وإنّ من زعم أنّ عندنا شيئاً نقرؤه إلاّ كتاب الله فقد كذب». وعلى هذا لم يكن

(١) محمد بن علي بن أبي طالب، أبو القاسم: أُمّه خولة بنت جعفر الحنفية ونُسب لها تمييزاً له عن بقية أولاد علي، وهو أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام، وأخبار قوته وشجاعته كثيرة، كان واسع العلم، ورعاً، أسود اللون، ويقول: الحسن والحسين أفضل مني، وأنا أعلم منهما. ولد عام ١٣هـ، وحمل لواء أبيه يوم صفين، ولم يشهد كربلاء، ورفض بيعة ابن الزبير، وانتقل إلى الطائف هرباً منه، كما رفض بيعة عبد الملك بن مروان، ولما صفا الجو لعبد الملك وبقي خليفةً وحده بايعه، وتوفي محمد بن علي عام ٨١هـ، ولكن الكيسانية من أتباع المختار تدّعي أنه لم يمت، وأنّه مقيم بجبل رضوى قرب المدينة عنده لبن وماء.

محمد بن علي ليطلب لنفسه الأمر، أو يدّعي الإمامة، وكذا كان ابنه عبد الله[1]، وإن ادعت الكيسانية[2] أنّ الإمامة قد انتقلت إليه بعد وفاة أبيه.

كان بنو أمية يُكرمون بني هاشم، ويُقطعونهم القطائع، ويُعطونهم الأُعطيات، ولكن إذا حرّض بعض الناس أحدهم للخروج على الدولة نكّلوا به، وبمن حرّضه. وإذا كنّا لا نقرّ بني أمية في قسوتهم إلاّ أنّنا في الوقت نفسه لا نرى الخروج على الإمام، أو كلما حلا لأناس الدعوة لشخص دعوه إلى الخروج بحجة أنّه الإمام الشرعي ثم قام يدعو لنفسه، ويقاتل الخليفة القائم بالأمر، وإنّ الإمام الشرعي إنّما هو الذي أخذ البيعة من المسلمين دون إكراهٍ، ودون وراثةٍ، وفي الوقت الذي لا نرى فيه وراثة بني أمية السلطة ولكنّنا في الوقت نفسه لا نرى وراثة بني هاشم أو أية قبيلةٍ أو أسرةٍ أخرى، فالخلافة ليست ملكاً عضوضاً، وإن كان من خرج من بني هاشم هو أفضل من حكام بني أمية الذين خرجوا عليهم، لكنه من ناحيةٍ شرعيةٍ تصحّ إمامة المفضول مع وجود الفاضل. وكان خصوم بني أمية للإشاعة ضدهم كلما مات رجل من آل البيت ادعوا أنّ الأمويين قد دسّوا له السم أو عملوا على قتله، ولكثرة الإشاعات، كاد يصدق كلّ إدعاء.

ومن باب إكرام بني أمية لبني هاشم فقد أقطع الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي «الحميمة» بالقرب من الشوبك من إقليم البلقاء في الأردن لعلي بن عبد الله بن عباس، فأقام بها، واستقر فيها.

ومن هذا الباب أيضاً فقد زار أبو هاشم عبد الله بن محمد بدمشق الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، وقد أكرمه سليمان، وقدّم له

---

(١) عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب، أبو هاشم: كان من وجهاء آل البيت، ولم يطلب الأمر أبداً، وتوفي عام ٩٩هـ في الحميمة.

(٢) الكيسانية: فرقة تنسب إلى أبي عمرو كيسان قائد شرطة المختار بن أبي عبيد الله الثقفي، وهو من الفرس، وهناك من يقول: إن كيسان لقب للمختار. وهذه الفرقة تدّعي انتقال الإمامة من علي بن أبي طالب إلى ابنه محمد، ثم إلى ولده عبد الله أبي هاشم هذا، وتزعم أن محمداً لا يزال حيّاً، ويقيم بجبل رضوى. . .

الأعطيات، ثم انصرف أبو هاشم متوجهاً إلى المدينة المنورة، وأثناء الطريق شعر بالمرض، وأحسّ بدنو أجله، وحدّث بذلك لمرافقيه، فقال بعضهم لعلّ سليمان قد دسّ لك السمّ، فتوهّم بذلك، كحالة كلّ مريض، فانتشر الخبر، وأصبح الشكّ المزعوم يقيناً، فتأثر أبو هاشم من بني أمية، وعرّج على «الحميمة»، ونقل ذلك لابن عمّه محمد بن علي بن عبد الله بن عبّاس، وطلب منه أن يعمل ضدّ بني أمية. ولو كان قد وُضع لأبي هاشم السمّ لقُضي عليه بشكلٍ سريعٍ، وعادة الملوك أن تضع السمّ الزُّعاف، ولكنّ أبا هاشم قد عاش بعد مغادرة سليمان ما يزيد على الشهرين، وذلك عام ٩٩هـ.

ثم إن الرواة وأصحاب الأغراض قد زعموا أن أبا هاشم قد أعطى محمد بن علي العباسي أسرار الدعوة وتنظيماتها، في الوقت الذي لم يكن له أيّ تنظيم، وإنّ أبا هاشم ووالده محمد بن علي بن أبي طالب ليتبرؤون من الكيسانية، إذ أنّها مارقة منذ ذلك التاريخ. فلم تكن لهم أيّة صلةٍ بالكيسانية التي يدّعي الرواة أن بني هاشم قد اتجهوا نحوها.

والواقع أن محمد بن علي العباسي قد وقع في أذنه كلام أبي هاشم موقع الاستجابة إذ أنّه كان رجلاً طموحاً، وكان له أكثر من عشرين أخاً يدعمونه إضافةً إلى أبنائه فيشكلون بذلك قوةً، كما أنّ أباه علي بن عبد الله بن عباس قد شجّعه على المضي في هذه الطريق، واستمر يشجعه حتى توفي عام ١١٧هـ في «الحميمة». وعلى كلٍّ فقد حمل محمد بن علي العباسي على كاهله الفكرة، وبدأ يعمل على تنفيذها.

نظر محمد بن علي ليعيّن المكان الذي يجعله قاعدة انطلاقٍ لدعوته، وقد رأى أن تكون بعيدةً عن «الحميمة» لتبتعد الأنظار عنه، ويبقى الإمام المرشح مجهولاً كي يضمن جمع أكبر أعدادٍ من المعارضين لبني أمية، إذ لو سُمّي الإمام لابتعدت عنه مجموعات، ولاقتصرت دعوته على فئةٍ واحدةٍ، لأنّ كلّ جماعات ترى رجلاً معيناً من بني هاشم، وعلى هذا فقد جعل دعوته هاشميةً وإلى الرضا من آل محمد، فهي تشمل بذلك أبناء

علي، كما تشمل أبناء العباس، وتضمّ أبناء جعفر، وأبناء عقيل، وأبناء عليٍّ. ووقع اختياره على مدينة الكوفة إذ أنّها قاعدة الناقمين على بني أمية حيث فيها كثير من أنصار أبناء علي أولاً، ثم إن هذه المدينة قد قُتل من أبنائها الكثير مع مسلم بن عقيل[1]، ومع المختار الثقفي، ومع مصعب بن الزبير[2]، ومع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، ومع الخوارج و.... وقد نقم أهل هؤلاء القتلى جميعاً على بني أمية، وعندهم الاستعداد للثورة في كلّ آن تسمح لهم الفرصة فيه، أو تخفّ وطأة الحكم الأموي عنهم.

ورأى أن خراسان تقع في مشرق الدولة، وإذا دعت الظروف يمكن أن يفرّ من يريد إلى بلاد الترك المجاورة، كما فعل من قبل ابن الأشعث وغيره. وفي خراسان يشتدّ الصراع بين العرب، بين القيسية واليمانية، فيمكن الإفادة من هذا الصراع وجلب الجماعات الناقمة على هذا النزاع، والتي تريد أن تقضي عليه، وتتخلص منه، والجماعات التي يؤلمها هذا الصراع الجاهلي الذي يحاربه الإسلام، فهو عصبية فتنة.

ويكثر في خراسان الموالي وهم الذين كانوا أرقاء بغضّ النظر عن أصولهم سواء أكانوا عرباً أم عجماً على خلاف ما يقوله المؤرخون المحدثون من أن الموالي هم المسلمون من غير العرب. فزيد بن حارثة[3]، رضي الله عنه، كان مولى رسول الله ﷺ، وهو عربي.

---

(١) مسلم بن عقيل بن أبي طالب: تابعي، من ذوي الرأي والعلم والشجاعة، كان مقيماً بمكة، انتدبه الحسين بن علي، رضي الله عنهما، إلى العراق ليتعرف على أحوال أهل الكوفة، فسار إليها، وأخذ بيعة ثمانية عشر ألفاً من أهلها، وشعر أمير الكوفة من قبل الأمويين عبيد الله بن زياد، فطلبه، فمنعه الناس، ثم تفرقوا عنه، فاختفى في بيت امرأة، ثم عُرف مكانه، فقبض عليه ابن زياد، وقتله عام ٦٠.

(٢) مصعب بن الزبير بن العوام، أبو عبد الله: ولد عام ٢٦هـ، أحد الولاة الأبطال، تولى أمر البصرة لأخيه عبد الله عام ٦٧هـ، قتل المختار الثقفي، وعزل عن البصرة، ثم أُعيد إليها، وضمّت إليه الكوفة، وخرج إليه عبد الملك بنفسه، بعد أن هُزمت جيوش الشام أمام مصعب، وخذلت مصعباً قواده بعد مراسلة عبد الملك لهم، فقتل عام ٧١هـ.

(٣) زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي: صحابي، اختُطف في الجاهلية صغيراً، واشترته خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها، ووهبته إلى رسول الله ﷺ حين تزوجها فتبنّاه=

والمقداد بن عمرو[1]، رضي الله عنه، كان مولى الأسود بن عبد يغوث الزهري، وهو عربي. وقد يكون المولى بالحلف فعبد الله بن جحش، رضي الله عنه[2]، حليف بني عبد شمس وهكذا فالموالي إذن من كان أصلهم أرقاء ثم أعتقوا، أو ما كانوا قد تُبنّوا من قبل أحد، أو من كانوا أحلافاً لقبيلةٍ ذات مكانةٍ، وذلك بغضّ النظر عن أصولهم وألوانهم وسواء أكانوا من العرب أم من الأعاجم، أم كانوا من سود اللون أم من البيض. وخراسان عندما فُتحت وقعت أعداد كبيرة من أبنائها في الأسر، فكانوا أرقاء إلاّ أن الإسلام قد فتح طرقاً عديدةً للعتق كتكفيرٍ للأيمان، والذنوب، والظهار وغير ذلك إضافةً إلى التقرب إلى الله، ثم هناك المكاتبة لتحرير الرقيق نفسه، ولم تمض مدة إلاّ وأضحى الأرقاء أحراراً، وكانوا موالي، وكذا الأبناء، فالأبناء وهم في مقتبل العمر كانت حالتهم المادية لا تزال ضعيفةً، الأمر الذي يجعلهم يميلون إلى الثورة، بل ويحقدون على الأغنياء، والشباب الصغار هم دائماً وقود الثورات، والقوة المحّركة لها.

ولم يكن الناس قد اتجهوا إلى الزراعة بعد بشكلٍ جيدٍ، أو عادوا إليها بعد الإنصراف إلى الفتوحات وأعمال الغزو، وبالتالي فإنّ الدولة لم تكن بعد قد أولت الزراعة عنايتها لاتجاهها إلى الفتح وإلى قمع الحركات التي تحدث بين الحين والآخر، وهذا ما جعل الحياة المادية في الريف دونها في المدن فاتجهت أعداد من الشباب نحو الحواضر ليجدوا حياةً

= النبي ـ قبل البعثة ـ وأعتقه، وزوّجه ابنة عمته زينب بنت جحش، رضي الله عنها، وكان رسول الله ﷺ يحبّه، ويقدّمه، وما بعثه في سريةٍ إلا أمّره، واستشهد في مؤته عام ٨هـ.

(١) المقداد بن عمرو الكندي المهراني: الحضرمي: صحابي، من أهل بدر، ومن السابقين في الإسلام، كان في الجاهلية من سكان حضرموت فوقع بينه وبين ابن شمر بن حجر الكندي خصام فضرب المقداد رجله بالسيف، وهرب إلى مكة، فتبنّاه الأسود الزهري حتى عُرف به، وتوفي المقداد رضي الله عنه عام ٣٣هـ على مقربة من المدينة المنورة.

(٢) عبد الله بن جحش: ابن عمة رسول الله ﷺ أميمة، من المسلمين الأوائل، ومن الأمراء الأشداء، استشهد يوم أُحد في السنة الثالثة للهجرة، ودفن مع خاله الحمزة بن عبد المطلب، رضي الله عنه.

أفضل، هؤلاء وأولئك يمكن الإفادة منهم في كلّ حركةٍ، وهم أول ما اتجهت إليهم أنظار محمد بن علي العباسي. ولم تتوجه إلى العرب الذين استحكمت بينهم العصبية إذ يمكن نتيجتها أن تُعرف أسرار الدعوة، ويظهر ما يجب إخفاؤه، ثمّ إنّ ترف أكثر العرب هناك يجعلهم لا يفكرون بتنظيماتٍ سريةٍ، وليس لهم طموحات سياسية، وفي الوقت نفسه لا يبحثون عن تغييرٍ لأوضاعٍ اجتماعيةٍ قائمةٍ أو لتحسين أحوالٍ ماديةٍ هم في غنىً عنها، إذن لم يكن انصراف محمد بن علي العباسي عن العرب كراهيةً لهم، كما يزعم المؤرخون المحدثون، ولا حبّاً بالموالي أو الفرس، أو الترك، وإنما انصرف إلى الذين يمكن أن يُؤمّن لدعوته النجاح بواسطتهم، فكان اتجاهه إلى الموالي، على حين كان أغلب النقباء من العرب. فالعرب قادة الدعوة، والشباب من الموالي من جنودها ووقودها.

ورأى أن تكون الكوفة مركز الدعوة، ويُقيم فيها كبير الدعاة، أو كما أسماه داعي الدعاة، وأن خراسان يمكن أن تكون مجال انتشار الدعوة ـ كما ذكرنا ـ وهذا ما يضمن لنفسه زيادةً في السرية ولدعاته كذلك، فأخبار خراسان تأتي إلى الكوفة، ومن الكوفة تنتقل إلى الحميمة، ويكون القدوم لمن يريد من الدعاة على شكل تجارٍ أو حجاجٍ، وتُرسل الأوامر والتعليمات عن طريق الكوفة أيضاً.

وبعد اتصالات قام بها محمد بن علي العباسي أرسل في عام مائة ميسرة العبدي إلى الكوفة ليكون داعي الدعاة فيها، وأرسل إلى خراسان أبا عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)، ومحمد بن خنيس، وحيّان العطار، وأمرهم بالعمل والبدء بالدعوة، فنالوا بعض النجاح، فأرسل دعاة خراسان بكتب من استجاب لهم إلى ميسرة العبدي بالكوفة، وقام هو بدوره فأرسلها إلى الحميمة.

واختار أبو محمد الصادق لمحمد بن علي العباسي أثني عشر نقيباً، وهم: سليمان بن كثير الخزاعي، ولاهز بن قريظ التميمي، وقحطبة بن شبيب الطائي، وموسى بن كعب التميمي، وخالد بن إبراهيم أبو داود من

بني عمرو بن شيبان بن ذهل، والقاسم بن مجاشع التميمي، وعمران بن إسماعيل أبو النجم ـ مولى لآل أبي معيط ـ، ومالك بن الهيثم الخزاعي، وطارق بن زريق الخزاعي، وعمرو بن أعيُن أبو حمزة ـ مولى لخزاعة ـ، وشبل بن طهمان الهروي ـ مولى لبني حنيفة[1]، وعيسى بن أعين ـ مولى لخزاعة ـ أيضاً ـ واختار سبعين رجلاً أيضاً[2]. بحيث يكون لكل داعيةٍ اثنا عشر نقيباً يأتمرون بأمره، ولا يعرفون الإمام، ولكل نقيبٍ سبعون عاملاً. وكتب إليهم محمد بن علي كتاباً يكون مثالاً وسيرةً يقتدون بها، ويسيرون عليها.

ونظرة إلى هؤلاء الدعاة توضّح أنهم من أرومةٍ عربيةٍ، ومن قبائل عربيةٍ معروفةٍ مشهورةٍ، وهذا يردّ ما تناقله المؤرخون من توجيهات الإمام إبراهيم بن محمد علي العباسي بقتل العرب ومن يتكلم العربية بخراسان، وهذه الادعاءات لتزداد الأحقاد بين أصحاب العصبيات، وليبرهنوا أن الدولة العباسية قد قامت على أكتاف الفرس، على حين كانت الدولة الأموية عربيةً، واعتمدت على العرب، فكيف يكون كبار الدعاة من العرب، ثم يقتلون العرب؟ وكيف يقتلون من يتكلم العربية بخراسان، ويختار الدعاة من أفذاذ علماء العربية؟ إنّ هذا لا يستقيم أبداً، ولكن العباسيين اعتمدوا على من أخلص لهم سواء أكان عربياً أم فارسياً أم تُركياً، إذ يذكر المؤرخون أن إبراهيم بن محمد حين وجّه أبا مسلم الخراساني إلى خراسان ١٢٨هـ أوصاه فقال له: «انظر هذا الحي من اليمن فالزمهم، واسكن بين أظهرهم، فإنّ الله لا يتمّ هذا الأمر إلا بهم، واتهم ربيعة في أمرهم، وأما مُضر فإنّهم العدو القريب الدار، واقتل من شككت فيه، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم العربية فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله، ولا

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ الجزء التاسع.

(٢) الطبري: ج٧ ص٣٤٤ ومن المعلوم أن رواية الطبري في عدد منها عن لوط بن يحيى الكوفي المتوفى ١٥٧ والمعروف بتشيعه، وهو ليس بثقة كما قال يحيى بن معين، وقال الذهبي: إخباري تالف لا يوثق به.

تخالف هذا الشيخ ـ يعني سليمان بن كثير ـ ولا تعصه، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني»[1].

وأحب هنا أن أوضح نقطةً أخرى وهي أنّ خراسان لم تكن فارسيةً محضةً كما يتصور المؤرخون وإنّما كان يسكنها تُرك، وفُرس، وعرب، فهي في الأصل بلاد الترك، وقد حكمها الفرس قبل الإسلام فانتشروا فيها، ثم فُتحت فقطن فيها العرب أيضاً. أما فارس فهي المنطقة المحصورة بين مكران، وكرمان، وصحراء لوط، والخليج العربي، ومنطقة الجبال، وقاعدتها مدينة شيراز. وخراسان حاضرتها كانت يومذاك مدينة مرو، وهي الآن في بلاد التركمان، التي تخضع للروس، وكلمة التركمان تعني الترك، وخراسان منطقة واسعة تقع اليوم في ثلاث دول وهي:

١ ـ أفغانستان: وتشمل الجزء الشمالي منها حتى نهر جيحون، ومن مدنها: بلخ، وهراة.

٢ ـ إيران: وتشمل الجزء الشمالي الشرقي من البلاد، ومن مدنها: نيسابور، وطوس، وسرخس.

٣ ـ التركمان: وتشمل الأجزاء الجنوبية الغربية من تركستان والقريبة من الحدود الإيرانية والأفغانية، ومن مدنها: مرو، وبيهق، وأبيورد، وعشق أباد.

وعلى هذا فكلمة خراسان ليست مقترنة بالفرس كما يتوهم بعضهم، وإنما سكانها مزيج، ولما كانت إقليماً واسعاً وعلى ثغور بلاد الترك الذين كانوا بحرب دائمةٍ مع المسلمين، والغزو ما انقطع عن بلادهم مدةً طويلةً من الزمن لذا كانت لها أهميتها، وعاملها له شأن بين الولاة، وتتركز عليه الأضواء، ولما كانت خراسان في المشرق فالفكرة سادت على أنها فارس التي تقع أيضاً في مشرق الدولة. وهذا ما نلاحظه أيضاً في جهات أخرى

---

(١) وكيف يكون هذا، وقد أوصاه بأن يلزم القبائل اليمانية وهي قبائل عربية؟

فمع أن قاعدة العراق قد أصبحت مدينة واسط منذ أيام الحجاج إلا أننا نتصورها الكوفة لما تقع فيها من أحداث، ولكثرة الحركات فيها.

وبدأت الدعوة العباسية تنطلق بهدوء، وفي عام ١٠٥هـ مات داعي الدعاة في الكوفة، وهو ميسرة العبدي، فاختار محمد بن علي مكانه بكير بن ماهان الذي خدم الدعوة خدمةً كبيرةً، وكان ثرياً، فلم يبخل بماله على الدعوة أبداً، واستمر في عمله حتى توفي عام ١٢٧هـ.

وبدأت آثار الدعوة العباسية تظهر في خراسان، وبدأ بعض رجالاتها يُعرفون حيث تجاوزوا المرحلة السرية، وتمكّن والي خراسان أسد بن عبد الله القسري أن يقبض على أبي محمد الصادق (أبو عكرمة السراج)، ومحمد بن خنيس وعدد من أصحابهم فقتلهم، ونجا منهم عمّار العبادي فنقل خبرهم إلى بكير بن ماهان، وكتب هو بدوره إلى الحميمة، وذلك عام ١٠٧هـ.

وجاء إلى خراسان زياد أبو محمد داعيةً لبني العباس، إلاّ أن أسد بن عبد الله القسري قد قبض عليه مع عشرة من أهل الكوفة وقتلهم عام ١٠٩هـ.

وعُزل أسد بن عبد الله عن خراسان، وقد كان متعصباً لليمانية الذين يُشكلون نسبةً كبيرةً بين عرب خراسان، وبهذه العصبية كانت تنقل إليه أخبار أنصار بني العباس، وخلفه الحكم بن عُوانةَ، ثم أشرس بن عبد الله السلمي، ولم تكن عصبيتهما واضحةً، كما أن أولهما لم تزد مدة حكمه خراسان على عدة أشهر، وكان قد استنابه عليها أسد بن عبد الله، أما ثانيهما، وهو الذي ولاّه على خراسان الخليفة هشام بن عبد الملك، وكان فاضلاً خيراً، وأول من اتخذ المرابطة بخراسان، وتولى أمور البلد بنفسه صغيرها وكبيرها، وفرح به الأهلون، ولم تطل مدته على السنتين إذ عزل عام ١١١هـ، وتولى أمر خراسان الجنيد بن عبد الرحمن. والمدة القصيرة لا تمكّن الوالي من معرفة دقائق أمور ولايته، ومتابعتها، وملاحقة أهل الأهواء فيها، وطرق ذلك. وهذا ما جعل الدعوة تعود إلى نشاطها، ومحاولة ظهور أفرادها.

كان الجنيد بن عبد الرحمن صاحب عصبيةٍ مُضريةٍ، وتمكّن من ملاحقة دعاة بني العباس، ولكنّ الخليفة هشام قد غضب عليه لأنه تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب، فعزله، وولى مكانه عاصم بن عبد الله الهلالي، ولكن لم يكد يصل عاصم إلى خراسان حتى كان الجنيد قد توفي بسبب مرضٍ ألمّ به في بطنه عام ١١٦هـ، واقترح عاصم بن عبد الله بعد مُدةٍ على الخليفة أنّ خراسان لا تصلح إلا بضمّها للعراق، فأخذ برأيه، وعزله عنها، وعاد فضمّها إلى والي العراق خالد بن عبد الله القسري مرةً ثانيةً، ولم يستدر العام على ولاية عاصم على خراسان بعد، ولكنّ أخذ خالد بن عبد الله القسري لنواب الجنيد أخرج عليه الحارث بن سريج، وجرت بينهما حروب كثيرة.

وعاد أسد بن عبد الله القسري إلى خراسان نائباً عن أخيه خالد بن عبد الله أمير العراق، والذي عادت خراسان فضُمّت إليه، وعاد إلى عصبيته اليمانية، ولاحق دعاة بني العباس، وتمكّن من إلقاء القبض على كبارهم: سليمان بن كثير، ولاهز بن قريظ، وموسى بن كعب، ومالك بن الهيثم، وطارق بن زريق، وخالد بن إبراهيم وغيرهم، وذلك عام ١١٨، ولكن هؤلاء قد عرفوا عصبية أسد فكلموه بها فقال له: سليمان بن كثير الخزاعي: «إنّا أُناس من قومك، وإنما هذه المضرية إنّما رفعوا إليك هذا لأنّا كنّا أشدّ الناس على قتيبة بن مسلم»[1].

ولما اشتدّ أسد بن عبد الله عليهم كان لا بدّ لهم من أن يلجؤوا إلى السرية التامة، ويخضعوا لدور الإخفاء والكتمان، ولما كانت رجالاتهم قد عرفوا حين ألقي القبض عليهم، وعرضوا على الأمير، لذا كان لا بدّ من تغيير العاملين، واستبدال الذين عُرفوا برجال لم يعرفوا بعد، ولهذا فقد أرسل بكير بن ماهان داعية جديداً إلى خراسان، وهو عمّار بن يزيد، وقد تسمّى باسم «خداش»، فدعا الناس إلى إمامة محمد بن علي العباسي

---

(١) تاريخ الطبري ـ الجزء التاسع.

فاستجاب له كثيرون، فلما التفوا حوله دعاهم إلى عقيدة الخرّمية الزنادقة، ورفع عن أتباعه التكاليف، وأباح لهم نساء بعضهم بعضاً، وزعم لهم أنّ محمد بن علي يأمرهم بهذا، وكذب عليه، وذلك عام ١١٨هـ، وانتصرت عليه الدولة، فقطعت يده، وسلّ لسانه، ثم صلب.

وحدث انقطاع بين الحميمة وأتباعها في خراسان، هذا الانقطاع بسبب ما أحدثه خداش، وسيّر أنصار الدعوة وراءه، ودون الأخذ على يده، الأمر الذي أبعد الفكرة عن الإسلام، وأظهرها بمظهر الكفر والإلحاد، ثم لشدة أسد بن عبد الله عليهم حتى لا ينكشف الأمر تماماً. وبعد مقتل خداش شعر أتباع العباسيين بخطئهم، وندموا على ما فعلوا من سيرهم وراء هذا الزنديق، وأرسلوا كبيرهم، وهو سليمان بن كثير، ليعتذر لهم عن ذنبهم، ويرفع للإمام توبتهم، وندمهم على ما قاموا به، وعندما عاد سليمان بن كثير من الحميمة كان يحمل كتاباً مغلقاً، ولما فتحوه لم يجدوا فيه سوى «بسم الله الرحمن الرحيم، تعلموا أنه إنما عتبنا عليكم بسبب الخرّمي». ثم أرسل إليهم بكير بن ماهان نفسه فلم يصدقوه، وهمّوا به، إذ أصبحوا يشكّون في كلّ داعيةٍ بعد خداش، ولكن بكيراً لم يرد أن يصطدم بهم، وعاد إلى الحميمة فأرسل لهم الإمام معه عصا ملويةً عليها حديد ونحاس فعلموا أن هذه إشارة إلى أنّهم عصاة، وكان ذلك عام ١٢٠هـ.

وفي العام نفسه توفي أسد بن عبد الله، واستناب مكانه جعفر بن حنظلة، ثم عُزل خالد بن عبد الله القسري عن ولاية العراق وخراسان، ووُلّي يوسف بن عمر الثقفي، فولى على خراسان جديع بن علي الكرماني، ثم عزله، وولّى نصر بن سيّار، وكان نصر ذا عصبيةٍ مضريةٍ، وهذا ما جعل اليمانية تعاني الشيء الكثير، فتوجه أنصار الدعوة العباسية نحو اليمانية، واستمر الوضع حتى عام ١٢٥هـ لا يتقدم إلاّ ببطء. هذا إضافة إلى أن حركة زيد بن علي زين العابدين كانت قد قامت في الكوفة عام ١٢٢هـ، وفشلت، وكان لا بدّ أثناءها وبعدها من الهدوء ليعود الجو إلى حالته الطبيعية، ولكن حركة ابنه يحيى لم تلبث أن قامت أيضاً.

وفي ١٢٥ توفي محمد بن علي العباسي، وأوصى من بعده لابنه إبراهيم، وأمره أن يقوم بأمور الدعوة. وبعد هذا العام تغيّرت الأحوال بالنسبة إلى الدعوة العباسية إذ:

١ ـ ضعف الحكم الأموي بعد وفاة هشام بن عبد الملك عام ١٢٥هـ، وانقسم البيت الأموي على نفسه، وأصبح بعضهم يقاتل بعضاً، الأمر الذي كره فيه الناس هذا الخلاف، وتمنّوا الخلاص منه. هذا إضافة إلى الحركات التي قامت ضدهم.

٢ ـ زادت العصبية القبيلية استحكاماً وخاصةً في خراسان، وكان الوالي نصر بن سيّار مضرياً فتعصّب لمضريته، وأكثرية العرب هناك من اليمانية فكرهوه هذا بالإضافة إلى كراهية صاحب السلطة دائماً بسبب المصالح المستجدة. واتجه أنصار الدعوة العباسية إلى اليمانية، وهكذا جاءتهم التوجيهات أيضاً من الإمام. وكره الناس هذا الخلاف، وتمنّوا الخلاص منه، كره هذا اليمانيون عامةً، وكرهه المضريون أنصار الكرماني، وكرهه أهل الدين لمخالفته للإسلام، وكره ذلك الفرس كما كرهه الترك لأن ذلك يؤثر على بلادهم وعلى أحوالهم المعاشية دون أن يكون لهم أية علاقة، أو دون أن يكون أحد منهم طرفاً فيه.

٣ ـ إن هذه الصراعات قد أثرت على أوضاع المنطقة فتأخرت الزراعة، ونال هذا الأمر الموالي بالدرجة الأولى، إذ أنهم هم عمال الأرض، والمنتجون الرئيسيون في المنطقة بل وفي الدولة عامةً، وحرصت أعداد كبيرة منهم على الانتقال إلى المدينة لتجد حياةً أفضل فغصّت المدن بالناس الذين لا عمل لهم، وكانوا أرضاً طيبةً لانتشار الأفكار المعادية للأوضاع القائمة، وبالتالي أنصاراً للدعوة العباسية بل ولكلّ تغييرٍ يمكن أن يتمّ.

٤ ـ إن الإشاعات الكثيرة التي روّجها خصوم بني أمية ضدهم قد لعبت دورها في كراهيتهم، ومساندة أعدائهم، والانضمام إلى صفوف الحركات التي تقوم ضدهم أو تعمل لذلك.

٥ ـ إن الحركات التي قامت في هذا الوقت كان لها الأثر السيء على الأمويين، فحركات الخوارج، وحركة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وغيرها مثل حركة الكرماني[(١)] وحركة الحارث بن سريج[(٢)]، كما لم تمض مدة طويلة على حركة زيد بن علي زين العابدين بن الحسين، وحركة ابنه يحيى.

٦ ـ إن الترف الذي وجد في خراسان قد قسم المجتمع إلى طبقات، فحقدت الفقيرة على الغنية، وشعر الناس بمخالفة هذا للإسلام، وعدّوا الدولة هي المسؤولة عن وجود مثل هذه الطبقات.

٧ ـ إن انقسام الإقليم بين نصر بن سيّار وجديع بن علي الكرماني، قد أضعف أمر الوالي، وفي الوقت نفسه فقد قوّى أبو مسلم الذي ضمّ إليه أكثر أنصار الكرماني بعد قتله، وكانت اليمانية الذين اعتمدت عليهم الدعوة إلى بني العباس قد التفوا حولها بشكلٍ أقوى.

إن القوة التي حصلت عليها الدعوة في خراسان قد جعل من الضروري وجود شخصٍ قويٍّ يتصل بالحميمة مباشرةً دون الرجوع إلى داعي الدعاة الذي مقره الكوفة، وقد كان التفتيش عن هذا الشخص حتى وجد في شخصية أبي مسلم الخراساني[(٣)].

---

(١) الكرماني: جديع بن علي الأزدي، ولد بكرمان فنسب إليها، وولي إمارة خراسان ثم عزل، وولي أمر المنطقة نصر بن سيار فسجنه فغضبت الأزد، وفر جديع من السجن، وثار على نصر بن سيار، ثم اتفق مع أبي مسلم الخراساني على قتال نصر بن سيّار، ثم قتله نصر بن سيار عام ١٢٩هـ.

(٢) الحارث بن سريج التميمي: كان من سكان خراسان، ثار على أميرها عام ١١٦، وسيطر على مناطق كثيرة، ثم هزم على أبواب مرو، فالتجأ إلى بلاد الترك، فبقي فيها ١٢ سنة ثم أمنه الخليفة يزيد بن الوليد فعاد عام ١٢٧، وردّ إليه ما أخذ منه، ثم عاد فثار، وعظم أمره، ثم قتل عام ١٢٨هـ.

(٣) أبو مسلم الخراساني: يبدو أن اسمه الحقيقي هو إبراهيم بن عثمان بن يسار من ولد بزرجمهر، وكان يكنى أبا إسحاق، وغيّر الإمام إبراهيم بن محمد عندما أرسله إلى خراسان اسمه وكنيته. =

وفي عام ١٢٧ توفي بكير بن ماهان داعي الدعاة بالكوفة فعهد بأمر الدعوة من بعده لصهره أبي سلمة الخلال. وبعدها التقى الدعاة ومعهم أبو مسلم بإبراهيم بن محمد في موسم الحج، ودفعوا له نفقاتٍ كثيرةً، وزكاة أموالهم، ولاحظ إبراهيم ما صار إليه أمر أبي مسلم، وذكاءه، وإمكاناته، فقرر في نفسه أن يرسله إلى خراسان، فهو كفء لذلك، وأمر خراسان يحتاج أمثاله، والدعوة تنطلق بشكلٍ جيد، ويمكن إظهارها بعد مدة إن استمرت في إنطلاقها هذا.

= كان أبوه من أهل رستاق «فريذين» من قريةٍ تسمّى «سنجرد» وكانت ملكاً له مع غيرها، وكان يتاجر بالمواشي إلى الكوفة. ضمن رستاق «فريذين» فخسر، وغرم، فأرسل إليه والي البلد من يُحضره فهرب بجاريته التي كانت حبلى، فولدت عام ١٠٠ في بلدة «ماه البصرة» من أعمال أصبهان ولداً، هو أبو مسلم الخراساني. وأوصى به أبوه إلى عيسى بن موسى السراج فحمله معه إلى الكوفة، وهو ابن سبع سنين. وتعهده عيسى بن معقل بن إدريس العجلي وأخوه عاصم، وكانا من عمال خالد بن عبد الله القسري والي العراق وخراسان، وبقي عندهما حتى شبّ.

وفي ١٢٠ عزل خالد بن عبد الله القسري عن العراق وخراسان، وتولى أمرهما يوسف بن عمر الثقفي، فسجن سلفه وعماله، ومنهم ابنا معقل العجلي، فكان معهما أبو مسلم الخراساني.

واجتمع أنصار العباسيين في دار، فغُمز بهم، فأخذوا، وسجن بكير بن ماهان وأفرج عن الباقيين. والتقى بكير بن ماهان بابني معقل العجلي، فدعاهما إلى رأيه فأجاباه، وقال بكير لعيسى: ما هذا الغلام؟ قال: مملوك، قال: تبيعه؟ قال: هو لك، قال: أحب أن تأخذ ثمنه وأعطاه أربعمائة درهم. ومن ثم خرجوا من السجن.

وفي عام ١٢٥ كان أبو مسلم مع دعاة بني العباس إذ التقوا بمحمد بن علي العباسي ثم بابنه إبراهيم، وأُعطي أبو مسلم لإبراهيم بن محمد، فبعث به إلى عيسى بن موسى السراج بالكوفة فسمع منه، وحفظ.

فأبو مسلم إذن فارسي وليس من خراسان، ولعلّ هذه النسبة هي التي قرنت الفرس بخراسان.

كان قصيراً، أسمر، جميلاً حلواً، نقي البشرة، أحور العينين، عريض الجبهة، حسن اللحية، طويل الشعر، طويل الظهر، خافض الصوت، فصيحاً بالعربية وبالفارسية، حلو المنطق، وكان راوية للشعر، عارفاً بالأمور، لم ير ضاحكاً، ولا مازحاً إلا في وقته، وكان لا يقطّب في شيء من أحواله.

تأتيه الفتوح العظام، فلا يظهر عليه أثر السرور، وتنزل به الفادحة الشديدة، فلا يُرى مكتئباً. وكان إذا غضب لم يستفزه الغضب.

وفي عام ١٢٨ بعث إبراهيم بن محمد أبا مسلم إلى خراسان، وكتب معه كتاباً إلى شيعته جاء فيه: «إن هذا أبا مسلم فاسمعوا له وأطيعوا، وقد وليته على ما غلب عليه من أرض خراسان». ولكنهم لم يلتفتوا إليه: فرجع أبو مسلم إلى الإمام إبراهيم أيام الموسم. فقال له: «يا عبد الرحمن إنّك رجل منا أهل البيت، ارجع عليهم، وعليك بهذا الحي من اليمن فالزمهم، واسكن بين أظهرهم، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم، واتهم ربيعة في أمرهم، وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار، واقتل من شككت فيه، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم العربية فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله، ولا تخالف هذا الشيخ ـ يعني سليمان بن كثير ـ ولا تعصه، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني»، وقد سبق أن شككنا في هذا الكلام إذ أن كبار الدعاة هم من القبائل العربية المعروفة ـ كما مرّ معنا ـ وهم قادة الدعوة والدولة في المستقبل.

سار أبو مسلم إلى خراسان بناءً على طلب الإمام الذي زوّجه ابنة عمران بن إسماعيل أبو النجم أحد النقباء الإثني عشر الأوائل. وبدأ العمل بنشاطٍ وسريةٍ تامةٍ مع كتمانٍ شديدٍ.

وفي عام ١٢٩ طلب الإمام إبراهيم من أبي مسلم أن يحضر إليه مع كبار أعوانه، فسار إليه مع سبعين من النقباء. فلما كانوا ببعض الطريق جاءهم كتاب آخر من الإمام يقول فيه لأبي مسلم: «إني بعثت إليك براية النصر فارجع إلى خراسان وأظهر الدعوة، وأمر قحطبة بن شبيب الطائي أن يسير بما معه من الأموال والتحف إلى إبراهيم الإمام فيوافيه في الموسم».

رجع أبو مسلم إلى خراسان فدخلها في أول يوم من رمضان، ورفع الكتاب إلى سليمان بن كثير الموجه إليه من الإمام وفيه: أن أظهر دعوتك ولا تتربص. فقدّم الدعاة في خراسان أبا مسلم الخراساني عليهم كداعيةٍ لبني العباس، فبعث دعاته إلى بلاد خراسان كلّها، وأمير خراسان نصر بن سيّار مشغول بقتال الكرماني، وشيبان بن سلمة الحروري. أما هو ـ أبو

مسلم ـ فقد نزل على سليمان بن كثير الخزاعي بقرية «سفذنيج» من قرى مرو فتحصّن بها، وأظهر نفسه، وجاءته أنصاره من كل مكان. ولما كان يوم عيد الفطر أمر أبو مسلم سليمان بن كثير أن يصلي بالناس، ونصب له منبراً، ونودي للصلاة الصلاة جامعة، ولم يؤذن، ولم يُقم خلافاً لبني أمية، وبدأ بالصلاة قبل الخُطبة.

أرسل نصر بن سيّار جيشاً بقيادة مولاه زيد، فأرسل إليهم أبو مسلم قوة بإمرة مالك بن الهيثم الخزاعي أحد النقباء الإثني عشر الأوائل، ثم أمده بقوة أخرى، فانتصر مالك، وأسر عدداً من قوة نصر، وفيهم أميرهم زيد، فقتل أبو مسلم الأسرى إلا زيداً الذي بعثه إلى نصر ليعلمه عن جماعة أبي مسلم وما هم عليه، وكان هذا أول اشتباكٍ وقع بين قوة بني أمية وقوة بني العباس.

وتمكّن خازم بن خزيمة من السيطرة على مرو الروذ وقتل عاملها من قبل نصر بن سيّار، وهو بشر بن جعفر السعدي، وكتب بذلك إلى أبي مسلم. كما أخذ مدينة «هراة» النضر بن نعيم الذي أرسله أبو مسلم إليها، وهرب منها عاملها من قبل نصر بن سيّار، وهو عيسى بن عقيل الليثي.

وحاول نصر بن سيّار استمالة اليمانية إليه، ولكنه أخفق إذ رفض زعيمهم جديع بن علي الكرماني، حيث كان أبو مسلم يكتب إلى الطرفين، ويقول لكلٍ منهما: إن الإمام قد أوصاني بك خيراً، ولست أعدو رأيه فيك. ووقع كل منهما في حيرةٍ بمن يعاون على الآخر. وتمكن نصّر من إقناع الكرماني في السير إليه للإتفاق، وذهب إليه في مائة فارس، ووجدها نصر فرصةً فقتله، وانضم عدد من أنصار الكرماني وولده إلى أبي مسلم وصاروا عوناً له على نصر.

وكثر أتباع أبي مسلم إذ كان يُرسل الدعاة إلى الكور يدعو لبني العباس، والناس في خلاف فبعث نصر إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية يعلمه بأمر أبي مسلم، وكثرة من معه، وأنه يدعو إلى إبراهيم بن محمد، وكتب في جملة كتابه:

أرى بين الرماد وميض نارٍ فيوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعيدان تذكي وإن الحرب مبدؤها الكلام
فإن لم يطفها عقلاء قومٍ يكون وقودها جثث وهام
أقول من التعجب ليت شعري أأيقاظ أمية أم نيام؟
فإن كانوا لحينهمُ نياماً فقل قوموا فقد حان القيام

فكتب إليه مروان: الشاهد يرى ما لا يراه الغائب. فقال نصر: إن صاحبكم قد أخبركم أن لا نصر عنده.

وكتب نصر بن سيّار أيضاً إلى نائب العراق يستمده وهو يزيد بن عمر بن هبيرة، وكتب إليه:

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه وقد تحققت أن لا خير في الكذب
بأن أرض خراسان رأيت بها بيضاً إذا أفرخت حدثت بالعجب
فراخ عامين إلا أنها كبرت ولم يطرن وقد سربلن بالزغب
فإن يطرن ولم يحتل لهن بها يلهبن نيران حرب أيما لهب

فقال يزيد لا غلبة إلا بكثرة وليس عندي رجل واحد.

وبعث ابن هبيرة بكتاب نصر بن سيّار إلى مروان بن محمد، واتفق وصول الكتاب إليه إن وجدوا رسولاً من جهة إبراهيم الإمام ومعه كتاب منه إلى أبي مسلم يأمره فيه بقتال نصر بن سيّار والكرماني. وعند ذلك بعث مروان، وهو مقيم بحران كتاباً إلى نائبه بدمشق وهو الوليد بن معاوية بن عبد الملك، يأمره فيه أن يذهب إلى الحميمة، وهي البلدة التي يقيم فيها إبراهيم بن محمد، فيقيده ويرسله إليه، فبعث نائب دمشق إلى نائب البلقاء فذهب إلى مسجد البلدة المذكورة فوجد إبراهيم جالساً فقيده وأرسل به إلى دمشق، فبعثه نائب دمشق من فوره إلى مروان، فأمر به فسُجن. ولكن الأمر جاء متأخراً إذ كان أبو مسلم قد ظهر وسيطر على مناطق واسعة.

وزادت مشكلات بني أمية إذ خرج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر في فارس وغلب عليها وعلى كورها، واستولى أيضاً على «حلوان»، و «قومس»، و «أصبهان»، و «الري»، ولكنه هُزم فيما بعد بـ «اصطخر»، وأُسر كثير من أنصاره، ومنهم عمّ السفاح عبد الله بن علي الذي تكلم بسوء عن عبد الله بن معاوية حتى نجا. كما أن أبا حمزة الخارجي قد دخل مكة المكرمة بعد الموسم.

ودخل أبو مسلم الخراساني مدينة «مرو» حاضرة خراسان بمساعدة علي بن الكرماني، وفرّ نصر بن سيار منها متوجهاً إلى «سرخس» وذلك عام ١٣٠. وكذلك أرسل أبو مسلم إلى شيبان بن سلمة الحروري قوةً بإمرة بسّام بن إبراهيم مولى بني ليث فقتله، وتتبع أصحابه، كما أن أبا مسلم قد قتل ولدي الكرماني وهما: علي، وعثمان وصفا له الجو في المنطقة التي دانت له، ثم وجه خالد بن إبراهيم أبا داود وهو أحد النقباء الإثني عشر الأوائل إلى مدينة «بلخ»، فأخذها من زياد بن عبد الرحمن القشيري. ثم بعث قحطبة بن شبيب الطائي إلى «نيسابور» لقتال نصر بن سيّار، فالتقى قحطبة في مدينة «طوس» بتميم بن نصر بن سيّار، فانتصر قحطبة الذي أمده أبو مسلم بقوة بإمرة علي بن معقل تمكّنت من قتل تميم بن نصر، كما أرسل يزيد بن عمر بن هبيرة نائب العراق دعماً لنصر بن سيّار، ولكنهم هزموا، وقتل عامل «جرجان» نباتة بن حنظلة، وأرسل قحطبة بهذا النصر إلى أبي مسلم.

وزاد من أمور بني أمية أن أبا حمزة الخارجي قد دخل المدينة المنورة وخطب على منبر رسول الله ﷺ، وبقي فيها ثلاثة أشهر إلا أنه قد هزم أمام قوةٍ أرسلها إليه مروان بن محمد من خيرة رجال أهل الشام.

وفي عام ١٣١هـ وجّه قحطبة بن شبيب الطائي ابنه الحسن إلى «قومس» لقتال نصر بن سيّار، ففرّ نصر إلى الري، ومنها سار إلى همدان،

وقبل أن يصل إليها توفي في «ساوة»[1]، وبوفاة نصر بن سيّار دانت خراسان كلها لأبي مسلم، إذ دخل الحسن بن قحطبة الري، وهمدان، ونهاوند.

وفي عام ١٣٢هـ التقى قحطبة بن شبيب مع أمير العراق يزيد بن عمر بن هبيرة فانتصر جند قحطبة، وقتل معن بن زائدة قحطبة الذي استخلف ابنه الحسن بعده، والذي اتجه نحو الكوفة وقبل أن يدخلها خرج بها محمد بن خالد بن عبد الله القسري داعياً لبني العباس.

أما إبراهيم بن محمد فقد بقي في سجن مروان بن محمد حتى مات عام ١٣٢، وكان قد طلب يوم ألقي القبض عليه أن يكون الخليفة بعده أخوه عبد الله بن محمد (السفاح)، وأن يرتحل بأهله إلى الكوفة، فسار السفاح من يومها إلى الكوفة، ومعه أعمامه: عبد الله، داود، عيسى، صالح، إسماعيل، عبد الصمد، وأخوه عبد الله بن محمد، وابنا أخيه إبراهيم وهما: محمد وعبد الوهاب، ولما وصلوا إلى الكوفة نزلوا على أبي سلمة الخلال فأسكنهم في دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم، وكتم أمرهم، ثم بدأ ينقلهم بعد أربعين يوماً من مكان إلى آخر، ولما بلغهم مقتل أو موت إبراهيم بن محمد في صفر، أراد أبو سلمة أن يُحوِّل الخلافة إلى آل علي إلا أن بقية النقباء والأمراء قد عرفوا مكان السفاح فدخلوا عليه، وسلّموا عليه بالخلافة، وكانت قد دانت أجزاء واسعة لأبي مسلم من العراق وخراسان، وذلك في ١٢ ربيع الثاني من عام ١٣٢.

وخرج السفاح فدخل قصر الإمارة، ثم خرج إلى صلاة الجمعة فخطب الناس، وأخذ منهم البيعة بعدها، وعسكر السفاح في ظاهر الكوفة، واستخلف عليها عمه داود، ثم ارتحل إلى المدينة الهاشمية فنزل في قصر الإمارة.

---

(١) ساوة: مدينة حسنة بين الري وهمدان في وسط، بينها وبين كل واحد من همدان والري ثلاثون فرسخاً. وأهلها من السنة الشافعية يقع بين أهلها وأهل آوه الشيعية القريبة منها خلافات. وقد خربها التتار عام ٦١٧، وحرقوا مكتبتها العظيمة.

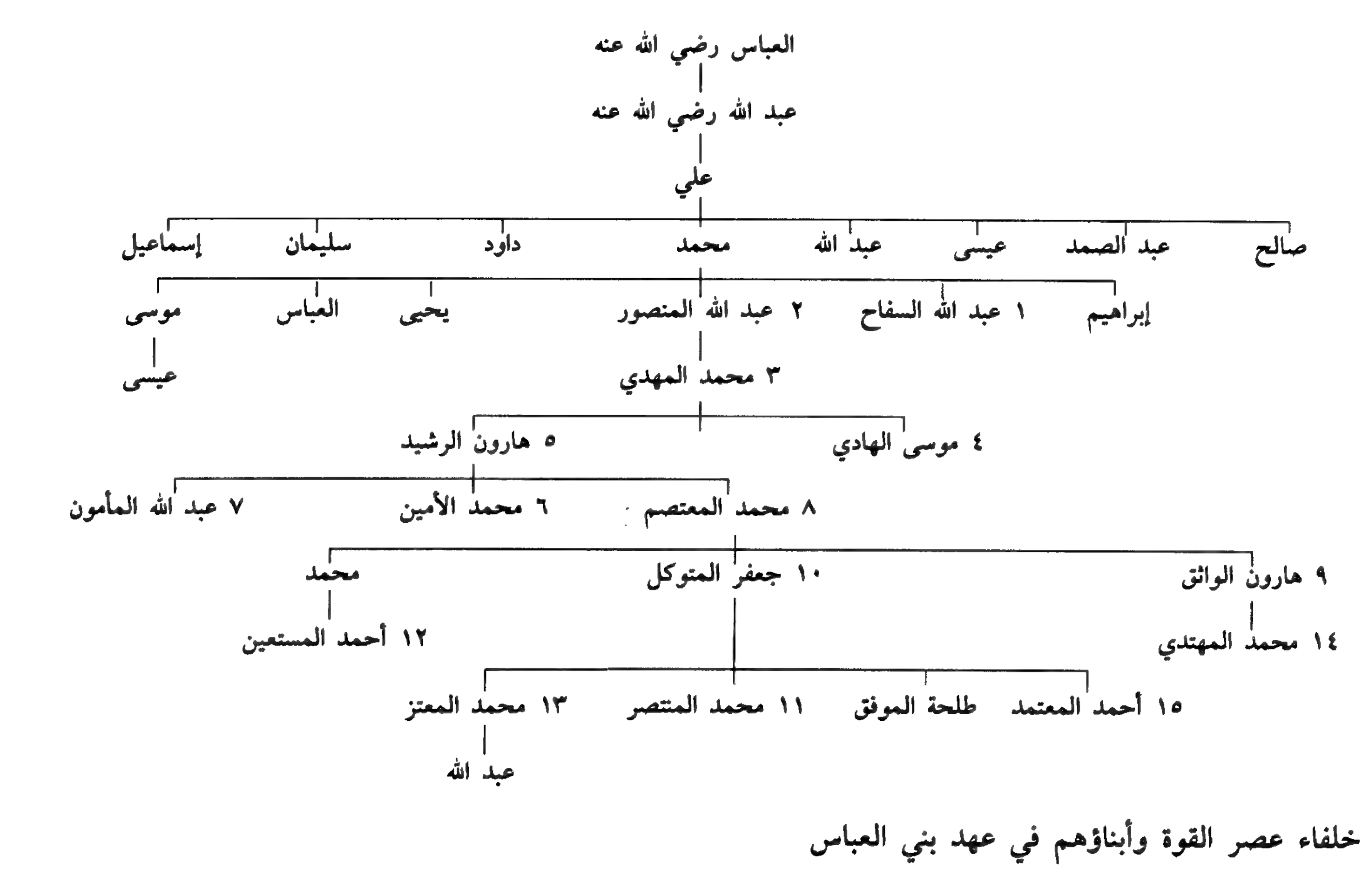
أرسل السفاح الجيوش لمنازلة الأمويين، فبعث أبا عون بن أبي يزيد إلى الزاب الكبير حيث يعسكر مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في قوةٍ كبيرةٍ، ثم أمده بعمه عبد الله بن علي، وبعث في إثره موسى بن كعب التميمي أحد النقباء الإثني عشر في خراسان الأوائل يأمره بالعمل على قتال مروان، والتقى الفريقان يوم ١١ جمادى الآخرة، وهزم مروان ولحقه عبد الله بن علي إلى حران، فقنسرين، فحمص، فدمشق، وحاصر عبد الله دمشق ومن معه من القادة ثم فتحت، وكان مروان قد هرب فلاحقه ثم جاءه أمر أبي العباس إلى عمه عبد الله بن علي بأن يأمر أخاه صالح بن علي بمتابعة مروان، وأن يبقى هو نائباً على الشام. ودخل مروان مصر، ثم وجد في كنيسة (أبو صير) فقتل. وعاد صالح بن علي إلى الشام، واستخلف على مصر أبا عون بن أبي يزيد، وتُعدّ دولة بني أمية قد دالت منذ وقعة الزاب الكبير.

وبعث السفاح ابن أخيه عيسى بن موسى إلى الحسن بن قحطبة وهو يحاصر يزيد بن عمر بن هبيرة بواسط، ثم أمده بأخيه أبي جعفر حتى دخلوا واسطاً، وقتلوا يزيداً. كما أرسل دعماً إلى بسام بن إبراهيم بالأهواز فدخلوها واستتب الوضع لبني العباس عدا الأندلس.

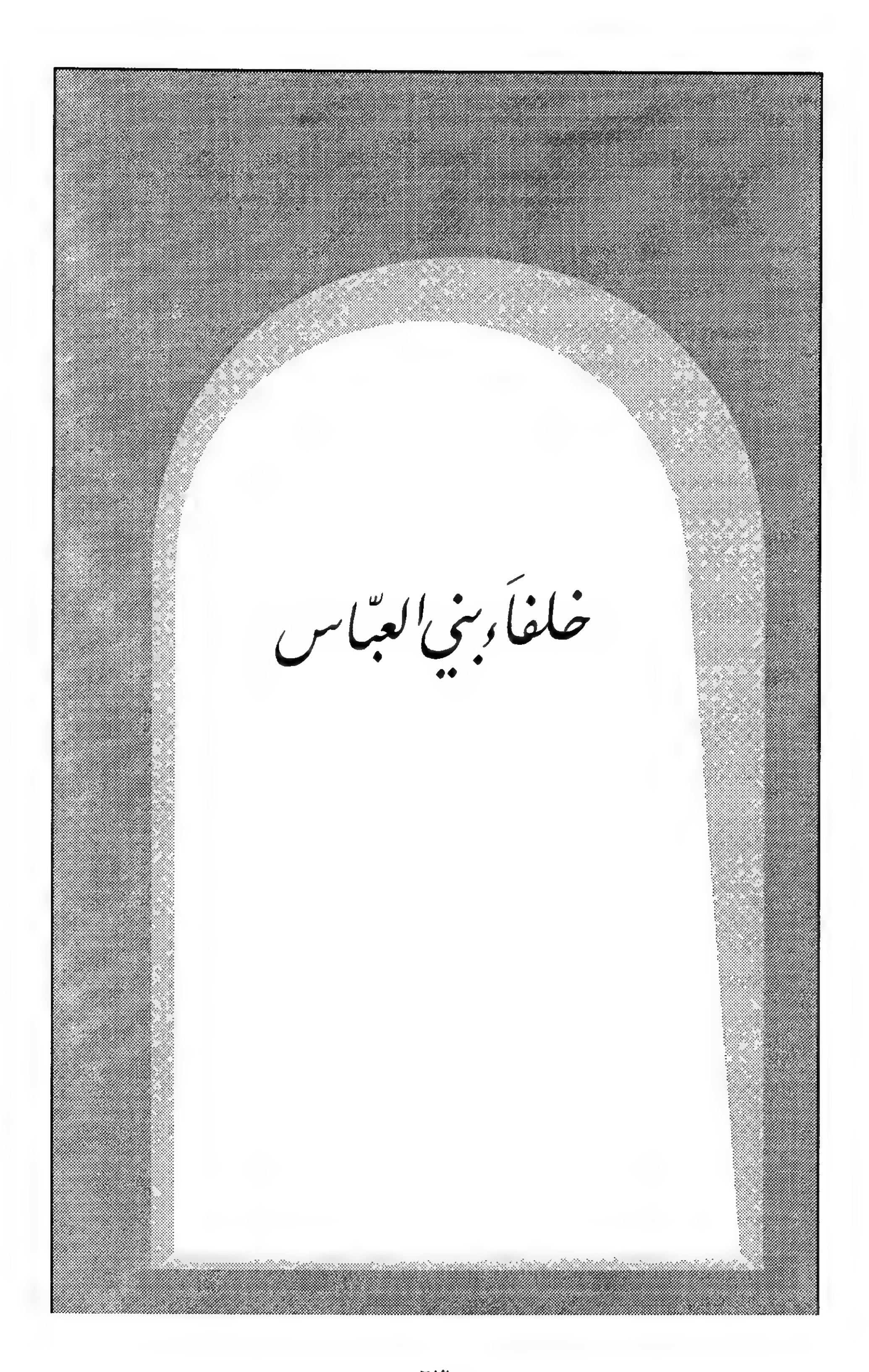
السنة	الخليفة	والي العراق	داعي الدعاة بالكوفة	والي خراسان	كبير دعاة خراسان
١٠٠	عمر بن عبد العزيز	عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب	-	الجراح بن عبد الله الحكمي	-
١٠١	عمر بن عبد العزيز	عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب	-	عبد الرحمن بن نعيم الغامدي	-
١٠٢	يزيد بن عبد الملك	محمد بن عمر بن الوليد بن عقبة	ميسرة العبدي	سعيد بن عبد العزيز	أبو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)
١٠٣	يزيد بن عبد الملك	عمر بن هبيرة	ميسرة العبدي	سعيد بن عبد الله الحرشي	أبو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)
١٠٤	يزيد بن عبد الملك	عمر بن هبيرة	ميسرة العبدي	مسلم بن سعيد بن أسلم	أبو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)
١٠٥	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	ميسرة العبدي	أسد بن عبد الله القسري	أبو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)
١٠٦	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبد الله القسري	أبو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)
١٠٧	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبد الله القسري	أبو عكرمة السراج (أبو محمد الصادق)
١٠٨	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبد الله القسري	زياد أبو محمد
١٠٩	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبد الله القسري ـ الحكم بن عوانة ـ أشرس بن عبد الله السلمي	زياد أبو محمد
١١٠	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	الحكم بن عوانة ـ أشرس بن عبد الله السلمي	زياد أبو محمد
١١١	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	الحكم بن عوانة ـ أشرس بن عبد الله السلمي الجنيد بن عبد الرحمن	سليمان بن كثير

السنة	الخليفة	والي العراق	داعي الدعاة بالكوفة	والي خراسان	كبير دعاة خراسان
١١٢	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	الجنيد بن عبد الرحمن	سليمان بن كثير
١١٣	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	الجنيد بن عبد الرحمن	سليمان بن كثير
١١٤	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	الجنيد بن عبد الرحمن	سليمان بن كثير
١١٥	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	عمارة بن حريم ـ عاصم بن عبد الله	عمار بن يزيد (خداش)
١١٦	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبد الله القسري	عمار بن يزيد (خداش)
١١٧	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبد الله القسري	عمار بن يزيد (خداش)
١١٨	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبد الله القسري	عمار بن يزيد (خداش)
١١٩	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	أسد بن عبد الله القسري	سليمان بن كثير
١٢٠	هشام بن عبد الملك	خالد بن عبد الله القسري	بكير بن ماهان	جعفر بن حنظلة ـ جديع بن علي الكرماني	سليمان بن كثير
١٢١	هشام بن عبد الملك	يوسف بن عمر الثقفي	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
١٢٢	هشام بن عبد الملك	يوسف بن عمر الثقفي	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
١٢٣	هشام بن عبد الملك	يوسف بن عمر الثقفي	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
١٢٤	هشام بن عبد الملك	يوسف بن عمر الثقفي	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
١٢٥	هشام بن عبد الملك	يوسف بن عمر الثقفي	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير

السنة	الخليفة	والي العراق	داعي الدعاة بالكوفة	والي خراسان	كبير دعاة خراسان
١٢٦	الوليد بن يزيد	يوسف بن عمر الثقفي منصور بن جهور	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
١٢٧	يزيد بن الوليد إبراهيم بن الوليد	عبد الله بن عمر بن عبد العزيز النضر بن سعيد الحرشي	بكير بن ماهان	نصر بن سيار	سليمان بن كثير
١٢٨	مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة	أبو سلمة الخلال	نصر بن سيار	أبو مسلم الخراساني
١٢٩	مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة	أبو سلمة الخلال	نصر بن سيار	أبو مسلم الخراساني
١٢٩	مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة	أبو سلمة الخلال	نصر بن سيار	أبو مسلم الخراساني
١٣٠	مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة	أبو سلمة الخلال	دخل أبو مسلم الخراساني مرو	أبو مسلم الخراساني
١٣١	مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة	أبو سلمة الخلال	أبو مسلم الخراساني	أبو مسلم الخراساني
١٣٢	مروان بن محمد	يزيد بن عمر بن هبيرة	أبو سلمة الخلال	أبو مسلم الخراساني	أبو مسلم الخراساني



خلفاء عصر القوة وأبناؤهم في عهد بني العباس



خلفاء بني العبّاس

- ١ -

السَّفَّاح

عَبدُ الله بن محمَّد

١٣٢ - ١٣٦هـ

السّفّاح

هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ولد بالحميمة من الشراة في الأردن عام ١٠٥هـ، وأمه رَيْطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المدان الحارثي.

توفي والده محمد بن علي عام ١٢٥هـ بالحميمة[١]، وهو الذي بدأ بالدعوة العباسية، وكان السفاح قد ناهز العشرين من العمر، وعرف الكثير من الدعوة وأسرارها. وعهد والده من بعده لابنه إبراهيم (أخو السفاح) الذي عُرف فيما بعد بالإمام. وقد عمل على نجاح الدعوة، فقوي أمره، فأظهر نفسه في الموسم فعُرِف، كما وقع كتاب وجهه إلى أبي مسلم الخراساني في يد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية فأرسل إلى واليه على دمشق فبعث من أخذه إلى حرّان[٢] قاعدة مروان فسُجن هناك. وكان قد أوصى من بعده لأخيه السفاح، وأمره أن يسير بأهله إلى الكوفة، وذلك عام ١٢٩هـ.

سار السفاح من الحميمة باتجاه الكوفة عن طريق دومة الجندل[٣]، ومعه من أهله ثلاثة عشر رجلاً هم: أعمامه: صالح، وإسماعيل، وعبد الله، وعبد الصمد، وعيسى.

---

(١) الحميمة: بلدة تاريخية، في الأردن اليوم، على مقربة من مدينة معان.

(٢) حرّان: بلدة تقع في جنوب تركيا اليوم، على بعد ١٣ كم من الحدود السورية، على نهر بليخ الذي يرفد الفرات عند الرقة.

(٣) دومة الجندل: بلدة تاريخية، شمالي الجزيرة العربية، على مقربة من الجوف اليوم، على الطريق بين الأردن والعراق.

أخواه: عبد الله بن محمد «المنصور»، ويحيى بن محمد.

أبناء أخوته: عبد الوهاب، ومحمد، ابنا إبراهيم «الإمام»، وعيسى بن موسى.

أبناء عمه: موسى بن داود، وداود بن عيسى، ويحيى بن جعفر بن تمام بن عباس.

وصل هؤلاء الركب إلى الكوفة في شهر صفر عام ١٣٢هـ، وكان محمد بن خالد بن عبد الله القسري(١) قد خرج بالكوفة قبل أن يدخلها الحسن بن قحطبة(٢)، ودخل قصرها ففرّ منه عامل يزيد بن عمر بن هبيرة(٣) عليها، وهو زياد بن صالح، وبعد ثلاثة أيام جاء الحسن بن قحطبة بجنده فدخل الكوفة، وانطلق إلى مكان أبي سلمة الخلال(٤) فأخرجه من مخبئه، فاتجه أبو سلمة إلى النخيلة(٥) فعسكر فيها يومين، ثم ارتحل إلى (حمام أعْيَن)(٦) على بُعد ثلاثة فراسخ من الكوفة، وعسكر هناك، ووجّه

---

(١) محمد بن خالد بن عبد الله القسري: كان والده خالد بن عبد الله والياً على مكة للوليد وسليمان ابني عبد الملك، ثم ولي لهشام بن عبد الملك إمرة العراقين من عام ١٠٦ إلى ١٢٦، ثم عزله بيوسف بن عمر الثقفي، وعذب فكان ابنه هذا ناقماً على الأمويين، وعلى القيسية.

(٢) الحسن بن قحطبة: تولى قيادة جيوش العباسيين بعد مقتل أبيه على يد معن بن زائدة في الصراع الدائر بين جيوش الأمويين بإمرة يزيد بن عمر بن هبيرة، وجند أبي مسلم الخراساني.

(٣) يزيد بن عمر بن هبيرة: أمير العراقين لآخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد، كان بطلاً شجاعاً، سائساً جواداً، فصيحاً، خطيباً. وكان من الأكلة، هُزم فتحصّن في واسط، وحاصره المنصور مدة، ثم أمنه، ثم قتله بتحريض من السفاح سنة ١٣٢.

(٤) أبو سلمة الخلال: حفص بن سليمان الهمداني: داعي دعاة بني العباس بالكوفة، وأنفق الكثير من ماله في سبيل ذلك، كان صيرفياً. اتهم بأنه يريد الدعوة لأبناء علي، رضي الله عنه. كتب أبو مسلم الخراساني للسفاح يحسن له قتل الخلال، ولكنه رفض. أرسل له أبو مسلم من قتله ليلاً بالأنبار، بعد قيام السفاح بأربعة أشهر.

(٥) النخيلة: موضع قرب الكوفة على سمت الشام، وهو الموضع الذي خرج إليه علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، عندما بلغه هجوم أهل الشام على الأنبار.

(٦) حمام أعين: نسب إلى أَعْيَن مولى سعد بن أبي وقاص.

الحسن بن قحطبة لقتال يزيد بن عمر بن هبيرة في واسط، وجعل على الكوفة محمد بن خالد بن عبد الله القسري فكان يقال له الأمير. وفي هذه الأثناء وصل السفاح وركبه إلى الكوفة.

أنزل أبو سلمة القادمين في دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم في بني أود، وكتم أمرهم، وأخفاهم عن القادة على حين أن الكوفة قد أصبحت بأيديهم، وخراسان قد تسلّم أمرها أبو مسلم منذ أكثر من عام، وكان يجب أن يظهروا ويقودوا العمل بأنفسهم ما دامت الدعوة لهم، وهم أصحاب الشأن، كما أن الإمام إبراهيم قد مات في هذا الشهر فأصبح خليفته هو صاحب الأمر بالأصالة لا بالنيابة، وهذا ما جعل التهمة توجّه إلى أبي سلمة الخلال داعي الدعاة بأنه يريد حجب الأمر عن العباسيين وتسليمه إلى أبناء عمومتهم من أبناء علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. وبقي أمر السفاح ومن معه مجهول الوصول والإقامة مدة أربعين يوماً، وكان أبو سلمة كلما سئل عن الإمام أجاب: لم يقدم بعد، وليس هذا وقت خروجه، حتى لقي أحد قادة العباسيين خادم السفاح، وهو يعرفه، فسأله عنهم فقال: إنهم بالكوفة، وإن أبا سلمة يأمرهم أن يختفوا، فأرسل القائد بعض أعوانه مع الخادم حتى عرف منزلهم بالكوفة. وسأل القائد أبا سلمة عن الإمام، فقال: ليس هذا وقت خروجه لأن واسطاً لم تفتح بعد. فتدارس القائد مع البقية الأمر وقرروا أن يلقوا الإمام، وبلغ ذلك أبا سلمة فسأل عن القادة في المعسكر، فقيل له: ركبوا إلى الكوفة في حاجةٍ لهم.

ودخل القادة على القوم وسألوهم: أيكم عبد الله بن محمد بن الحارثية؟ لأنهم لم يعرفوه من قبل، فأشار الحضور إلى السفاح فسلموا عليه بالخلافة. وجاء أبو سلمة بعدئذ إلى السفاح وسلّم عليه بالخلافة.

كان السفاح شاباً، مليحاً، مهيباً، أبيض، طويلاً، وقوراً أقنى الأنف، حسن الوجه واللحية، ذا شعرة جعدة. جواداً حتى كان يضرب المثل بجوده، وقد أعطى عبد الله بن حسن بن الحسن ألفي ألف درهم. وكان عفيفاً عنيفاً متعبداً.

توفي بالجدري عام ١٣٦ لثلاث عشرة خلت من شهر ذي الحجة، وبذا فقد عاش إحدى وثلاثين سنة، ولي الخلافة منها أربع سنوات، وبقي بين بيعته ووجود مروان بن محمد حياً ثمانية أشهر، أي وجود خليفتين في آن واحد.

وتزوج امرأة واحدة هي أم سلمة المخزومية، وذلك قبل أن يلي الخلافة، وكانت قد تزوجت من عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومي، فمات، وتزوجت بعده من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الأموي فمات، فتزوجها أبو العباس. ولم يتزوج غيرها بعد أن آلت إليه الخلافة.

* * *

خلافته

خرج أبو العباس السفاح من مخبئه ومعه أهل بيته حتى دخلوا قصر الإمارة بالكوفة يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الثاني، وكان الناس قد علموا بذلك من قبل فلبسوا سلاحهم، واصطفوا لخروجه. ثم دخل السفاح المسجد من دار الإمارة فصعد المنبر، وقام في أعلاه، وصعد داود بن علي فقام دونه، فتكلم السفاح فذكر حقهم في الإمامة فقال: الحمد لله الذي اصطفى الإسلام لنفسه تكرمةً، وشرّفه وعظّمه، واختاره لنا، وأيده بنا، وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوّام به، والذابّين عنه، والناصرين له، وألزمنا كلمة التقوى، وجعلنا أحق بها وأهلها، وخصنا برحم رسول الله ﷺ، وأنشأنا من آبائه، وأنبتنا من شجرته، واشتقنا من نبعته، جعله من أنفسنا عزيزاً عليه ما عنتنا: حريصاً علينا بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم، فقال عزّ من قائل فيما أنزل من محكم القرآن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا﴾[1]، وقال: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[2]، وقال: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[3]، وقال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾[4]، وقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٢) سورة الشورى: الآية ٢٣.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

(٤) سورة الحشر: الآية ٧.

﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾[1]. فأعلمهم جل ثناؤه فضلنا: وأوجب عليهم حقنا ومودتنا، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا تكرمة لنا، وفضلاً علينا، والله ذو الفضل العظيم.

وزعمت السبئية[2] الضلاّل، أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا، فشاهت وجوههم! ولم أيها الناس؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم، وبصّرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وأظهر بنا الحق، وأدحض بنا الباطل، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً، ورفع بنا الخسيسة، وتم بنا النقيصة، وجمع الفرقة، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبرّ ومواساة في دينهم ودنياهم، وإخواناً على سرر متقابلين في آخرتهم؛ فتح الله ذلك منّةً ومنحةً لمحمد ﷺ؛ فلما قبضه الله إليه، قام بذلك الأمر من بعده أصحابه، وأمرهم شورى بينهم، فحووا مواريث الأمم، فعدّلوا فيها ووضعوها مواضعها، وأعطوها أهلها، وأخرجوا خماصاً منها. ثم وثب بنو حرب ومروان، فابتزوها وتداولوها بينهم، فجاروا فيها، واستأثروا بها، وظلموا أهلها، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا، وردّ علينا حقنا، وتدارك بنا أمتنا، وولي نصرنا والقيام بأمرنا، ليمُنّ بنا على الذين استضعفوا في الأرض؛ وختم بنا كما افتتح بنا. وإني لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله. يا أهل الكوفة، أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم، حتى أدركتم زماننا، وأتاكم الله بدولتنا؛ فأنتم أسعد الناس بنا، وأكرمهم علينا؛ وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا، فأنا السفاح المبيح، والثائر المبير.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤١.

(٢) السبئية: نسبةً إلى عبد الله بن سبأ اليهودي الذي أظهر الإسلام، وأبطن الكفر. وعمل على تهديم الإسلام من الداخل، وادعى ولاء سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، ونسب له أموراً غريبة خارجة عن الإسلام.

وكان موعوكاً فاشتد به الوعك، فجلس على المنبر، وصعد داود بن علي فقام دونه على مراقي المنبر، فقال:

الحمد لله شكراً شكراً، الذي أهلك عدونا، وأصار إلينا ميراثنا من نبينا محمد ﷺ. أيها الناس، الآن اقشعت حنادس الدنيا، وانكشف غطاؤها، وأشرقت الأرض وسماؤها، وطلعت الشمس من مطلعها: وبزغ القمر من مبزغه؛ وأخذ القوس باريها، وعاد السهم إلى مترعه، رجع الحق إلى نصابه، في أهل بيت نبيكم، أهل بيت نبيكم، أهل الرأفة والرحمة بكم والعطف عليكم. أيها الناس، إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لنكثر لجيناً أو عقياناً، ولا نحفر نهراً، ولا نبني قصراً، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا، والغضب لبني عمنا، وما كرثنا من أموركم، وبهظنا من شؤونكم، ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا، ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم، وخرقهم بكم، واستذلالهم لكم؛ واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم. لكم ذمة الله تبارك وتعالى، وذمة رسول الله ﷺ، وذمة العباس رحمه الله؛ أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله ﷺ. تباً تباً لبني حرب بن أمية وبني مروان! آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة، والدار الفانية على الدار الباقية، فركبوا الآثام: وظلموا الأنام، وانتهكوا المحارم، وغشوا الجرائم، وجاروا في سيرتهم في العباد وسنتهم في البلاد التي بها استلذوا تسربل الأوزار، وتجلبب الآصار، ومرحوا في أعنة المعاصي، وركضوا في ميادين الغي؛ جهلاً باستدراج الله، وأمناً لمكر الله، فأتاهم بأس الله بياتاً وهم نائمون، فأصبحوا أحاديث، ومزقوا كل ممزق، فبعداً للقوم الظالمين! وأدالنا الله من مروان، وقد غرّه بالله الغرور، أرسل لعدو الله في عنانه حتى عثر في فضل خطامه، فظنّ عدو الله أن لن نقدر عليه، فنادى حزبه، وجمع مكايده، ورمى بكتائبه، فوجد أمامه ووراءه وعن يمينه وشماله، من مكر الله وبأسه ونقمته، ما أمات باطله، ومحق ضلاله، وجعل دائرة السوء به، وأحيا شرفنا وعزنا، ورد إلينا حقنا وإرثنا.

أيها الناس؛ إن أمير المؤمنين نصره الله نصراً عزيزاً، إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة، إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة؛ أنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره، وإنما قطعه من استتمام الكلام بعد أن استحضر فيه شدة الوعك، وادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية، فقد أبدلكم الله بمروان عدو الرحمن، وخليفة الشيطان المتبع للسفلة الذين أفسدوا في الأرض بعد صلاحها بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين، الشاب المتكهل المتمهل، المقتدي بسلفه الأبرار الأخيار، الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها، بمعالم الهدى. ومناهج التقوى.

يا أهل الكوفة؛ إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان، فأحيا بهم حقنا، وأفلج بهم حجتنا، وأظهر بهم دولتنا، وأراكم الله ما كنتم تنتظرون، وإليه تتشوفون، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم، وبيض به وجوهكم، وأدالكم على أهل الشام، ونقل إليكم السلطان، وعز الإسلام، ومنَّ عليكم بإمام منحه العدالة، وأعطاه حسن الإيالة. فخذوا ما آتاكم الله بشكر، والزموا طاعتنا، ولا تخدعوا عن أنفسكم فإن الأمر أمركم، وإن لكل أهل بيت مصراً؛ وإنكم مصرنا. ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله ﷺ إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد ـ وأشار بيده إلى أبي العباس ـ فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارجٍ منا حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا.

ثم نزل أبو العباس ودواد بن علي أمامه حتى دخل القصر، وأجلس أبا جعفر ليأخذ البيعة على الناس في المسجد، فلم يزل يأخذها عليهم، حتى صلى بهم العصر، ثم صلى بهم المغرب، وجنّهم الليل فدخل[1].

ويبدو من خطبة أبي العباس ومن كلمة عمه داود بن علي ثلاث نقاط:

---

(١) تاريخ الطبري.

١ ـ محاولة إظهار أحقية بني العباس بالخلافة دون غيرهم على اعتبار أن الخلافة وراثية، ولم تكن الخلافة في الإسلام ملكاً متوارثاً وإنما هكذا أصبح بعد الحكم الراشدي.

٢ ـ الهجوم على بني أمية، وعدّهم ظالمين مستبدين، أخذوا بغير حق وساروا فيه بكل عسف. وهذا شأن كل حاكم جديد بالنسبة لسابقه، يبرر قيامه، ويمكّن لنفسه.

٣ ـ الوعد بحكم ما أنزل الله، واتباع سنة رسول الله، والاقتداء بالصحابة والسلف الصالح، وهذه قناعة الخلفاء، الذين يظنون أن ما سبقهم لم يطبقوا الإسلام بشكل صحيح، والواقع أن الإسلام لم يتبع منهجاً سليماً بعد صحابة رسول الله ﷺ، وإنما حدث فيه تغيير، ولكنه كان تغيير طفيف تزداد زاوية الانحراف وتتسع أحياناً وتضيق أحياناً أخرى، ويبقى المظهر العام إسلامياً وذلك كل مدة الخلافة، فالخلفاء متمسكون عامةً بتعاليم الإسلام، ويفخرون بذلك، لذا فهم يأخذون على غيرهم، ويظنون بأنفسهم أنهم بإمكانهم أن يطبقوا بشكلٍ أفضل، ويعملوا بصورةٍ أحسن. والواقع أن العباسيين في أيامهم الأولى بصورةً عامةٍ كانوا أكثر تديناً من الأمويين، وأكثر تمسكاً بالإسلام، ولكنهم أقل خدمةً للأمة، وقد ظهر هذا من كلمة داود بن علي من اليوم الأول «ولا نحفر نهراً»، وليس معنى هذا أن الأمويين كانوا جملةً مهملين أمور دينهم، وأن العباسيين كانوا تاركين أمور رعيتهم، وإنما القضايا نسبية. فقد كان الأمويون أهل فضل ودين وإن وقعت في أيام بعضهم حوادث كان يجب ألا تقع، أما ما نسب لهم، وما قيل فيهم فهو بمجمله محض افتراء من صنع الدساسين والخصوم.

وأشار داود بن علي إلى أن منبر الكوفة لم يخطب عليه خليفة بعد رسول الله ﷺ، إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، الذي كان قد اتخذ الكوفة مقراً له، وبعده كانت الكوفة مهملةً من قبل الخلفاء حتى قام الخليفة السفاح هذا، وفي هذا الكلام إثارة لأبناء الكوفة ليعضدوا

الحكم الجديد الذي هو حكمهم إذ أن بلدتهم قد أصبحت قاعدة الخلافة الإسلامية كلها.

وفي اليوم الثاني سار السفاح إلى معسكر حمام أَعْيَن، ونزل في حُجرة أبي سلمة الخلال، ووضع بينهما ستراً. واستخلف على الكوفة وأرضها عمه داود بن علي. وبعث عمه عبد الله بن علي في قوة دعماً لأبي عون عبد الملك بن يزيد لقتال مروان بن محمد.

وبعث ابن أخيه عيسى بن موسى[١] دعماً للحسن بن قحطبة الذي يحاصر يزيد بن عمر بن هبيرة في واسط.

وأرسل يحيى بن جعفر بن تمام بن عباس دعماً لحميد بن قحطبة[٢] الذي يدعو لبني العباس في منطقة المدائن ويقاتل فلول الأمويين هناك.

وأرسل أبا اليقظان عثمان بن عروة بن محمد بن عمّار بن ياسر على رأس قوة عوناً إلى بسّام بن إبراهيم بن بسّام بالأهواز.

وانتصر عبد الله بن علي على مروان بن محمد في معركة الزاب[٣] يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة، وفرّ مروان إلى قاعدته «حرّان» فأقام بها نيفاً وعشرين يوماً، ومنها سار إلى قنسرين[٤]، وعبد الله بن علي متتبع له، ومن قنسرين سار مروان إلى حمص، ومنها إلى دمشق فالأردن ففلسطين، ثم سار إلى مصر، واختبأ ببوصير حتى قتل

---

(١) عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، أبو موسى: فارس بني العباس، وسيفهم المسلول، انتدب لحرب ولدي عبد الله بن حسن فظفر بهما. جعله السفاح ولياً للعهد بعد المنصور لكن المنصور أخّره، وقدّم عليه ولده، وبذل له، وتوفي عام ١٦٨ بالكوفة.

(٢) حميد بن قحطبة بن شبيب الطائي: أمير، من القادة الشجعان، ولي إمرة مصر عام ١٤٣، ثم إمرة الجزيرة، ووجه لغزو أرمينيا عام ١٤٨، ولغزو كابل عام ١٥٢، ثم تسلم إمرة خراسان، وبقي فيها حتى مات عام ١٥٩هـ.

(٣) الزاب: نهر يصب في دجلة على مقربة من الموصل، ويأتي من الشرق.

(٤) قنسرين: كورة بالشام منها حلب، وبينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص.

فيها في ٢٧ ذي الحجة من عام ١٣٢هـ. أما ابناه عبد الله، وعبيد الله فقد فرا إلى الحبشة مع جماعة من الأتباع، ثم قتلت الحبشة عبيد الله، وأفلت عبد الله الذي سلم نفسه أيام خلافة محمد المهدي. وبمقتل مروان بن محمد خلت إمارة المؤمنين للسفاح إذ ليس للمؤمنين إلا أمير واحد لهم في دار الإسلام.

وأما واسط فبقيت محاصرةً من قبل أبي جعفر المنصور، والحسن بن قحطبة حتى جاء إلى ابن هبيرة خبر مقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية حمله إليه إسماعيل بن عبد الله القسري فطلب عندها ابن هبيرة الأمان وكثر الرسل بينه وبين أبي العباس حتى تَم الأمان فاستسلم ابن هبيرة ومن معه، وبقي يتردد على أبي جعفر مع حاشيته، ثمّ استشار أبو العباس في أمره أبا مسلم فرأى قتله فقُتل ابن هبيرة.

وأقام السفاح عدة أشهر بمعسكر حمام أَعْيَن، ثم ارتحل فنزل المدينة الهاشمية في قصر الكوفة. ولم يستقر الوضع للسفاح بمقتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، إذ اندلعت الثورات ضد السفاح في بلاد الشام، كما قامت حركات في بعض المناطق.

انتقل السفاح عام ١٣٤ من الكوفة إلى الأنبار حيث أصبحت مقر حكمه حتى توفي.

لم تقم حركة قوية ضد السفاح بعد عام ١٣٤، وفي الوقت نفسه لم تكن دولته موطدة الأركان، واعتمد السفاح في خلافته على دعائم ثلاث هي:

١ ـ أسرته:

لقد كانت أسرة السفاح كبيرة فكانت دعماً له، ومن يريد أن يؤسس أسرةً حاكمةً فإن عدد أفراد أسرته يلعب دوراً كبيراً في تسهيل مهمته فنلاحظ أن سيدنا معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، أسس أسرةً لكن لم يطل عهدها، ولم يحكم بعده سوى ابنه يزيد، على حين أن أسرة بني مروان قد استمر أمرها ما يقرب من سبعين سنة لكثرة أولاد عبد الملك بن مروان.

لقد كان للسفاح سبعة أعمام تسلّموا له قيادة الجيوش، وإمرة

الولايات، فضبطوا الأمر، فكانت ولاية الشام لعبد الله بن علي، وفلسطين لصالح بن علي، والبصرة لسليمان بن علي، وجزيرة العرب لداود بن علي، والموصل، والأهواز، وفارس لإسماعيل بن علي، وسار عيسى بن علي إلى فارس، وقاد عبد الصمد بن علي الجيوش في الشام دعماً لأخيه عبد الله بن علي.

ولم يكن أبناء عمومته أقل دوراً من أعمامه فموسى بن داود، وداود بن عيسى، ويحيى بن جعفر كلهم كان لهم دور في توطيد دعائم الدولة.

واعتمد على أخويه عبد الله بن محمد، ويحيى بن محمد في قيادة الجيوش وتولّي الإمارة، والاستشارة، فكان المنصور عبد الله بن محمد على رأس القوة التي سارت نجدةً للحسن بن قحطبة في حصار يزيد بن عمر بن هبيرة في واسط، ثم كان أمير الجزيرة حتى استخلف، وكان يحيى بن محمد أمير الموصل. ثم كان ابن أخيه عيسى بن موسى سيف بني العباس الصارم، كما كان ولي العهد لأبي العباس بعد المنصور.

لقد كان السفاح يحب أن يكون دائماً أحد أهل بيته على الإمارة أو قيادة الجيوش ليضمن الأمر، فعندما أرسل أخاه أبا جعفر دعماً للحسن بن قحطبة كتب إليه: «إن العسكر عسكرك، والقواد قوادك؛ ولكن أحببت أن يكون أخي حاضراً، فاسمع له وأطع، وأحسن مؤازرته».

وأرسل إلى فارس عمه عيسى بن علي رغم أن أبا مسلم الخراساني كان قد بعث بمحمد بن الأشعث إليها ولما ردّ محمد بن الأشعث عيسى بن علي أصرّ السفاح على أن يكون أحد أهل بيته على فارس فأرسل عمه الآخر إسماعيل بن علي.

وبعد أن فرّ مروان بن محمد من الزاب وغادر الموصل عيّن عبد الله بن علي عليها محمد بن صول غير أن السفاح لم يلبث أن بعث إلى الموصل أميراً من أهل بيته من أخوه يحيى بن محمد ثم استبدله بأحد أهل بيته أيضاً، وهو عمه إسماعيل بن علي.

واستعان السفاح كذلك بأخواله فبعد أن توفي عمه داود بن علي أمير جزيرة العرب ولّى على المدينة زياد بن عبد الله الحارثي، وعلى اليمن محمد بن يزيد بن عبد الله الحارثي، ثم علي بن الربيع الحارثي.

٢ ـ أبو مسلم الخراساني:

الذي استطاع بحكمته، وحزمه، وقوته، أن ينجح في الدعوة للعباسيين، وأن يقود الجيوش ضد نصر بن سيار والي الأمويين على خراسان وأن ينتصر عليه رغم حداثة سنه إذ قامت الدولة العباسية ولم يتجاوز الثانية والثلاثين: وقتل ولم يناهز السابعة والثلاثين من عمره، وبقيت خراسان على عهدها ما بقي فيها أبو مسلم، بل كان سيف الدولة المصلت تضرب به من يخرج عن طاعتها.

٣ ـ العصبية القبلية:

بزغ قرن العصبية أيام الدولة الأموية وهذا ما أضعفها، وهدّ كيانها، وكان سبباً في سقوطها وزوالها، وأفاد العباسيون منها، إذ رأوا الفرقة والخلاف بين القيسية واليمانية، فلما كان آخر ولاة بني أمية من القيسيين لذا فقد ضمّ العباسيون اليمانيين إلى صفوفهم، فلما قامت دولتهم بقوا محافظين على هؤلاء اليمانيين لذا نجد أكثر قادتهم منهم.

وذكر أمام أبي العباس ما صنع أبو سلمة، فقال أحدهم: ما يدريكم، لعل ما صنع أبو سلمة كان عن رأي أبي مسلم، فقال أبو العباس: لئن كان هذا رأي أبي مسلم إنا لبعرض بلاء، إلا أن يدفعه الله عنا. فأرسل أبو العباس أبا جعفراً إلى أبي مسلم ليتعرف على الرأي، فلما وصل استقبله أبو مسلم استقبالاً حسناً، وبعد ثلاثة أيام سأله عن سبب قدومه، فأخبره، فقال: فعلها أبو سلمة! أكفيكموه! فدعا مرار بن أنس الضبي، فقال: انطلق إلى الكوفة، فاقتل أبا سلمة حيث لقيته، فذهب وقتله، وقالوا: قتله الخوارج.

الولايات[*]

١ ـ الكوفة:

كانت مركز داعي دعاة العباسيين، ثار فيها محمد بن خالد بن عبد الله القسري، وأعلن الدعوة للعباسيين فيها، ففرّ منها عامل بن هبيرة عليها، وهو زياد بن صالح، ونزل فيها السفاح سراً مع أهله، وأنزلهم أبو سلمة في دار الوليد بن سعد مولى بني هاشم. وجاء الحسن بن قحطبة بن شبيب الطائي قائد العباسيين فدخلها، وخرج أبو سلمة من مخبئه، وعسكر خارجها، وتولى أمرها محمد بن خالد بن عبد الله القسري. وعندما قام السفاح ولّى عليها عمه داود بن علي، وعسكر هو خارجها، وعاد إليها بعد أشهر. وبعد عام تولى أمرها عيسى بن موسى لأن داود بن علي نقل إلى إمرة جزيرة العرب كلها [المدينة، ومكة، واليمن، واليمامة].

ثم انتقل السفاح من الكوفة إلى الأنبار عام ١٣٤ هـ، لكنها بقيت مركز قوة للعباسيين.

٢ ـ البصرة:

بعد أن قام السفاح في الأمر، أرسل إلى البصرة سفيان بن معاوية المهلبي عاملاً عليها من قبله، وبعد عام أرسل مكانه عمه سليمان بن علي، وبقي عليها مدة خلافة السفاح، ولم يحدث فيها ما يستحق الذكر.

٣ ـ الموصل:

بعد هزيمة مروان بن محمد في الزاب وفراره متجهاً نحو حرّان خلّف

وراءه الموصل فولّى عليها عبد الله بن علي أميراً هو محمد بن صول، ثم أرسل إليها السفاح أخاه يحيى بن محمد أميراً عليها، ثم استبدله بعمه إسماعيل بن علي.

٤ ـ الأهواز:

دخلها بسّام بن إبراهيم بن بسّام، وأخرج من فيها من أتباع الأمويين، وتولّى أمرها، ثم خرج منها وتوجه إلى المدائن فأرسل السفاح إليها عمه إسماعيل بن علي. وأرسل إلى بسام في المدائن خازم بن خزيمة، ففر بسام عام ١٣٤هـ.

٥ ـ فارس:

بعث أبو مسلم الخراساني إلى فارس محمد بن الأشعث، وأمره أن يأخذ عمال أبي سلمة فيضرب أعناقهم، لكن السفاح أرسل إليها عمه عيسى بن علي فردّه محمد بن الأشعث وعندها سار إليها إسماعيل بن علي وتولى أمرها.

٦ ـ خراسان:

كان أبو مسلم الخراساني سيد خراسان ولا منازع له، وهو صاحب الكلمة المسموعة فقط دون غيره، وبقيت هادئة. وخرج زياد بن صالح الذي كان عامل ابن هبيرة على الكوفة خرج مخالفاً وراء نهر بلخ فلما هزم فرّ إلى دهقان الترك فسلمه إلى أبي مسلم فضرب عنقه عام ١٣٥هـ. ومن قبله خرج شريك بن شيخ المهدي فقتله أبو مسلم.

٧ ـ السند:

أرسل السفاح إلى السند منصور بن جهور فملكها، ثم ثار فيها فبعث

له موسى بن كعب[1] عام ١٣٤هـ فأخذها منه وفرّ منصور، واتجه إلى الصحراء فمات عطشاً، وبقي موسى بن كعب والياً على السند حتى توفي، وكان نائبه عليها ابنه عيينة.

٨ ـ الجزيرة:

لما مرّ مروان بن محمد على حرّان فاراً من وجه عبد الله بن علي خلّف عليها ابن أخيه أبان بن يزيد بن محمد بن مروان، وهو ختن مروان عنده ابنته أم عثمان، فلما قدم عبد الله بن علي لقيه أبان مبايعاً له، ودخل في طاعته فأمنه ومن معه في حرّان والجزيرة، وترك عبد الله بن علي في حران موسى بن كعب، وسار إثر مروان.

ولما علم أهل الجزيرة بما كان من أمر قنسرين، وأبي الورد، أعلنوا خروجهم على العباسيين: وساروا إلى حرّان وعليها موسى بن كعب فحاصروه ومن معه. وجاء إسحاق بن مسلم العقيلي من أرمينيا، وكان قد تركها عندما علم بهزيمة مروان بن محمد، فسوّده أهل الجزيرة عليهم فحاصر موسى بن كعب مدة شهرين. فوجّه السفاح أخاه أبا جعفر ومن معه من الجند إلى حران، وكان بواسط يحاصر ابن هبيرة، وتحرك أبو جعفر نحو الجزيرة، وكان أهل قرقيساء، والرقة قد وافقوا أهل الجزيرة في حركتهم. وتسلّم أمر الرقة بكار ابن مسلم العقيلي أخو إسحاق.

أرسل إسحاق أخاه بكاراً إلى داراً، وماردين وما حولهما ولكنه هزم أمام أبي جعفر، وعندما وصل أبو جعفر إلى حرّان غادرها إسحاق بن مسلم واتجه إلى الرها، فخرج موسى بن كعب وقد فك الحصار عنه.

---

(١) موسى بن كعب بن عيينة التميمي: من كبار قواد الدولة العباسية الذين رفعوا عمادها، جعله محمد بن علي أحد النقباء الاثني عشر، أخضع لهم أبيورد، وقضى على حركة منصور بن جهور في السند، وملكها، وأصبح على شرطة المنصور ووالي الهند، ومصر، وتوفي عام ١٤١.

جعل إسحاق أخاه بكاراً على الرها، وخرج هو إلى سُمَيْساط[1] فلحقه أبو جعفر وكانت بينهما وقائع.

كتب السفاح إلى عمه عبد الله بن علي يأمره بالمسير على رأس قوةٍ إلى سُمْيساط، فسار، وحاصر إسحاق بن مسلم فيها عدة أشهر، وكان إسحاق يتعلل ببيعة مروان في عنقه فلما أخبر بمقتل مروان طلب إسحاق الأمان، فكتبوا إلى أبي العباس فوافقهم على الأمان له، فأُعطيه، وأصبح من جند العباسيين، وعُيّن أبو جعفر أميراً للجزيرة وأرمينيا، وبقي فيهما حتى استخلف، وينيب على أرمينيا يزيد بن أسيد، وعلى أذبيجان محمد بن صول.

٩ ـ الشام:

كان عبد الله بن علي يتتبع مروان بن محمد من حرّان، إلى منبج، فقنسرين، فحمص، فبعلبك فكان كلما وصل عبد الله بن علي إلى مدينة استقبله أهلها، وبايعوه، ودخلوا في طاعته، فلما وصل إلى دمشق حاصرها وقادته، وعليها الوليد بن معاوية بن مروان وهو ختن مروان، عنده ابنته أم الوليد، ففتحتِ دمشق أبوابها في العاشر من رمضان ١٣٢، وقتل الوليد بن معاوية، وسار عبد الله بن علي إلى الكسوة فالأردن فبايعه أهلها، ثم اتجه إلى فلسطين فنزل بيسان، ثم مرج الروم، ثم نهر أبي فُطْرُس[2]، وجاء كتاب أبي العباس إلى عبد الله بن علي أن يوجّه أخاه صالح بن علي ليلاحق مروان بن محمد ويلتفت هو إلى أمور الشام. وبقي بعدها صالح بن علي أميراً على فلسطين. أما عبد الله بن علي فقد اتجه إلى محاربة حبيب بن مرة المري في أرض البلقاء، والبَثَنِيّة[3]، وحوران، وهو أحد قادة

---

(١) سميساط: مدينة على نهر الفرات في بلاد تركيا اليوم.

(٢) أبو فطرس: نهر شمال مدينة الرملة بفلسطين على بعد ٢٠ كيلومتراً منها ينتهي في البحر جنوب يافا.

(٣) البثنية: قرية بين دمشق وأذرعات، وهي غير موجودة الآن، وكان النبي أيوب عليه السلام منها.

مروان. وفي هذه الأثناء خرج أبو الورد مجزأة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابي بقنسرين، وقد كان من أصحاب مروان وقواده، فلما هزم مروان وجاء عبد الله بن علي لقيه أبو الورد وبايعه ودخل في طاعته.

كان أبو الورد جاراً لولد مسلمة بن عبد الملك. فجاء قائد من قواد عبد الله بن علي على رأس مائة وخمسين فارساً، وحمل أولاد مسلمة بن عبد الملك ونساءهم قهراً من غير ذنب سوى أنهم أمويون، فشكا بعضهم إلى أبي الورد فأخذته الحمية والنخوة، وهجم على القائد وقتله ومن معه، ودعا أهل قنسرين إلى خلع طاعة عبد الله بن علي ففعلوا، وبايعته قيس، فخاف على نفسه، وأعلن الثورة، وهكذا كان تصرف قائد صغير مدعاة لثورة أربكت الدولة.

وعندما بلغ الخبر إلى عبد الله بن علي صالح خصمه حبيب بن مرة واتجه إلى قنسرين ماراً بدمشق، وما أن اجتاز دمشق حتى انتفضت عليه، لما صدر من أفعال من بعض أتباعه، ونهبوا متاعه فيها، ولم يتعرضوا إلى أهله، إذا لم يرغبوا أن يفعلوا ما اشتكوا منه.

كاتب أهل قنسرين أهل حمص وتدمر فوافقوهم وجاءوا بمدد إليهم، وعليهم أبو محمد زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الذي عرف بالسفياني.

وصل عبد الله بن علي إلى مقربة من معسكر السفياني فوجه إليهم أخاه عبد الصمد بن علي في عشرة آلاف فلقيهم أبو الورد وهزمهم في مرج الأخرم[١]، فعادوا إلى عبد الله بن علي أشتاتاً، فسار إليهم بنفسه ومعه أخوه عبد الصمد، وحميد بن قحطبة وعدد من القادة البارزين، فانكشفت جماعة عبد الله بن علي، ولكنه ثبت هو وحميد بن قحطبة، وأعادوا الكرة وثبت لهم أبو الورد في خمسمائة من أهله وقادته، فقتلوا جميعاً، وهرب

---

(١) الأخرم: مرج إلى الشرق من حمص ويُعرف اليوم مخرم.

أبو محمد السفياني ومن معه من الكلبية ولاذوا بتدمر، ثم فرّ وأبناؤه إلى الحجاز.

أمّن عبد الله بن علي أهل قنسرين فبايعوه من جديد، وأعلنوا ولاءهم له، وعاد إلى دمشق التي انتفضت عليه، وهزمت نائبه أبا غانم عبد الحميد بن ربعي الطائي، فلما اقترب منها هرب الناس منها وتفرقوا، ولم تحدث بينهم وبين عبد الله بن علي وقائع، فأمنهم، فجاءوا إليه وبايعوه، ولم ينتقم من أحدٍ منهم تهدئةً لأحوالهم وألفةً لقلوبهم.

وبقي عبد الله بن علي أميراً على الشام مدة خلافة السفاح.

١٠ ـ مصر:

كان آخر ولاة بني أمية على مصر عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير، وقد دخل إليها مروان بن محمد فاراً من وجه العباسيين فقتل فيها، وتولى أمرها أبو العون عبد الملك بن يزيد الأزدي وبقي فيها حتى عام ١٣٦ حيث ولي أمرها صالح بن علي.

١١ ـ إفريقية:

سيطر الخوارج على إفريقية في أواخر عهد الدولة الأموية، وسار إليهم محمد بن الأشعث فدخل إفريقية، وفيها عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة الفهري يقاتل الخوارج.

١٢ ـ الأندلس:

فقد كان عليها يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وصاحب الكلمة فيها الصميل بن حاتم، واستمرا حتى جاء عبد الرحمن الداخل الأموي فقاومه يوسف والصميل ثم خضعا.

١٣ ـ الحجاز:

عيّن أبو العباس بعد مدة من قيامه عمه داود بن علي على مكة والمدينة واليمن واليمامة بعد أن عزله عن الكوفة، إلا أن هذه الولاية كانت اسمية، وخاصةً على اليمامة إذ كان واليها الحقيقي المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة، غير أن داود بن علي لم يلبث أن توفي واستخلف مكانه ابنه موسى، ولكن السفاح أرسل خاله زياد بن عبد الله الحارثي على المدينة، فضبط أمرها، وأرسل جيشاً إلى اليمامة بإمرة إبراهيم بن حسان السلمي استطاع أن يخضعها ويقتل المثنى بن يزيد.

وأرسل إلى اليمن محمد بن يزيد بن عبد الله الحارثي، فلما توفي عام ١٣٤ كتب إلى عامل مكة علي بن الربيع بن عبيد الله الحارثي أن يتوجه إلى اليمن فسار إليها.

وتولى أمر مكة العباس بن عبد الله بن معبد بن العباس.

١٤ ـ أما البحرين وعمان:

فكانت تتبع إمارة البصرة التي عليها إسماعيل بن علي.

* * *

الفتوحات

كان أبو العباس مشغولاً بتوطيد أركان الدولة، كما كانت هناك قوة لأنصار الأمويين في الجزيرة، وفي الشام، وفي اليمامة، وقامت حركات فلا بد من خضد شوكتها لذا فقد انصرف عن الفتوحات والغزو. وكل ما حدث أن توجّه خالد بن إبراهيم[1] عام ١٣٣ على رأس قوة إلى بلاد الترك فيما بعد بلخ وحصل على غنائم، كما سار إلى بلاد ما وراء النهر، وتوغل في بلاد الترك ونال منهم، وربما كان ذلك أن خراسان كانت أكثر استقراراً من غيرها.

وعندما استقرت أوضاع بلاد الشام وجه صالح بن علي لغزو الصائفة سعيد بن عبد الله فحصل على بعض الغنائم. كما عقد أبو العباس لعمه عبد الله بن علي عندما زاره في الأنبار على صائفة تضم أهل خراسان، والموصل، والجزيرة، والشام فسار حتى بلغ دلوك[2]، ولم يغادرها حتى جاء نبأ وفاة أبي العباس.

وفي الوقت نفسه فقد استغل قسطنطين ملك الروم انتفاضة الجزيرة على أبي العباس ودخل مدينة ملاطية، وقاليقلا، وانتصر على المسلمين.

---

(١) خالد بن إبراهيم الذهلي، أبو داود: تولى أمر خراسان أيام المنصور، وهو من الغزاة، ثار عليه جنده، فأشرف عليهم يصيح بهم فسقط عن الحائط فمات سنة ١٤٠.

(٢) دلوك: بليدة من نواحي حلب بالعواصم.

الخوارج

ظهر الخوارج الصفرية في جزيرة كاوان، كما ظهرت الأباضية في عُمان بإمرة الجلندي فلما غضب أبو العباس على خازم بن خزيمة سيّره على رأس سبعمائة فارس إلى الخوارج، فهرب الخوارج من وجه خازم من جزيرة كاوان وعلى رأسهم شيبان بن عبد العزيز، ووصلوا إلى عُمان فقاتلهم خوارج عمان لاختلافهم معهم، وقتل شيبان ومن معه. وسار خازم إلى عمان، وانتصر على الجلندي وقتله وقتل معه عشرة آلاف ممن تبعه ورجع بعد أن مكث أشهراً.

كما برزت الصفرية في المغرب الأقصى وسيطرت عليه، وظهرت الأباضية في المغرب الأدنى والأوسط، وأخضعت أجزاءً واسعةً لنفوذها، وكان عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة يجرد سيفه من القيروان في محاربة الخوارج عندما قامت الدولة العباسية.

إذ أن البربر قد تضايقوا كثيراً من القتال الذي جرى في إفريقية نتيجة الصراع القبيلي بين القيسية واليمانية، والحروب التي خاضها البربر ضد الرومان في صقلية وسردينيا ومع ذلك فإن القادة ليس منهم، ويجرّون إلى الصراع جرّاً، لذا فقد ذهب وفد منهم إلى دمشق لمقابلة الخليفة، وتوضيح ما يعانون، ولكنهم عادوا دون إمكانية مقابلة الخليفة هشام بن عبد الملك، وما أن رجع وفدهم إلى بلادهم حتى بايع الخوارج أحد أعضاء الوفد وهو ميسرة الطغري وذلك عام ١٢١ فثار وزحف بمجموعه إلى طنجة فدخلها، وقتل عاملها عمر بن عبيد الله المرادي، وعيّن عليها عبد الأعلى بن جريج الإفريقي، ثم توجّه إلى بلاد السوس فقتل إسماعيل بن عبيد الله بن

الحبحاب وتمت لميسرة الطغري السيطرة على بلاد المغرب الأقصى إذ ساعدته في ذلك القبائل التي تؤيده فقامت على من فيها من الأمراء وأزالتهم، وبايعت ميسرة.

أرسل عبيد الله بن الحبحاب جيشاً لقتال الصفرية بإمرة خالد بن أبي حبيب الفهري، كما استدعى جيش حبيب بن أبي عبيدة الفهري من صقلية، ووجهه أيضاً لقتال الخوارج. فانهزم ميسرة بالمعركة ورجع إلى طنجة، وهذا ما قللّ من هيبته، وقدّمت الصفرية عليها خالد بن حميد الزناتي.

سار خالد بن حميد الزناتي لملاقاة جيش خالد بن أبي حبيب الفهري، وعندما اقترب منه حصره بين قسمي جيشه فأباده في معركة الأشراف.

وأصبحت النقمة على عبيد الله بن الحبحاب كبيرة فاستدعاه الخليفة، وأرسل جيشاً بقيادة كلثوم بن عياض القشيري، ومعه بلج بن بشر خليفةً له، ومن بعدهما ثعلبة بن سلامة العاملي. والتقى هذا الجيش ومعه حبيب بن أبي عبيدة الفهري بالخوارج في معركة عام١٢٣ قتل فيها كلثوم بن عياض، وحبيب بن أبي عبيدة، وتمكّن بلج بن بشر من الفرار مع عشرة آلاف من جنده إلى طنجة، وعادت فلول الجيش الأموي إلى القيروان. وأصبح المغرب الأقصى والأوسط تحت نفوذ الخوارج من الصفرية. وغدا خالد بن حميد الزناتي سيد المغرب الأقصى، أما المغرب الأوسط ففيه عكاشة بن أيوب النغراوي، وعبد الواحد بن يزيد الهواري. وحين خرج كلثوم بن عياض القشيري إلى المغرب وترك المغرب الأدنى وراءه سار إلى قابس عبد الواحد بن يزيد الهواري فدخلها.

أما القيروان فكان عليها عامل كلثوم بن عياض وهو مسلمة بن سواده وقد سار لقتال عكاشة بن أيوب ولكنه هزم أمامه، واضطر إلى العودة مسرعاً لقاعدته في القيروان، وهذا ما جعل جنده يثورون عليه، ويولّون أمرهم سعيد بن بجرة الغساني الذي اعتصم بالقيروان.

سار سعيد بن بجرة عام ١٢٤ إلى قابس، وما أن خرج من القيروان حتى سار إليها عكاشة بن أيوب لكنه لم يتمكن من دخولها إذ صدّه عنها القيراونيون بإمرة عبد الرحمن بن عقبة الغفاري، وفرّ عكاشة بن أيوب إلى الصحراء، وحاول عكاشة، وعبد الواحد تنظيم الخوارج من الصفرية بالاستعانة بقبيلة زناتة التي كان مقدم الخوارج فيها أبو قرة.

أرسل الخليفة هشام بن عبد الملك والي مصر حنظلة بن صفوان على رأس جيشٍ كبيرٍ، وأعطاه ولاية إفريقية، وما أن وصل إلى القيروان حتى بعث بجيشٍ لمنازلة الخوارج في الزاب، وكان هذا الجيش بقيادة عبد الرحمن بن عقبة، فانتصر على الخوارج، ولكنه قتل في معركةٍ ثانيةٍ. وفي الوقت نفسه قُتل عامل طرابلس معاوية بن صفوان على يد الصفرية أيضاً. ولم يبق من عقبةٍ أمام الصفرية سوى القيروان فسار إليها عكاشة بن أيوب، وعسكر بالقرب منها في منطقة القرن، كما سار عبد الواحد من تلمسان على رأس جيش، ومعه أبو قرة، وعسكر في الأصنام، وانتصر على جيش أرسله له حنظلة بن صفوان.

تحصّن حنظلة بالقيروان، وحفر خندقاً وعندما تيقّن من قوته تقدّم إلى عكاشة وهزمه في القرن عام ١٢٥، وأسره وقتله، كما هزم جيش عبد الواحد في الأصنام بعد انتصارٍ جزئي أحرزه.

سيطر عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع على المنطقة، وأجبر حنظلة بن صفوان على مغادرتها، واضطر مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية على الاعتراف بولاية عبد الرحمن بن حبيب على إفريقية، وتمكّن من القضاء على حركات الخوارج من الصفرية إذ قضى على حركة عروة بن الوليد الصدفي في تونس، كما قمع كل حركة للخوارج.

ودالت دولة بني أمية وقامت دولة بني العباس، والخوارج من الصفرية في مرحلة من الضعف، وعبد الرحمن بن حبيب هو صاحب الكلمة في إفريقية.

هذا بالنسبة إلى الصفرية أما بالنسبة إلى الأباضية من الخوارج فقد كان نشاطهم في المغرب الأدنى. وقام زعيمهم عبد الله بن مسعود التجيبي بثورة في منطقة طرابلس عام ١٢٦ غير أن عبد الرحمن بن حبيب قد تمكن من القبض عليه وقتله كما فتك بقبيلة هوارة التي تزعّمها الخارجي.

وقام عبد الجبار بن قيس المرادي، والحارث بن تليد الحضرمي بحركةٍ عام ١٣٠، وحاصر طرابلس، ودخلاها، وقتلا عاملها، وهزما جيوش عبد الرحمن بن حبيب ثلاث مرات، وعندما قررا السير نحو القيروان اختلفا، وانشغل أحدهما بقتال الآخر، وهذا ما أضعف الأباضية، وفتّ في عضدها تماماً عام ١٣١هـ. ولكن لم يمنع هذا من قيام إسماعيل بن زياد النفوسي بثورةٍ عام ١٣٢ فاستولى على قابس، فأسرع إليه عبد الرحمن بن حبيب، وهزم الأباضية.

وهكذا فإن شأن الأباضية لم يكن بأفضل حالاً من الصفرية عندما قامت الدولة العباسية. ولكن مات عبد الرحمن بن حبيب، وحدث صراع بين أسرته، وشغلت الدولة العباسية بأحداثها فنشط الخوارج تارةً أخرى في أيام المنصور، وإن حدثت بعض الحوادث أيام السفاح، إذ خلف عبد الرحمن بن حبيب ابنه حبيب فنازعه عمه عبد الوارث الذي كان على صلة بالخارجي عاصم بن جميل ولكنه أظهر الولاء للعباسيين أو هكذا ظنّ الناس، ولكن حبيب تمكّن من هزيمة الخوارج هزيمة منكرة عام ١٣٥.

* * *

- ٢ -
المنصور
عبد الله بن محمّد
١٣٧ - ١٥٨هـ

هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ولد بالحميمة من الشراة في الأردن عام ٩٥هـ، فهو أكبر من أخيه أبي العباس بحوالي عشر سنوات، وأمه سلامة البربرية.

توفي والده محمد بن علي وقد جاوز المنصور الثلاثين، فقد التقى مع والده بكبار الرجال، كما عرف جده علي بن عبد الله الذي توفي عام ١١٨.

كان أسمر طويلاً نحيفاً مهيباً، خفيف العارضين، معرّق الوجه، رحب الجبهة، أقنى الأنف. وكان فحل بني العباس هيبةً وشجاعةً، ورأياً وحزماً، ودهاءً وجبروتاً، وكان جمّاعاً للمال، حريصاً، تاركاً للهو واللعب، وحسن المشاركة في الفقه، والأدب والعلم، متديناً كثير الخير.

تولّى إمرة بليدة في فارس لعاملها سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة، ثم عزله وضربه.

خرج على بني أمية مع أخيه السفاح، وعميه عبد الله بن علي، وعيسى بن علي عندما قام عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر فلما هزموا، توزعوا واختفوا، وسار المنصور مختفياً في الجزيرة، وتزوج بأم ولد، ثم رجع إلى الحميمة حتى انضم إلى ركب أخيه إلى الكوفة.

انتقل مع أخيه أبي العباس من الحميمة إلى الكوفة، ونزل معه في مخبئه، وخرج منه معه، وكان مستشاره، ومن دعائمه.

وتنكّر أبو العباس لأبي سلمة قبل ارتحاله من عسكره بالنخيلة، ثم

تحوّل عنه إلى المدينة الهاشمية، فنزل قصر الإمارة بها، وهو متنكّر له، وقد عُرف ذلك منه، وكتب إلى أبي مسلم يعلمه رأيه، وما كان همّ به من الغشّ، وما يتخوّف منه، فكتب أبو مسلم إلى أمير المؤمنين: إن كان اطلع على ذلك منه فليقتله؛ فقال داود بن علي لأبي العباس: لا تفعل يا أمير المؤمنين؛ فيحتج عليك بها أبو مسلم وأهل خراسان الذين معك، وحاله فيهم حاله؛ ولكن اكتب إلى أبي مسلم فليبعث إليه من يقتله، فكتب إلى أبي مسلم بذلك، وأرسل له أخاه أبا جعفر الذي يقول: فخرجت على وجل؛ فلما انتهيت إلى الريّ، إذا صاحب الريّ قد أتاه كتاب أبي مسلم: إنه بلغني أن عبد الله بن محمد توجّه إليك، فإذا قدم فأشخصه ساعة قدومه عليك. فلما قدمت أتاني عامل الريّ فأخبرني بكتاب أبي مسلم، وأمرني بالرحيل، فازددت وجلاً، وخرجت من الريّ وأنا حذر خائف فسرت؛ فلما كنت بنيسابور إذا عاملها قد أتاني بكتاب أبي مسلم: إذا قدم عليك عبد الله بن محمد فأشخصه ولا تدعه يقيم، فإن أرضك أرض خوارج ولا آمن عليه. فطابت نفسي وقلت: أراه يُعنى بأمري. فسرت فلما كنت من مرو على فرسخين، تلقّاني أبو مسلم في الناس، فلما دنا مني أقبل يمشي إليّ؛ حتى قبّل يدي، فقلت: اركب، فركب فدخل مرو، فنزلت داراً فمكثت ثلاثة أيام، لا يسألني عن شيء، ثم قال لي في اليوم الرابع: ما أقدمك؟ فأخبرته، فقال: فعلها أبو سلمة! أكفيكموه! فدعا مرّار بن أنس الضبي، فقال: انطلق إلى الكوفة، فاقتل أبا سلمة حيث لقيته؛ وانته في ذلك إلى رأي الإمام.

وصل مرّار إلى الكوفة، وقدم على أبي العباس في المدينة الهاشمية، وأعلمه سبب قدومه، فأمر أبو العباس منادياً فنادى: إن أمير المؤمنين قد رضي عن أبي سلمة، ودعاه، وكساه. وجاء أبو سلمة بعد ذلك ليلةً إلى أبي العباس، وسهر عنده حتى ذهب عامة الليل، ثم خرج منصرفاً إلى منزله يمشي وحده، فعرض له مرّار بن أنس الضبّي ومن كان معه من أعوانه فقتلوه، وأغلقت أبواب المدينة، وقالوا: قتل الخوارج أبا سلمة.

يبدو أن أبا مسلم كان حذراً جداً فخشي أن يلتقي أبو جعفر بالناس أثناء قدومه إليه فيفسد عليه ولايته، لذا رغب ألا يمكث في بلدٍ أبداً، ولاحظ في كتابه الأول إلى صاحب الري بعض عدم الحذر فأراد أن يجليه بالكتاب الآخر الذي بعثه إلى صاحب نيسابور، وعندما وصل أبو جعفر إلى مرو اصطنع أبو مسلم المحبة والاحترام الزائد والتقدير لأبي جعفر، كما رغب أن يبقى سرّه بينه وبين نفسه، لذا لا مانع عنده من أن يتخلّص من كل الدعاة السابقين، ومن لهم شأن سابق ليبقى وحيداً في أمره، وانتهى من أبي سلمة كبير الدعاة فحقق ما يريده العباسيون، وحقق ما تطمح إليه نفسه. أما أبو جعفر فيبدو حذره واضحاً مذ كُلّف بالرحلة إلى مرو حيث كان وجلاً خائفاً منها.

ويزداد الأمر وضوحاً في الرحلة الثانية التي سار بها أبو جعفر إلى خراسان، فبعد أن قُتل أبو سلمة أرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر في ثلاثين رجلاً إلى أبي مسلم، فلما وصل أبو جعفر إلى مرو مشى معه عبيد الله بن الحسين الأعرج، وسليمان بن كثير، فقال سليمان بن كثير للأعرج: يا هذا، إنا كنا نرجو أن يتمّ أمركم فادعونا إلى ما تريدون، فظنّ الأعرج أنه دسيس من أبي مسلم، فخاف ذلك. وبلغ أبا مسلم مسايرة سليمان بن كثير إياه، وأتى عبيد الله أبا مسلم، فذكر له ما قال سليمان، وظنّ أنه إن لم يفعل ذلك اغتاله ـ إذ كانوا يخشون أبا مسلم خشيةً كبيرةً ـ فبعث أبو مسلم إلى سليمان بن كثير، فقال له: أتحفظ قول الإمام لي: من اتهمته فاقتله؟ قال: نعم، فقال: إني قد اتهمتك، فقال: أنشدك الله! قال: لا تناشدني الله وأنت منطوٍ على غشّ الإمام؛ فأمر بضرب عنقه. ووصل الخبر إلى أبي جعفر فغضب غضباً شديداً، ولكنه كظم غيظه، فسليمان بن كثير الخزاعي أحد نقباء الدعوة، وشيخهم، وكان كلما جاء داعية إلى خراسان يُطلب منه أن يسمع ويُطيع لسليمان هذا، ومنهم أبو مسلم نفسه. ورجع أبو جعفر إلى الكوفة، فقال لأبي العباس: لست خليفةً ولا أمرك بشيء إن تركت أبا مسلم ولم تقتله، قال: وكيف؟ قال: والله ما يصنع إلا ما أراد، قال أبو

العباس: اسكت فاكتمها. وأصبح أبو جعفر لا يطيق أبا مسلم ويرى أنه الشبح الذي يهدد العباسيين ولا يمكن مخالفة أمره في خراسان للفزع الذي نشره بين الناس، والأسلوب الذي اتبعه في نقل الأخبار إليه، والقتل المباشر لأدنى شك. ثم تقريب عناصر الإجرام إليه، واستخدامهم أداةً لتنفيذ ما يريد. وكان أبو مسلم كلما قتل أحداً اتهمه بغشّه للإمام وذلك من أجل أن يُرضي العباسيين ويظهر تأييده البارد لهم، وأنه يعمل لهم، وفي الواقع أنه كان يُخطط لمصلحة يراها، ويكتم أمرها.

وعندما عاد أبو جعفر إلى الكوفة أرسله أبو العباس إلى واسط لمحاصرة ابن هبيرة فيها وبعد حصار استمر ما يقرب من أحد عشر شهراً، وصل خبر مقتل مروان بن محمد إلى ابن هبيرة فطلب وقتها الأمان والصلح، وجرت الرسل بين الطرفين، وتمّ الأمر، وخرج ابن هبيرة، وكان يسمر عند أبي جعفر، ويرى أبو جعفر المحافظة على العهد والوفاء بالأمان لابن هبيرة، إلا أن أبا العباس قد استشار أبا مسلم، فقال له: إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد؛ والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة. فكتب أبو العباس إلى أبي جعفر يأمره بقتل ابن هبيرة، ولكن أبا جعفر راجعه، وراجعه، وأبو العباس يلحّ حتى قال له أخيراً: والله لتقتلنّه أو لأُرسلن إليه من يخرجه من حجرتك، ثم يتولى قتله، فأزمع قتله، ونفذ ذلك.

كان أبو جعفر يرى أن استرضاء القادة الذين كانوا دعامة بني أمية قوةً للعباسيين، أما أبو مسلم فيرى في وجود قادةٍ بارزين في صفوف العباسيين إضعافاً لمركزه، لذا كان يرى التخلص منهم كي لا يفسدوا عليه الطريق السهلة التي يراها، وعبّر عنها بجوابه لأبي العباس. وهكذا زادت نقمة أبي جعفر على أبي مسلم.

وما انتهى أمر واسط وابن هبيرة حتى أرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر أميراً على الجزيرة، وأرمينيا، وأذربيجان، وبقي أميرها حتى استخلف.

ولما بايع أبو العباس لأخيه أبي جعفر من بعده بعثه إلى أبي مسلم وكان بنيسابور كي يأخذ البيعة منه ومن أهل خراسان، وكأن أبا العباس كان يحب أن تزول الغمة بين أخيه وأبي مسلم بالصلة والزيارة ولكن ذلك ما كان إلا ليزيدها، وما من تصرف إلا ويُؤول، إذ أن النفوس غير صافية بعضها لبعض ووصل أبو جعفر إلى نيسابور فاستقبله أبو مسلم، واستخفّ به، إذ وجد في استخلافه عقبةً كأداء في وجه مشروعاته، وما يخُطط له. وبقي عدة أيام أبو جعفر في نيسابور حتى فرغ من البيعة، ولما عاد أخبر أبا العباس بما كان من استخفاف أبي مسلم به.

وفي عام ١٣٦ استخلف أبو جعفر على عمله في الجزيرة، وأرمينيا، وأذربيجان مقاتل بن حكيم العكّي، وقدم على أبي العباس واستأذنه بالحج، فإذن له، واستعمله على الحج. ولم يلبث أن كتب أبو مسلم لأبي العباس يستأذنه في القدوم عليه، فأجابه إلى ذلك، فقدم في جماعةٍ عظيمةٍ من أهل خراسان، فأمر أبو العباس الناس باستقباله فاستقبلوه، وأكرمه أبو العباس، وأنزله قريباً منه، ثم استأذنه بالحج فقال له: لولا أن أبا جعفر يحج لاستعملتك على الموسم.

واستغلّ أبو جعفر وجود أبي مسلم بالأنبار فقال لأبي العباس: يا أمير المؤمنين أطعني واقتل أبا مسلم، فوالله إن في رأسه لغدرة، فقال: يا أخي، قد عرفت بلاءه وما كان منه، فقال أبو جعفر: يا أمير المؤمنين، إنما كان بدولتنا، والله لو بعثت سنّوراً لقام مقامه. وبلغ ما بلغ في هذه الدولة. . . . فوافق أبو العباس ثم تراجع عن ذلك.

وسار أبو جعفر إلى الحج كما سار أبو مسلم، وانتهى الموسم. وكان أبو مسلم يعطي الأعطيات، ويمنح الهبات، ويحفر الآبار، ويتقرب إلى الناس، ولم يكن أبو جعفر كذلك فزاد غضب المنصور من تصرف أبي مسلم، وتحببه للناس.

وتوفي أبو العباس فأخذ البيعة للمنصور ابن أخيه عيسى بن موسى، وكتب إلى عمه بذلك، وقام بأمر الناس. ووصل الخبر إلى المنصور وهو

في الطريق، فبايعه أبو مسلم ومن معه، وتابع سيره حتى أتى الكوفة، فصلى الجمعة فيها، وخطب أهلها، وأعلمهم أنه راحل إلى الأنبار.

وقيل: إن خبر موت أبي العباس قد وصل إلى أبي مسلم قبل وصوله إلى أبي جعفر فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم. عافاك الله وأمتع بك. إنه أتاني خبر أفظعني وبلغ مني مبلغاً لم يبلغه شيء قط، لقيني محمد بن الحصين بكتاب من عيسى بن موسى إليك بوفاة أبي العباس أمير المؤمنين ـ رحمه الله ـ فنسأل الله أن يعظم أجرك، ويحسن الخلافة عليك، ويبارك لك فيما أنت فيه؛ إنه ليس من أهلك أحد أشد تعظيماً لحقك وأصفى نصيحة لك، وحرصاً على ما يسرك مني. وبعد يوم أو يومين بعث بالبيعة إليه. ويبدو أنه أراد المداهنة قبل أن ينتقم منه المنصور.

* * *

خلافته

وصل أبو جعفر إلى الأنبار فوجد العراق أمر منتهياً من حيث البيعة، وقد أخذها له ابن أخيه عيسى بن موسى، وأرسل الرسل لأخذها، وتسلّم له الأمر، فلما وصل إلى مقره سلّمه المقاليد. وبدأت المشكلات للمنصور تتوالى فأخذها بالحكمة والحزم.

كان عيسى بن موسى قد أرسل إلى عبد الله بن علي بخبر وفاة أبي العباس، وطلب منه البيعة لأبي جعفر، وكان عبد الله بن علي في طريقه إلى الروم، فلما جاءه الخبر، نادى الصلاة جامعة فاجتمع إليه القادة والجند فقرأ عليهم كتاب أبي العباس، وقال لهم: إن أبا العباس لما أراد أن يرسل إلى حرب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قال: من يسير إليه وهو ولي عهدي. فتقدّمت ولم يرسل غيري، فكنت ولي عهده، وأنا من بعده، والآن قد رحل فأنا الخليفة من بعده، وشهد بعض القادة على ذلك. فبايعه من معه وسار بها إلى حران، ودعا مقاتل بن حكيم العكّي إلى البيعة فلم يجبه فحاصره مدة دخل بعدها حرّان وقتله، ثم تحصّن بها، وأخذ استعداداته.

يرى عبد الله بن علي أنه الخليفة الطبيعي فهو الذي قد دكّ صرح الدولة الأموية، وثبّت دعائم البيت العباسي، وإذا كان أبو العباس قد تولّى الخلافة بالعهد من أخيه إبراهيم إلا أنه هو الآن أحقّ الناس بالأمر، وإذا كان إخوته جميعهم أكبر منه باستثناء عبد الصمد[1] إلا أنهم دونه في

(١) إخوة عبد الله بن علي:
١ ـ محمد بن علي: ٦٢ ـ ١٢٥هـ.
٢ ـ داود بن علي: ٨١ ـ ١٣٣هـ.

=

المؤهلات كما لم يقوموا بالدور الذي قام به، كما أن أخاه عبد الصمد هو بجانبه ويرى رأيه. وإذا كان ابن أخيه أبو جعفر أكبر منه سناً إلا أنه لم يقم بأي دورٍ يؤهله باستلام الأمر - حسب رأيه -.

أما أبو جعفر فرأى أن يضرب عمه بأبي مسلم وأيهما زال فقد زال من طريقه. وأبو مسلم يرهبه الجند، ويخافونه فقد ذاع صيته، وعرفت مقدرته، ثم يطيعه الخراسانيون، ويستمع له القادة وإن من لم يسمع له، ينتهي بطريقة أو بأخرى.

استخلف أبو مسلم خالد بن إبراهيم على خراسان، وسار إلى الأنبار حيث تلقى التعليمات من الخليفة: ومنها انطلق نحو حرّان، ومعه من القادة، الحسن بن قحطبة، وحمد بن قحطبة وكان قد فارق عبد الله بن علي وفرّ منه بعد أن أراد عبد الله قتله، ومالك بن الهيثم الخزاعي، وخازم بن خزيمة. وكان الحسن بن قحطبة خليفة أبي جعفر على أرمينيا فكتب إليه أن يلحق أبا مسلم فوافاه في الموصل.

كان عبد الله بن علي يعتمد على قوته وجرأته، وشجاعة أخيه عبد الصمد، وقوة أهل الشام. ويعتمد أبو مسلم على طاعة جنده وتفانيهم، ودهائه، وخططه التي يستعملها في القتال. ولكنه كان يخشى الخليفة فهو ابن أخي عبد الله بن علي، فإن تمكّن من عبد الله بن علي أخذ الخليفة ثأره منه، وإن هُزم قتل فالموت في كلا الحالين. ويبدو أن عبد الله بن علي أخذه الخوف فطاشت حكمته إذ خاف ممن معه من أهل خراسان في الجيش فقتل عدداً منهم الأمر الذي أفقده ثقة جنده، ووصل الخبر إلى أبي

= ٣ - عيسى بن علي: ٨٣ - ١٦٤هـ.
٤ - سليمان بن علي: ٨٢ - ١٤١هـ.
٥ - إسماعيل بن علي: ٨٥ - ١٦٦هـ.
٦ - صالح بن علي: ٩٦ - ١٥١هـ.
٧ - عبد الصمد بن علي: ١٠٤ - ١٨٥هـ.
٨ - عبد الله بن علي: ١٠٣ - ١٤٧هـ.

مسلم فاتخذ حكمته، إذ دبّت الحماسة في جنده من أهل خراسان، واقتنعوا بأنهم إن استسلموا كان القتل مصيرهم، وفي الوقت نفسه أعلن لعبد الله بن علي وأخبر جنده أنه لم يأت لقتال عبد الله بن علي وإنما جاء والياً على الشام، وهذا ما جعل جنود الشام يخافون منه على أهلهم ما داموا جنداً مع عبد الله بن علي لذا رأوا السير إلى الشام، وأجبروا عبد الله بن علي على ذلك، فلما سار حلّ أبو مسلم مكانه، وكان قريباً منه، فلما عاد وجد أبا مسلم قد سبقه إلى معسكره، فنزل موضعه، واشتبك الطرفان في معارك زادت على خمسة أشهر، وكان التفوق لأهل الشام إلا أن تدبير المعركة قد جعلت الهزيمة تحلّ بعبد الله بن علي في جمادى الآخرة وفرّ إلى العراق، ومضى إلى البصرة فأمنه أخوه سليمان بن علي، أما عبد الصمد بن علي فقد نزل الكوفة وأمنه ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد. وبعث أبو جعفر مولاه أبا الخصيب يحصي ما أصابه أبو مسلم من معسكر عبد الله بن علي فغضب أبو مسلم كثيراً فأمّن الناس ولم يقتل أحداً. ولما وصل إليه أبو الخصيب أراد أن يقتله فتكلم فيه إذ قيل إنه رسول فخلّى سبيله وقال: أنا أمين على الدماء خائن في الأموال، وشتم المنصور، فرجع أبو الخصيب إلى المنصور فأخبره.

أصبح الخلاف واضحاً بين المنصور وأبي مسلم، وبعد الانتهاء من حركة عبد الله بن علي أصبح أبو مسلم الرجل القوي الوحيد في الدولة، ولكن لا يريد أن تطاله يد المنصور، كما أن المنصور قد أصبح يخافه ولا يريد أن يعود إلى خراسان فإن سار إليها واعتصم فإنه يزعج الدولة، ويمكنه أن يقوم بعمل تتجزأ به الدولة، أو يعصف بها أو بخليفتها، ويريد لذلك أن يتخذ الروية والحكمة في تصرفه معه ليصيده قبل أن يفلت منه لذا كتب إليه «إني قد وليتك مصر والشام، فهي خير لك من خراسان، فوجّه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام فتكون بقرب أمير المؤمنين فإن أحب لقاءك أتيته من قريب»[1]. فلما أتاه الكتاب غضب وقال: يوليني الشام ومصر، وخراسان

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ـ الجزء الرابع.

لي. فكتب الرسول إلى المنصور بذلك، وأقبل أبو مسلم من الجزيرة مجمعاً على الخلاف، وخرج عن وجهه يريد خراسان، فسار المنصور من الأنبار إلى المدائن وكتب إلى أبي مسلم في المسير إليه ـ كأن المنصور قد تنازل وسار شوطاً نحو أبي مسلم ليسير هو الآخر شوطاً، وقد يكون هذا السير تهديداً بأنه إن لم يأت إليه فإنه عازم على الحيلولة دون توجهه إلى خراسان ـ. فكتب إليه أبو مسلم ـ وهو بالزاب ـ: «إنه لم يبق لأمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ عدو إلا أمكنه الله منه، وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء فنحن نافرون عن قربك، حريصون على الوفاء لك ما وفيت، حريون بالسمع والطاعة غير أنها من بعيد حيث يقارنها السلامة فإن أرضاك ذلك فأنا كأحسن عبيدك، وإن أبيت إلا أن تعطي نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسي». وكذلك كتاب أبي مسلم فيه إظهار الطاعة وفي الوقت نفسه فيه التهديد على تنفيذ ما يريد وهو السير إلى خراسان إن صمم المنصور فرض رأيه، بل مستعد لنقض البيعة. ولما وصل الكتاب إلى المنصور كتب إلى أبي مسلم «قد فهمت كتابك، وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم، الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم، فإنما راحتك في انتشار نظام الجماعة، فلم سويت نفسك بهم؟ فأنت في طاعتك، ومناصحتك، واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به، وليس مع الشريطة التي أوجبت منك سمعاً ولا طاعة، وحمّل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالةً لتسكن إليها إن أصغيت، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من الباب الذي فتحه عليك؟.

ثم زادت قسوة الرسائل والكتب، وأصبحت تظهر ما تخفيه النفوس، فكتب أبو مسلم لأبي جعفر «أما بعد فإني اتخذت رجلاً إماماً ودليلاً على ما افترض الله على خلقه، وكان في محلة العلم نازلاً، وفي قرابته من رسول الله ﷺ قريباً فاستجهلني بالقرآن فحرفه عن مواضعه طمعاً في قليل

قد تعافاه الله إلى خلقه، وكان كالذي دلّى بغرور. وأمرني أن أجرد السيف، وأرفع الرحمة، ولا أقبل المعذرة، ولا أقيل العثرة ففعلت توطئة لسلطانكم حتى عرفكم الله من كان يحملكم، ثم استنقذني الله بالتوبة فإن يعف عني فقديماً عُرف به ونُسب إليه، وإن يعاقبني فبما قدمت يداي، وما ربك بظلامٍ للعبيد».

وكتب أبو جعفر لأبي مسلم: «أما بعد فإنه يرين على القلوب ويطبع عليها المعاصي، فَعِ أيها الطائش، وأفق أيها السكران، وانتبه أيها النائم، فإنك مغرور بأضغاث أحلام كاذبة، في برزخ دنيا كانت قد غرّت من كان قبلك، وسم بها سوالف القرون (هل تحسّ منهم من أحدٍ أو تسمع لهم ركزاً)، وإن الله لا يعجزه من هرب، ولا يفوته من طلب، فلا تغتر بمن معك من شيعتي وأهل دعوتي، فكأنهم قد صالوا عليك بعد أن صالوا معك، إن أنت خلعت الطاعة وفارقت الجماعة وبدا لك من الله ما لم تكن تحتسب، مهلاً مهلاً، احذر البغي أبا مسلم فإنه من بغى واعتدى تخلّى الله عنه، ونصر عليه من يصرعه لليدين والفهم، واحذر أن تكون سنةً في الذين قد خلوا من قبلك، ومثلةً لمن يأتي بعدك، فقد قامت الحجة، وأعذرت إليك، وإلى أهل طاعتي فيك. قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾».

فأجابه أبو مسلم: «أما بعد فقد قرأت كتابك فرأيتك فيه للصواب مجانباً، وعن الحق حائداً، إذ تضرب فيه الأمثال على غير أشكالها، وكتبت إلي فيه آيات منزلة للكافرين، وما يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وإنني والله ما انسلخت من آيات الله، ولكنني يا عبد الله بن محمد كنت رجلاً متأولاً فيكم من القرآن آيات أوجبت لكم بها الولاية والطاعة، فأتممت بأخوين لك من قبلك ثم بك من بعدهما، فكنت لهما شيعةً متديناً أحسبني هادياً مهتدياً، وأخطأت في التأويل، وقديماً أخطأ المتأولون، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ

﴿وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾، وإن أخاك السفاح ظهر في صورة مهدي، وكان ضالاً فأمرني أن أجرد السيف وأقتل بالظنة، وأقدم بالشبهة، وأرفع الرحمة، ولا أقيل العثرة، فوترت أهل الدنيا بطاعتكم، وتوطئة سلطانكم حتى عرفكم الله من كان جهلكم. ثم إن الله سبحانه تداركني منه بالندم، واستنقذني بالتوبة، فإن يعف عني ويصفح فإنه كان للأوابين غفوراً، وإن يعاقبني فبذنوبي، وما ربك بظلام للعبيد».

وكتب أبو جعفر إلى أبي مسلم: «أما بعد، أيها المجرم العاصي فإن أخي كان إمام هدى يدعو إلى الله على بيّنة من ربه، فأوضح لك السبيل، وحملك على المنهج السديد، فلو بأخي اقتديت لما كنت عن الحق حائداً، وعن الشيطان وأوامره صادراً، ولكنه لم يسنح لك أمران إلا كنت لأرشدهما تاركاً، ولأغواهما راكباً، تقتل قتل الفراعنة، وتبطش بطش الجبابرة، وتحكم بالجور حكم المفسدين، وتبذر المال، وتضعه في غير مواضعه فعل المسرفين، ثم من خبري أيها الفاسق أني قد وليت موسى بن كعب خراسان، وأمرته أن يقيم بنيسابور، فإن أردت خراسان لقيك بمن معه من قوادي وشيعتي، وأنا موجه للقائك أقرانك، فأجمع كيدك، وأمرك غير مسدد ولا موفق، وحسب أمير المؤمنين ومن اتبعه ونعم الوكيل».

ومع هذه القسوة في المراسلات إلا أن أبا جعفر قد اتخذ بجانبها الحنكة السياسية فيعد الأمراء ويظهر للرسل تقديره لأبي مسلم حتى حسّنوا له القدوم على الخليفة، سوى نيزك، وهو أمير أشار على أبي مسلم أن يقتل أبا جعفر ويستخلف غيره.

وبعث المنصور إليه جرير بن يزيد بن جرير بن عبد الله البجلي، في جماعة من الأمراء، وأمره أن يُكلّم أبا مسلم باللين كلاماً يقدر عليه، وأن يكون في جملة ما يكلمه به أنه يريد رفع قدرك، وعلو منزلتك، والاطلاقات لك، فإن جاء بهذا فذاك، فإن أبى، فقل: هو بريء من العباس إن شققت العصا وذهبت على وجهك ليدركنك بنفسه وليقاتلنك دون غيره، ولو خضت البحر الخضم لخاضه خلفك حتى يدركك فيقتلك أو

يموت قبل ذلك، ولا تقل له هذا حتى تيأس من رجوعه بالتي هي أحسن. فلما قدم عليه أمراء المنصور بـ (حلوان) دخلوا عليه ولاموه فيما همّ به من منابذة أمير المؤمنين، وما هو فيه من مخالفته، ورغّبوه في الرجوع إلى الطاعة، فشاور ذوي الرأي من أمرائه فكلهم نهاه عن الرجوع إليه، وأشاروا بأن يقيم في الري فتكون خراسان تحت حكمه، وجنوده طوعاً له فإن استقام له الخليفة، وإلا كان في عزٍّ ومنعة من الجند. فعند ذلك أرسل أبو مسلم إلى أمراء المنصور فقال لهم: ارجعوا إلى صاحبكم فلست ألقاه. فلما استيأسوا منه قالوا له ذلك الكلام الذي كان المنصور أمرهم به. فلما سمع ذلك كسره جداً وقال: قوموا عني الساعة.

وكان أبو مسلم قد استخلف على خراسان أبا داود إبراهيم بن خالد، فكتب إليه المنصور في غيبة أبي مسلم حين اتهم: إن ولاية خراسان لك ما بقيت، وقد وليتكها وعزلت عنها أبا مسلم. فعند ذلك كتب أبو داود إلى أبي مسلم حين بلغه ما عليه من منابذة الخليفة: إنه ليس يليق بنا منابذة خلفاء أهل بيت رسول الله ﷺ فارجع إلى إمامك سامعاً مطيعاً والسلام. فزاده ذلك كسراً أيضاً. فبعث إليهم أبو مسلم: إني سأبعث إليه أبا إسحاق وهو ممن أثق به. فبعث أبا إسحاق إلى المنصور فأكرمه ووعده بنيابة العراق إن هو ردّه. فلما رجع إليه أبو إسحاق قال له: ما وراءك؟ قال: رأيتهم معظمين لك عارفين قدرك، فغرّه ذلك، وعزم على الذهاب إلى الخليفة، فاستشار أميراً يقال له نيزك، فنهاه، فصمم على الذهاب، فلما رآه نيزك، عازماً على الذهاب تمثّل بقول الشاعر:

ما للرجال مع القضاء محالة ذهب القضاء بحيلة الأقوام

ثم قال له: احفظ عني واحدة. قال: وما هي؟ قال: إذا دخلت عليه فاقتله ثم بايع من شئت بالخلافة فإن الناس لا يخالفونك. وكتب أبو مسلم إلى المنصور يعلمه بقدومه عليه. قال أبو أيوب كاتب الرسائل: فدخلت على المنصور وهو جالس في خباء شعر جالس في مصلاه بعد العصر، وبين يديه كتاب فألقاه إلي فإذا هو كتاب أبي مسلم يعلمه بالقدوم عليه، ثم

قال الخليفة: والله لئن ملأت عيني منه لأقتلنّه. قال أبو أيوب؛ فقلت إنا لله وإنا إليه راجعون. وبتّ تلك الليلة لا يأتيني نوم، أفكر في هذه الواقعة، وقلت: إن دخل أبو مسلم خائفاً ربما يبدو منه شرّ إلى الخليفة، والمصلحة تقتضي أن يدخل آمناً ليتمكن منه الخليفة. فلما أصبحت طلبت رجلاً من الأمراء وقلت له: هل لك أن تتولى مدينة «كسكر» فإنّها مغلّة في هذه السنة؟ فقال: ومن لي بذلك؟ فقلت له فاذهب إلى أبي مسلم فتلقاه في الطريق فاطلب منه أن يوليك تلك البلد، فإن أمير المؤمنين يريد أن يوليه ما وراء بابه ويستريح لنفسه. واستأذنت المنصور له أن يذهب إلى أبي مسلم فأذن له، وقال له: سلّم عليه وقل له: إنا بالأشواق إليه. فسار إليه ذلك الرجل ـ وهو سلمة بن فلان ـ إلى أبي مسلم فأخبره باشتياق الخليفة إليه، فسرّه ذلك وانشرح، وإنما هو غرور ومكر به، فلما سمع أبو مسلم بذلك عجل السير إلى منيته، فلما قرب من المدائن أمر الخليفة القواد والأمراء أن يتلقّوه، وكان دخوله على المنصور من آخر ذلك اليوم، وقد أشار أبو أيوب على المنصور أن يؤجّل قتله في ساعته هذه إلى الغد، فقبل ذلك منه. فلما دخل أبو مسلم على المنصور من العشي أظهر له الكرامة والتعظيم، ثم قال: اذهب فأرح نفسك وادخل الحمام، فإذا كان الغد فأتني. فخرج من عنده فجاء الناس يسلمون عليه، فلما كان الغد طلب الخليفة بعض الأمراء فقال له: كيف بلائي عندك؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين لو أمرتني أن أقتل نفسي لقتلتها، قال: فكيف بك لو أمرتك بقتل أبي مسلم؟ فوجم ساعة ثم قال له أبو أيوب: ما لك لا تتكلم؟ فقال قولة ضعيفة: أقتله. ثم اختار له من عيون الحرس أربعة فحرّضهم على قتله، وقال لهم: كونوا من وراء الرواق فإذا صفقت بيدي فاخرجوا عليه فاقتلوه. ثم أرسل المنصور إلى أبي مسلم رسلاً تترى يتبع بعضها بعضاً، فأقبل أبو مسلم فدخل دار الخلافة ثم دخل على الخليفة وهو يبتسم، فلما وقف بين يديه جعل المنصور يعاتبه في الذي صنع واحدة واحدة فيعتذر عن ذلك كله[1]. ثم قال له: فلِمَ قتلت

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير الجزء العاشر.

سليمان بن كثير، وإبراهيم بن ميمون، وفلاناً وفلاناً؟ قال: لأنهم عصوني وخالفوا أمري. فغضب عند ذلك المنصور، وقال: ويحك! أنت تقتل إذا عصيت، وأنا لا أقتلك وقد عصيتني، وصفق بيديه، فتبادروا إليه ليقتلوه فضربه أحدهم فقطع حمائل سيفه، فقال: يا أمير المؤمنين استبقني لأعدائك، فقال: وأي عدو لي أعدى منك. ثم زجرهم المنصور فقطعوه قطعاً ولفوه في عباءة[1]. وكان قتله في أواخر شعبان من عام ١٣٧هـ.

ثم إن المنصور شرع في تأليف قلوب أصحاب أبي مسلم بالأعطيات، والترغيب والترهيب، والولايات، ووفّى لأبي داود إبراهيم بن خالد بولاية خراسان إذ أبقاه عليها.

ولم يكن أبو مسلم زنديقاً كما رماه بعضهم، ولكن يظهر أنه كان يخاف الله من ذنوبه، وقد ادعى التوبة فيما كان منه من سفك الدماء في إقامة الدولة العباسية ـ والله أعلم بأمره ـ. وقد روي أن عبد الله بن المبارك قد سئل عن أبي مسلم أهو خير أم الحجاج؟ فقال: لا أقول إن أبا مسلم كان خيراً من أحد، ولكن الحجاج كان شراً منه. وربما كان اتهامه ادعاء حركات الزندقة بعده بصلتها به استغلالاً لاسمه وجنسه.

كان أبو مسلم يقتل لأقلّ إشارة أو شكٍ في عدم الطاعة، أو تنفيذ الأمر، ولذا كان الناس جميعاً يخشونه، وربما كان أصدقاؤه أكثر الناس خوفاً منه نتيجة صلتهم به فأي تصرفٍ ربما يُفسّره بما يخطر على باله فتكون العاقبة القتل، وقد يكون قواده وخاصة أتباعه أكثر الناس راحةً واطمئناناً بعد قتله، حيث كانوا على خوفٍ دائم، ولذا كانوا يكثرون التملق له، ويزاود في إظهار الطاعة أصدقاؤه وأعداؤه على حدٍ سواء. ومن هنا كان قبضه على ناصية الأمر في خراسان، فالجميع يريدون الخدمة، ويتبارون في إلقاء أنفسهم أمامه لتنفيذ ما يشير إليه. تطال يده القاصي والداني، والصديق والعدو، والقريب والغريب.

---

(١) المصدر السابق.

ويقال: إن المنصور قد استدعى رؤوس الأمراء فجعل يستشيرهم في قتل أبي مسلم قبل أن يعلموا بقتله، فكلهم يشير بقتله، ومنهم من كان إذا تكلّم أسرّ كلامه خوفاً من أبي مسلم لئلا يُنقل إليه، فلما أطلعهم على قتله أفزعهم ذلك وأظهروا سروراً كثيراً.

ويقال: إنه لما عزم على قتل أبي مسلم أنشد:

إذا كنت ذا رأيٍ فكن ذا عزيمةٍ ... فإن فساد الرأي أن تترددا
ولا تمهل الأعداء يوماً لغدرةٍ ... وبادرهم أن يملكوا مثلها غدا

ولما قتله ورآه طريحاً بين يديه قال:

قد اكتنفتك خلات ثلاث ... جلبن عليك محتوم الحمام
خلافك وامتناعك من يميني ... وقودك للجماهير العظام

ومن شعره أيضاً:

المرء يأمل أن يعيـ ... ـش وطول عمرٍ قد يضرّه
تبلى بشاشته ويبـ ... ـقى بعد حلو العيش مرّه
وتخونه الأيام حتى ... لا يرى شيئاً يسرّه
كم شامتٍ بي إن هلكـ ... ـت وقائلٍ لله درّه[1]

وعندما حجّ المنصور عام ١٤٤ استخلف على الحيرة والعساكر القائد خازم بن خزيمة، ولما وصل أبو جعفر إلى المدينة استقبله الناس، ومنهم عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فسأله عن ولديه محمد وإبراهيم فحلف له بأنه لا يعرف مكانهما. وما ذاك إلا أن محمد بن عبد الله بن حسن كان قد بايعه جماعة من أهل الحجاز في أواخر دولة مروان الحمار بالخلافة وخلع مروان، وكان من جملة من بايعه على ذلك أبو جعفر المنصور، وذلك قبل تحويل الدولة إلى بني العباس، فلما صارت

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير.

الخلافة إلى أبي جعفر المنصور خاف محمد بن عبد الله بن الحسن وأخوه إبراهيم منه خوفاً شديداً.

وذلك لأن المنصور توهّم منهما أنّهما لا بدّ أن يخرجا عليه كما أرادا أن يخرجا على مروان، والذي توهّم منه المنصور وقع فيه، فذهبا هرباً في البلاد الشاسعة فصارا إلى اليمن، ثم سارا إلى الهند فاختفيا بها، فدُلّ على مكانهما فهربا إلى موضع آخر و.... ولم يستطع المنصور العثور عليهما.

وألحّ المنصور على والدهما في طلب ولديه فغضب عبد الله من ذلك وقال: والله لو كانا تحت قدمي ما دللتك عليهما، فغضب المنصور، وأمر بسجنه، كما أمر ببيع رقيقه وأمواله، فلبث في السجن ثلاث سنين، وأشاروا على المنصور بسجن بني حسن عن آخرهم فحبسهم.

وجدّ المنصور في طلب محمد وإبراهيم جداً، هذا وهما يحضران الحج في غالب السنين، ويكمنان في المدينة في غالب الأوقات، ولا يشعر بهما أحد. والمنصور يعزل نائباً عن المدينة ويولّي عليها غيره ويحرّضه على إمساكهما والتفتيش عنهما، وبذل الأموال في طلبهما... ولكن دون جدوى.

وقد عزم أتباعهما على الفتك بالمنصور في بعض السنوات بين الصفا والمروة إلا أن عبد الله بن حسن قد نهاهما لشرف البقعة، وقد اطلع المنصور على ذلك من بعض أمرائه وهو أبو العساكر خالد بن حسّان إذ كان من أتباع محمد بن عبد الله بن حسن، ومن الذين كانوا يريدون الفتك بالمنصور، إذ عذّبه المنصور حتى أقرّ بما كانوا قرروه. فقال: وما الذي صرفكم عن ذلك؟ فقال: عبد الله بن حسن نهانا عن ذلك.

وجاء محمد بن عبد الله إلى أمه فقال: يا أمه! إني قد شفقت على أبي وعمومتي، ولقد هممت أن أضع يدي في يد هؤلاء لأريح أهلي، فذهبت أمه إلى السجن فعرضت عليهم ما قال ابنها، فقالوا: لا ولا كرامة،

بل نصبر على أمره فلعل الله أن يفتح على يديه خيراً، ونحن نصبر، وفرجنا بيد الله إن شاء فرّج عنا، وإن شاء ضيّق. واتفقوا كلهم على ذلك.

ونقل المنصور آل حسن من سجن المدينة إلى سجن العراق، كما نقل معهم محمد بن عبد الله العثماني[1]، وكان أخا عبد الله بن حسن لأمه، وكانت ابنته رقية زوجةً لإبراهيم بن عبد الله بن حسن. وقد هلك أكثرهم بالسجن، وخرج من بقي منهم بعد وفاة المنصور.

ضاق محمد بن عبد الله ذرعاً بوضعه، وأضرّ به شدة الاختفاء، وإلحاح نائب المدينة في طلبه، وتأنيب أهل المدينة له في اختفائه وعدم ظهوره حتى عزم على الخروج في آخر يوم من جمادى الآخرة إذ سار مع مائتين وخمسين من أتباعه فمر على السجن فأخرج من فيه، وانطلق إلى دار الإمارة فدخلها، وقبض على أميرها رياح بن عثمان المزني فسجنه، ودانت له المدينة، وولى على الناس عثمان بن محمد بن خالد بن الزبير، وعلى القضاء عبد العزيز بن المطلب بن عبد الله المخزومي، وعلى الشرطة عثمان بن عبد الله بن عمر بن الخطاب.

ووصل الخبر إلى المنصور فندب له ابن أخيه عيسى بن موسى، وأمره أن يدعوه إلى الطاعة وله الأمان. وسار عيسى بن موسى بعشرة آلاف فارس ومعهم محمد بن أبي العباس السفاح، وحميد بن قحطبة، وجعفر بن حنظلة.

وأرسل محمد بن عبد الله إلى مكة المكرمة الحسن بن معاوية فدخلها، وهزم السري بن عبد الله صاحب مكة. كما بعث برجال إلى أهل الشام ليأخذوا له البيعة من رجالها، فمنهم من أجاب، ومنهم من امتنع وقد انهكت الحرب البلد، ومنهم من قال: خرج محمد بن عبد الله في المدينة وليس فيها مال يستعين به على استخدام الرجال.

---

(١) محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، أبو عبد الله: أمه فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب.

تحصّن محمد بن عبد الله بالمدينة وحفر خندقاً حولها، ووصل إليها عيسى بن موسى فدعا محمد ثلاثة أيام إلى الطاعة فردّه وخذّل عيسى عن محمد أصحابه بإعطائهم الأمان، وأن هدفه هو أخذ محمد إلى العراق إلى الخليفة وحده، فانفرط عقد أهل المدينة وتفرّق عن محمد كثير من أصحابه وخاصةً بعد أن قال لهم: إن جعلتكم في حلٍّ من بيعتي، فمن أحبّ منكم أن يُقيم عليها فعل، ومن أحبّ أن يتركها فعل، فتسلّل أكثرهم، ولم يبق معه إلا قلة منهم.

وأرسل عيسى بن موسى خمسمائة فارس من جيشه نزلوا على طريق مكة كي لا يتمكن محمد بن عبد الله من الهرب إلى مكة، واستمرت الرسل بين الطرفين ثلاثة أيام في بداية العشر الثاني من شهر رمضان من العام نفسه. فلما كان اليوم الثالث تضافّ الطرفان، وكان مع عيسى بن موسى أكثر من أربعة آلاف، ولم يزد أصحاب محمد على الثلاثمائة إلا قليلاً. واقتتل الفريقان، وترجّل محمد إلى الأرض وقاتل قتالاً شديداً فقضى على أكثر من سبعين رجلاً من أصحاب عيسى، وأحاط بأصحابه جيش العراق فقتلوا الكثير، واقتحموا الخندق، ولم تزل الحرب حتى صلى الناس العصر، وبعد الصلاة حميت الحرب، وتغلبت الكثرة، وفرّ عدد من أتباع محمد وبقي في قلةٍ تناقصت تدريجياً حتى بقي وحده، وما تقدّم إليه أحد إلا هلك حتى تكاثر عليه القوم، وضربه رجل بسيف فسقط على ركبتيه يحمي نفسه، ثم تقدم إلى حميد بن قحطبة وقد أثخنته الجراح وعجز عن المقاومة فحزّ رأسه، وأرسله إلى المنصور، ودفن الجثة بالبقيع. أما عيسى بن موسى فقد اتجه إلى مكة وعليها الحسن بن معاوية من قبل محمد بن عبد الله، وكان قادماً إلى المدينة نجدةً له، فلما بلغه مقتله فرّ إلى البصرة حيث قد خرج فيها إبراهيم بن عبد الله. ودخل عيسى بن موسى مكة، وقد أناب على المدينة كثير بن حصين، فاستمر بها شهراً، ثم بعث المنصور لها عبد الله بن الربيع فعاث جنده في المدينة فساداً فثار عليه السودان ففرّ من وجههم بعد أن قتلوا عدداً من جنده ثم رجع إليهم فهزموه

فانهزم منهم، وخاف أهل المدينة مغبة ذلك فكفّوا مواليهم وفرّقوهم، وعاد عبد الله بن الربيع فنكّل برؤوس السودان.

ووصل إبراهيم بن عبد الله إلى البصرة متخفياً بعد أن اتفق وأخوه على الخروج في وقتٍ واحد. وكان وصوله إليها عام ١٤٣، واختبأ بها، ثم خرج وبايعه الناس، وقد دعا لأخيه محمد، وكان عامل البصرة للمنصور هو (سفيان بن معاوية)، وكان يؤيد إبراهيم ضمناً، وبدأت أعداد تفد إلى البصرة لمبايعة إبراهيم، والمنصور يرسل من يكمن لهم بالطريق ويقتلهم، وخرج إبراهيم في غرة شهر رمضان، وحاصر الأمير سفيان بن معاوية، فطلب منه الأمان، فأمنه وسجنه مقيداً، وأراد بذلك أن يبرئ ساحته عند الخليفة، كما انتصر على جعفر، ومحمد ابني سليمان بن علي عم المنصور، وأرسل إلى الأهواز الرسل فبايعه أهلها، ودخلوا في طاعته، ثم أخذها من محمد بن الحصين بعد انتصاره عليه، كما أخذ فارس، والمدائن، وواسط، والسواد كافةً، وبلغه قتل أخيه محمد الذي لم يستمر في حركته أكثر من ٧٤ يوماً (١ رجب - ١٤ رمضان)، ونعى إلى الناس أخاه في يوم العيد، وهذا ما جعل الناس يزداد حقدهم على المنصور، لكنه في الوقت نفسه داخلهم شيء كبير من الخوف والجبن، إذ أيقنوا بالهزيمة.

كانت جنود الخليفة متفرقةً بعضها في إفريقية مع محمد بن الأشعث، وبعضها الآخر في الحجاز مع عيسى بن موسى، وبعضها في الري أرسلها مع ابنه محمد المهدي، وليس عنده سوى ألفي فارس وأهل الكوفة ينتظرون به الدائرة لينضموا إلى إبراهيم، فبعث إلى ابن أخيه عيسى بن موسى أن أقبل بمن معك، وبعث إلى ابنه أن أرسل خازم بن خزيمة إلى الأهواز ليخلّصها من إبراهيم، وقد تمكّن فعلاً من الانتصار على المغيرة عامل إبراهيم عليها. كما بعث إلى كل مدينةٍ خرجت عن طاعته قوةً تردّها.

عسكر إبراهيم خارج البصرة وجعل عليها نملة بن مرة ومعه ابنه

حسن بن إبراهيم. ثم سار هو باتجاه الكوفة، ونزل في (باخمرى)[1] وجاءه عيسى بن موسى في خمسة عشرة ألفاً وعلى مقدمته حميد بن قحطبة في ثلاثة آلاف. وكان جيش إبراهيم عظيماً إلا أن الآراء قد اختلفت فيه فمنهم من يرى الذهاب إلى الكوفة من خلف جيشها بطائفة من أهل البصرة والنيل من الخليفة وتسلم الأمر، ومنهم من يرى حفر خندقٍ، ومنهم يرى مباغتة عيسى بن موسى، ومنهم من يرى الكراريس وآخر الصفوف و.....

وتصافّ العسكران في (باخمرى)، ونشب القتال، وهزمت مقدمة عيسى بن موسى بإمرة حميد بن قحطبة وفلّوا منهزمين، وثبت عيسى بن موسى في مائة من أصحابه، وحجز الفارين نهر فعادوا، وعاد القتال من جديد فهزم جيش إبراهيم وثبت هو في خمسمائة من أتباعه، ثم قتل إبراهيم مع من قتل، وكان ذلك في ٢٥ من شهر ذي الحجة من عام١٤٥ أي أن أمره قد دام مائة وخمسة عشر يوماً (١ رمضان ـ ٢٥ ذي الحجة)، وكانت دعوته في بداية الأمر لأخيه محمد فلما جاءه نبأ مقتله دعا لنفسه.

وعندما علم المنصور بخبر مقتل إبراهيم بكى بكاءً مُرّاً، والواقع أن المنصور قد أخطأ إذ أساء التصرف مع عبد الله بن حسن حتى أحرجه فأخرج ولديه محمداً وإبراهيم، وكان مع آل حسن جباراً قاسياً، ولكنه الملك، ولا بدّ برأيه من المحافظة عليه، واللين فيه يخرجه من يديه، والقسوة تثبته، فقبح الله الدنيا وزخرفها وغرورها.

وبنى مدينة بغداد، وسكنها في صفر من عام ١٤٦ حيث تمّ البناء، وكان سورها دائرياً، وعرضه خمسون ذراعاً في أسفله، وعشرون في أعلاه، وله ثمانية أبواب، وكذا السور الداخلي، إلا أن الأبواب الداخلية والخارجية غير متقابلة: ونقل الأبواب من مدينة واسط، كما حاول نقل القصر الأبيض من المدائن إلى بغداد. كما بنى سوراً لمدينة الكوفة، وأنشأ مدينة الرافقة، ووسع المسجد الحرام عام ١٣٩.

وعندما حجّ المنصور عام ١٤٧، استخلف على الكوفة ولي عهده ابن

---

(١) باخمرى: موضع بين واسط والكوفة، وهو إلى الكوفة أقرب، وفيه قبر إبراهيم.

أخيه عيسى بن موسى، وطلب منه قتل عمه عبد الله بن علي، فحُذّر عيسى مغبة ذلك، ونُصح بألاّ يفعل، خوفاً من مطالبة المنصور له بدمه، ففعل وخبأه، ولم يقتله خوفاً من القصاص منه، ولما عاد أبو جعفر طالبه بدمه، وأراد قتله، فأحضره عندئذٍ، فسجن المنصور عمه عبد الله، ثم لم يلبث أن مات في السجن، واختلف في موته أكان قتلاً أم موتاً، أم تهدّم السجن عليه. كما خلع ابن أخيه عيسى بن موسى من ولاية العهد، وولّى مكانه ابنه محمد المهدي، وبعد مدةٍ عاد فرضي عن ابن أخيه وجعله ولياً للعهد بعد ابنه.

وذهب للحج عام ١٥٨، وما أن جاوز الكوفة حتى أحسّ بالمرض، الذي اشتد عليه فتوفي في مكة في ٧ ذي الحجة.

تزوج أبو جعفر أروى بنت منصور فولدت له محمداً (المهدي) وجعفر الأكبر، كما تزوج فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد الله فولدت له عيسى، ويعقوب، وسليمان، وتزوج امرأةً أمويةً أنجبت له فتاةً اسمها العالية، وله جعفر الأصغر من أمّ ولدٍ كرديةٍ، وصالح المسكين من أمّ ولدٍ روميةٍ، والقاسم من أمّ ولدٍ أيضاً. وتوفي ابنه جعفر الأكبر في حياة أبيه.

وحاول أبو جعفر تولية أبي حنيفة النعمان[١] القضاء فأبى.

كان المنصور في أول النهار يتصدّى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والولايات، والعزل، والنظر في مصالح العامة، فإذا صلى الظهر دخل المنزل واستراح إلى العصر، فإذا صلاّها جلس لأهل بيته، ونظر في مصالحهم الخاصة، فإذا صلى العشاء نظر في الكتب والرسائل الواردة من الآفاق، وجلس عنده من يسامره إلى ثلث الليل، ثم يقوم إلى أهله فينام في فراشه إلى الثلث الآخر، فيقوم إلى وضوئه وصلاته حتى يتفجر الصباح، ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيجلس في إيوانه[٢].

---

(١) النعمان بن ثابت: تيمي بالولاء، ولد بالكوفة عام ٨٠هـ، كان يبيع الخز ويطلب العلم في صباه، رفض القضاء أيام عمر بن هبيرة، وكذا رفضه أيام المنصور فسجنه ومات في السجن عام ١٥٠ ببغداد. وهو أحد الأئمة الأربعة في الفقه.

(٢) البداية والنهاية.

الفتوحات

توقفت الفتوحات الواسعة في عهد بني أمية منذ أواخر عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ إلا أن أعمال الغزو قد بقيت مستمرةً لم تنقطع الصوائف والشواتي عن بلاد الروم الذين بقيت دولتهم قائمة، وإن خرجت من المناطق التي كانت تسيطر عليها في بلاد الشام، وشمالي إفريقية، والأندلس، كما انسحبت من الأجزاء الشرقية من بلاد الأناضول، ودام هذا مدة أيام هشام بن عبد الملك، ثم شُغل الأمويون بأنفسهم، وتضعضعت دولتهم، فتوقفت حتى أعمال الغزو.

وشُغلت الدولة العباسية يوم قامت بتوطيد دعائمها، ويوم رأى أبو العباس أن الأمر قد استقر له أرسل الصوائف إلى بلاد الروم مستأنفاً بذلك الغزو، ومظهراً عودة القوة، وفي الوقت نفسه يريد أن يردع ملك الروم الذي استغل انشغال الدولة وقام بالهجوم على بعض الثغور، وعندما تولّى الأمر المنصور شغل في أول عهده بأحداث عمه عبد الله بن علي، وأبي مسلم الخراساني، وسنباذ، وهذا ما جعل قسطنطين ملك الروم يدخل ملاطية عنوةً، ويهدم سورها، وإن كان قد عفا عن مقاتليها إلا أنه تقدم في بلاد المسلمين. فلما استقر الوضع للمنصور بعد عام تقريباً من استلامه زمام الأمر، أمر عمه صالح بن علي أن يسير على رأس صائفةٍ فاسترجع ملاطية، وأعاد ما هدّمه قسطنطين، كما سار في الصائفة التالية عن طريق الحدث[1]، وتوغّل في بلاد الروم، كما فادى المنصور عامها بعض أسارى المسلمين.

---

(١) الحدث: ثغر إلى الغرب من ملاطية في جبال طوروس.

وبذا عاد الغزو إلى بلاد الروم بشكلٍ دائم، واشتهر من هذه الغزوات غزوة جعفر بن حنظلة البهراني عام ١٤٦، وغزوة العباس بن محمد أخي المنصور عام ١٤٩ حيث توغّل في بلاد الروم، وكان معه الحسين بن قحطبة، ومحمد بن الأشعث الذي توفي في الطريق. وغزوة عبد الوهاب بن إبراهيم بن محمد بن أخي المنصور عام ١٥١هـ، وغزوة معيوف بن يحيى الحجوري عام ١٥٣، وقد غنم المسلمون في هذه الغزوة كثيراً، ووقع في أيديهم ستة آلاف أسير، وغزوة زفر بن عاصم الهلالي عام ١٥٤، وغزوة يزيد بن أسيد السلمي عام ١٥٥. وفي الوقت الذي كانت الغزوات تنطلق إلى بلاد الروم كان أبو جعفر يهتم ببناء الثغور كي يرابط فيها المسلمون، وينطلقوا منها مجاهدين فقد بنيت (المصيصة)[١] عام ١٤١ على يد جبريل بن يحيى الخراساني.

أما على الجبهة الشرقية فقد أمر أبو جعفر ابنه المهدي أن يغزو طبرستان، فقام بالغزو، ودخل المنطقة عام ١٤١، إلا أن صاحب طبرستان قد عاد ونقض العهد في العام التالي، وقتل عدداً من المسلمين، فسار إليه خازم بن خزيمة على رأس قوةٍ، فتحصّن في حصنٍ منيعٍ، صعُب على المسلمين اقتحامه عنوةً، فاحتالوا عليه، وسبيت يومئذٍ أم إبراهيم بن المهدي، وأم منصور بن المهدي، وكانتا من بنات الملوك الحسان اللتين تزوجهما محمد المهدي بن المنصور.

وقتل أهل الديلم عدداً من المسلمين عام ١٤٣ فغزاهم المنصور، كما سار إليهم في العام التالي محمد بن أبي العباس السفاح عن أمر عمه، إذ لا يمكن أن يصاب المسلمون بأذى في بلاد ويسكت إخوانهم على ذلك إذ يؤدي إلى توقف الدعوة وعدم انتشار الإسلام، ولا بدّ من أن يشعر المسلمون في أية بقعةٍ بالعزّة والقوة، وأن وراءهم أمة قوية، وإن ذلك أدعى لأن يكونوا مهيبين، ويقبل الناس إليهم، ويشعروا بعزّة المؤمنين.

---

(١) المصيصة: في منطقة كيليكيا على نهر جيحان، وهي كثيرة البساتين التي تروى من النهر.

وخرج الترك والخزر بباب الأبواب[1] عام ١٤٥ وقتلوا جماعةً من المسلمين في أرمينيا فسار إليهم المسلمون وأدّبوهم.

وأغار اشترخان خوارزم في جيش من الترك على أرمينيا، ودخل تفليس[2]، وقتل كثيراً من المسلمين ومن أهل الذمة، وأسر كثيرين آخرين فأرسل له المنصور جيشاً بقيادة حرب بن عبد الله الراوندي فقتل في بعض المعارك وذلك عام ١٤٧. وأسرع حميد بن قحطبة إلى تفليس فوجد الترك قد انسحبوا منها.

كما فتحت كشمير عام ١٥٧ أيام ولاية هشام بن عمرو التغلبي، وكانت قد نقضت العهد.

* * *

(١) باب الأبواب: في بلاد الداغستان على بحر الخزر حيث تضيق السهول الساحلية باقتراب جبال القوقاز من البحر، وتسمى الآن دربنت.

(٢) تفليس: عاصمة جورجيا الآن إحدى جمهوريات الإمبراطورية الروسية.

الولايات*

تعرّضت كثير من الولايات لحركات عنيفة، وكاد بعضها يعصف بالحكم قبل أن يتمكّن، وكانت معالجة المنصور لها على درجةٍ من الحكمة والحنكة والحزم والدهاء الأمر الذي قضى عليها قبل أن يستفحل أمرها، ويمتد لهيبها إلى ولايات أخرى.

١ ـ الشام:

قام فيها عبد الله بن علي مذ تولّى ابن أخيه أبو جعفر الخلافة حيث كان يطمع فيها لنفسه، إذ هو الذي وطّد الحكم للعباسيين، وقضى على خصومهم، ومهّد الطريق للحكم، وكان سيفه البتار. وسار معه أهل الشام بل لم يستطيعوا مخالفته إذ أخذهم أخذ الجبابرة، وحزمهم حزم السلمة، ولكن ما أن انتهى أمره حتى هدأت الولاية، وانطلق أهلها للغزو، والمرابطة في الثغور، واستمر ذلك مدة أيام المنصور.

٢ ـ الكوفة:

كان عيسى بن موسى والي هذه الإمارة، وفي عام ١٤١ خرجت فيها جماعة تدعى الراوندية، وأصلهم من خراسان، وقد ادعوا ألوهية المنصور، وقالوا بتناسخ الأرواح، وأن روح آدم، عليه السلام، قد انتقلت إلى عثمان بن نهيك وحلّت به، وأن الهيثم بن معاوية هو جبرائيل. وقد جاءوا إلى قصر الخليفة، وأخذوا يطوفون حوله. ولكن المنصور أبادهم جميعاً وانتهى أمرهم. كما تولى أمر هذه الولاية محمد بن سليمان، وعزل عنها عام ١٥٥ إذ تولاّها عمر بن زهير.

٣ ـ البصرة:

كان سليمان بن علي أمير البصرة، لكن المنصور قد عزله لما علم أن أخاه عبد الله بن علي مختبئاً عنده، وولّى مكانه سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الذي بعث بعمه عبد الله بن علي إليه فسُجن. ويبدو أن سفيان كان ممالئاً لإبراهيم بن عبد الله بن الحسن والذي ظهر قبل موت أخيه، وبايعته الأهواز، كما أخذ فارس، وواسط، والمدائن، والسواد كافةً. غير أن خازم بن خزيمة قد سار في أربعة آلاف مقاتل إلى الأهواز فامتلكها، وجاء عيسى بن موسى من الحجاز فالتقى بإبراهيم وهو في طريقه إلى الكوفة، وكان حميد بن قحطبة على مقدمة عيسى ولكنه هزم، وثبت عيسى بن موسى، كما ثبت إبراهيم بن عبد الله، وتخلى عنه عدد من أصحابه فقتل هو مع من قتل من أنصاره، واستتب الوضع للمنصور.

عُزل سفيان عن البصرة وتولّى أمرها مسلم بن قتيبة ثم عزل بعد عام بمجيء محمد بن سليمان بن علي، ولكن أصبح استبدال ولاة البصرة أمراً عادياً كل عام تقريباً إذ تتابع عليها جابر بن زيد الكلابي، ويزيد بن منصور، وعبد الملك بن أيوب بن ظبيان، والهيثم بن معاوية.

٤ ـ الجزيرة:

لم يحدث في الجزيرة من أمر بعد حركة عبد الله بن علي سوى خروج ملبد بن حرملة الشيباني في ألف من الخوارج، ولكن انتهى أمرهم سريعاً، واشتهر من ولاة الجزيرة في تلك الحقبة حميد بن قحطبة، والعباس بن محمد أخو الخليفة المنصور.

٥ ـ الموصل:

لم يحدث في الموصل شيء، وكان أميرها إسماعيل بن علي، ثم موسى بن كعب الذي عزله المنصور وولى عليها خالد بن برمك.

٦ ـ خراسان:

كان أبو داود خالد بن إبراهيم نائب أبي مسلم على خراسان، إلا أن المنصور قد أطمعه في ولاية خراسان إن ردّ أبا مسلم عنها حين همّ بالعودة إليها، وانتهى أمر أبي مسلم، وبقي أبو داود والياً على خراسان لكن لم يلبث أن خرج فيها سنباذ مطالباً بدم أبي مسلم، وكان سنباذ مجوسياً فدانت له خراسان، كما أخذ قومس وأصبهان، فبعث إليه أبو جعفر قوة قوامها عشرة آلاف فارس بإمرة جهور بن مرار العجلي فانتصر على سنباذ وقتله، ولم تزد مدة خروجه على سبعين يوماً. غير أن جهور قد أغرته نفسه بانتصاره هذا فخلع الطاعة عام ١٣٨، فأرسل له المنصور محمد بن الأشعث الخزاعي فهزمه وقتله.

وثارت جماعة في خراسان على أميرها أبي داود خالد بن إبراهيم وحاصرته في داره فوقع ومات، وخلفه صاحب شرطته عاصم حتى وصل إلى مرو أميرها الجديد عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي، ولم يكمل عامه حيث عزل، وتولى أمر خراسان بعده محمد المهدي بن الخليفة المنصور فلم يقبل عبد الجبار أمر العزل وإنما خلع الطاعة، فسار إليه المهدي وعلى مقدمته خازم بن خزيمة، ففرّ عبد الجبار ولكن قُبض عليه، وأُرسل إلى المنصور فقتله.

وخرج عام ١٥٠ رجل كافر اسمه استاذسيس فعاث فساداً، واستحوذ على أكثر خراسان، فبعث المنصور لابنه المهدي أن يرسل له خازم بن خزيمة، فبعثه، فقضى عليه. واشتهر من ولاة خراسان حميد بن قحطبة الطائي عام ١٥٢.

٧ ـ السند:

خلع عيينة بن موسى بن كعب الطاعة عام ١٤٢ فأرسل له المنصور قوة بإمرة عمرو بن حفص بن أبي صفرة، فتمكّن عمرو من قهر عيينة، وتسلم ولاية السند والهند، حتى استبدل عام ١٥٧ بهشام بن عمرو التغلبي.

وأعطيت إمرة سجستان لمعن بن زائدة عام ١٥١ غير أن الخوارج قد قتلوه في العام التالي.

٨ ـ الحجاز:

كان والي الحجاز زياد بن عبد الله بن عبيد الله بن عبد المدان خال السفاح، فعزله المنصور عام ١٤١، وأعطى الولاية لمحمد بن خالد القسري حتى عام ١٤٤ حيث خلفه رياح بن عثمان المزني الذي حدثت في أيامه حركة محمد بن عبد الله بن حسن، وقضى عيسى بن موسى على هذه الحركة وأناب على المدينة كثير بن حصين ولم يبق فيها سوى شهر واحد إذ أرسل المنصور والياً على المدينة عبد الله بن الربيع، وثار السودان عليه ففر من وجههم مرتين، ثم ردّه أهل المدينة بعد أن ردعوا مواليهم خوفاً من النتيجة.

عُزل عبد الله بن الربيع عام ١٤٦، وأعطيت لجعفر بن سليمان بن علي الذي بقي في الإمارة حتى عام ١٥٠ حتى خلفه عليها الحسن بن زيد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب حتى عام ١٥٥ حيث أعطيت إلى عبد الصمد بن علي، أما بقية إمارات الحجاز فقد كان أمراؤها تختلف مناطقهم بين مدةٍ وأخرى، فقد تسلّم السري بن عبد الله مكة والطائف، ثم خلفه عبد الصمد بن علي، ثم محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي. وتسلّم معن بن زائدة اليمن عام ١٤١، ويزيد بن منصور عام ١٥٣، وتسلّم قثم بن العباس بن عبد الله بن العباس إمارة البحرين.

٩ ـ مصر:

كانت مصر هادئة كعادتها، وتوالى عليها أمراء عدة أيام المنصور، صالح بن علي، وموسى بن كعب، ومحمد بن الأشعث، ونوفل بن الفرات، وحميد بن قحطبة، ويزيد بن حاتم، ومحمد بن سعيد.

١٠ ـ إفريقية:

ربما كانت ولاية إفريقية أكثر الإمارات مشكلات وذلك بسبب الخوارج الذين نشطوا في حركاتهم فيها، ولبعدها عن مركز الخلافة، ولانشغال الدولة عنها، وهذا ما مكّن للخوارج فيها، كما مَكّن لعبد الرحمن الداخل في الأندلس.

كانت إفريقية في صراع بين الخوارج الأباضية والصفرية وأصحاب النفوذ من آل عقبة بن نافع.

وقامت دولة للخوارج الصفرية في منطقة تافيللت المحصنة طبيعياً إذ أنها على هامش الصحراء وفيها المياه، فكانت دولة صحراوية اقتصرت على التجارة، وقد أسسها أبو القاسم سمكو بن واسول الذي عمل هناك راعياً، واتصل مع الرعاة، وأثر فيهم، فلما وصل عددهم إلى أربعين شخصاً بايعوا عيسى بن يزيد الأسود وذلك عام ١٤٠، ثم دعا أبو القاسم قومه مكناسه إلى مبايعة عيسى وطاعته، وبنيت مدينة سجلماسة[١] وغرست أشجار النخيل والعنب، وزرعت الخضراوات، وكانت مياه نهر زيز أساساً لهذه المشروعات، واتجه الصفرية نحو هذه المدينة فزاد عدد سكانها، وكان قوام

---

(١) سِجلماسة: مدينة في جنوب المغرب في طرف بلاد السودان، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب، وهي في منقطع جبل دَرَن، وهي في وسط رمال، كرمال زَرُود ويتصل بها من شماليها جَدَد من الأرض، يمر بها نهر كبير يخاض قد غرسوا عليه بساتين ونخيلاً مد البصر، وعلى أربعة فراسخ منها رستاق يقال له تيومتين على نهرها الجاري فيه من الأعناب الشديد الحلاوة ما لا يحد، وفيه ستة عشر صنفاً من التمر ما بين عجوة ودقل، وأكثر أقوات أهل سجلماسة من التمر، وغلتهم قليلة، ولنسائهم يد صناع في غزل الصوف، فهن يعملن منه كل حسن عجيب بديع من الأزر تفوق القصب الذي بمصر، يبلغ ثمن الإزار خمسة وثلاثين ديناراً وأكثر كأرفع ما يكون من القصب الذي بمصر، ويعملون منها غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلك ويصبغونها بأنواع الأصباغ، وبين سجلماسة ودرعة أربعة أيام، وأهل هذه المدينة من أغنى الناس وأكثرهم مالاً لأنها على طريق من يريد غانة التي هي معدن الذهب، ولأهلها جرأة على دخولها. «معجم البلدان».

أهلها من السودان، والأندلس، والبربر، والعرب وفئات مختلفة تتبنى كلها المذهب الصفري من الخوارج.

ونُحّي عيسى بن يزيد عن الإمامة، ونُصّب أبو القاسم سمكو، ثم قتل عيسى عام ١٥٥، وبقي أبو القاسم إماماً حتى عام ١٦٨، وأصبحت الإمامة بعده في أسرته خلافاً للرأي الخارجي في الإمامة بعدم الوراثة.

سالم أبو القاسم سمكو الولاة العباسيين في القيروان، إذ لم ير جدوى من هذه الحركات التي قامت ما دامت دون المستوى المطلوب حتى عده ابن خلدون تابعاً للدولة العباسية، وقد دعا للمنصور والمهدي، وإن هذه المهادنة قد جعلت الدولة الخارجية تستمر وتستقر.

١١ ـ الأندلس:

لم يعلن عبد الرحمن الداخل نفسه خليفة، إذ يعلم أنه لا يصح أن يكون في بلاد الإسلام إلا خليفة واحد، ومن هذا المنطلق فقد كان يدعو للخليفة من العباسيين بصفته أمير المؤمنين ويقيم للناس أميراً في موسم الحج، واستمر على هذه الحالة مدة حتى حدثت عنده أمور منها:

حاول يوسف بن عبد الرحمن الفهري استرداد نفوذه وذلك برأي الصميل بن حاتم، ففرّ يوسف من قرطبة إلى ماردة عام ١٤٢، وجمع جيشاً حوله، وأعلن العصيان، وأراد غزو قرطبة، فسار إليه عبد الرحمن وتمكّن من هزيمته وقتله، أما الصميل بن حاتم فقد سجن في قرطبة ومات في سجنه مسموماً.

وعمل المنصور على القضاء على عبد الرحمن فشجع العلاء بن مغيث الجذامي في باجة[١] على مناهضة عبد الرحمن، والدعوة للعباسيين هناك، وأرسل له الراية العباسية. ولما تقوّى العلاء قام بالثورة عام ١٤٧، فسار

---

(١) باجة: مدينة في الجزء الجنوبي من البرتغال اليوم.

إليه عبد الرحمن غير أنه قد هزم أمام العلاء فسار إلى قرمونة[1] شرق اشبيلية فتبعه العلاء وحاصره فيها مدة شهرين، لم يجد عبد الرحمن بعدها بُدّاً من القيام بعمليةٍ فدائيةٍ فخرج على خصمه بجرأة مع سبعمائة من أتباعه على حين كان خصومه لا يحصى عددهم، فتمكّن من فك الحصار المضروب عليه ومداهمة العدو وقتل العلاء وأرسل رأسه محنطاً إلى المنصور أثناء الموسم حيث وضع أمامه، فكفّ المنصور بعدها عن العمل في الأندلس. وسمى عبد الرحمن الداخل باسم صقر قريش.

عند ذلك قطع عبد الرحمن الخطبة للعباسيين ولكن لم يعلن نفسه خليفة إذ بقي متقيداً بالفكرة الإسلامية، ولم يحب أن يبدأ بالمخالفة رغم ما أقدم عليه المنصور وحتى المهدي من بعده.

* * *

(١) قرمونة: بلدة في الأندلس، واسمها الصحيح قرمونية.

الخوارج

نشط الخوارج بصورةٍ عامةٍ أيام المنصور، وإن كانوا قد فشلوا في المشرق إلا أنهم قد نجحوا في بلاد المغرب إلى حدٍّ ما، فثوراتهم كانت محدودةً في المشرق حيث يخرج الزعيم في جماعةٍ معدودةٍ في منطقة ويتمكن من هزيمة جيوش الخليفة لكن لا يلبث أن يهزم إذ تأتي النجدات لجيوش الدولة فيفرّ من منطقةٍ إلى أخرى حتى يقضي عليه، وربما كانت نشاطاتهم في المشرق كأنها إشغال للدولة عن أمور المغرب كي يتمكّنوا فيها هناك.

خرج ملبد بن حرملة الشيباني عام ١٣٧ بالجزيرة في ألف مقاتل من الخوارج، وهزم قوات الخليفة فسار إليه حميد بن قحطبة إلا أنه هُزم وتحصّن، واضطر أن يصالح ملبداً على دفع مائة ألف على أن يقلع عنه ففعل، وسار إليه خازم بن خزيمة عام ١٣٨ فانتصر عليه وقتله.

واستطاع عاصم بن جميل أن يهزم حبيب بن عبد الرحمن الذي فرّ إلى قابس، وهذا ما فسح المجال لعاصم من دخول القيروان عام ١٣٩، فولى عليها عبد الملك بن أبي الجعد، وسار هو خلف حبيب الذي فرّ إلى أوراس حيث ألّف هناك قوةً تمكّنت من هزيمة الصفرية، وقتل عاصم. وسار حبيب نحو القيروان بعد انتصاره هذا غير أنه هزم أمام عبد الملك بن أبي الجعد وقتل في المعركة، وهكذا دانت المغرب كلها للصفرية.

أما الأباضية فقد رجع بعض كبارهم من المشرق عام ١٤٠، وركّزوا جهودهم في المغرب الأدنى، حيث كثُر أتباعهم، وبايعوا أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الذي استطاع أن يستولي على طرابلس، ثم سار إلى قابس فأخذها، واتجه إلى القيروان فالتقى بعبد الملك بن أبي

الجعد خارجها فهزمه، وقتله، واستولى على القيروان عام ١٤١، وولى عليها عبد الرحمن بن رستم.

أرسل المنصور إلى إفريقية محمد بن الأشعث، فبعث طلائعه بقيادة أبي الأحوص بن عمرو بن الأحوص فأسرع إليه أبو الخطاب والتقى قرب سرت فهزمه، وانطلق محمد بن الأشعث بنفسه نحو أبي الخطاب فالتقى به عام ١٤٤ في (تاورغا)[١] فانتصر عليه وقتله، وسار نحو القيروان فأخذها وهكذا وطّد محمد بن الأشعث الخزاعي نفوذ الدولة العباسية في المغرب الأدنى، وأزال الأباضيين عن القيروان.

بعد أن هزمت الصفرية في المغرب الأدنى اتجه أنصارها نحو المغرب الأوسط والأقصى، واستطاع أبو قره من تأسيس دولةٍ في ناحية تلمسان، كما استطاع (أبو القاسم سمكو بن واسول) من إرساء قواعد دولة بني مدرار في سجلماسة.

أرسل محمد بن الأشعث جيشاً لمحاربة أبي قره الصفري في تلمسان في المغرب الأوسط بإمرة الأغلب بن سالم التميمي وذلك عام ١٤٨، غير أن الجند قد ثاروا على ابن الأشعث فما كان من المنصور إلا أن أرسل بولاية الأغلب على إفريقية. وسار الأغلب إلى المغرب الأوسط فالتقى بالزاب بجيش أبي قره فانسحب أبو قره إلى تلمسان فلاحقه الأغلب وفي نيته مواصلة السير إلى المغرب الأقصى فأحسّ الجنود بطول المفازة وبعدت عليهم الشقة فثاروا على الأغلب وقتلوه عام ١٥٠.

وصل عمرو بن حفص المهلبي والياً على القيروان بعد أن عزل عن السند، واسترد في طريقه طرابلس وكان قد دخلها الخارجي أبو حاتم الملزوزي عام ١٥٠، وما استقر عمرو بن حفص في القيروان حتى جدّ السير نحو المغرب الأوسط لمداهمة الصفرية، واستقر في الزاب في (طبنة)، وسار خلفه أبو حاتم وحاصر القيروان عام ١٥٣، غير أنه ترك

---

(١) تاورغا: في ليبيا بين طرابلس وسرت على ساحل البحر.

حصارها وتبع عمرو بن حفص الذي تحصّن في (طبنة)، وكان الخوارج قد جاءوه من كل جهة فقد تبعته الأباضية بقيادة أبي حاتم وعبد الرحمن بن رستم، وجاءته الصفرية بقيادة أبي قره، وعبد الملك بن سكرديد، وجرير بن مسعود.

انسحب أبو قره بالصفرية من حصار (طبنة) فاستطاع عمرو بن حفص عندها من هزيمة أبي حاتم وعبد الرحمن بن رستم والأباضية معهما، وسارت الأباضية نحو القيروان فسبقها عمرو، ودخل القيروان، فحاصرته الأباضية فيها، وقتل عمرو في الحصار، وتولى بعده قيادة الجند أخوه لأمه جميل بن صخر، فعقد أبو حاتم زعيم الأباضية معه صلحاً دخل إثره القيروان في أواخر عام ١٥٤.

وكان عمرو بن حفص قبل أن يغادر (طبنة) قد أرسل (المهنأ بن المخارق بن غفار الطائي) لملاحقة أبي قره فتبعه وهزمه.

وجاء يزيد بن حاتم[١] والياً على إفريقة عام ١٥٥، وأسرع أبو حاتم زعيم الأباضية من القيروان لملاقاته، وانتصر على طلائع جيشه لكنه هزم أمامه فاعتصم بجبل نفوسة. ودخل يزيد بن حاتم القيروان، وثار الأباضيون تارةً أخرى بإمرة أبي يحيى بن فوناس الذي تزعم قبيلة هوارة لكن قضي على هذه الثورة بسرعة وقتل قائدها وعامة أصحابه وذلك عام ١٥٦.

وكما انتصر يزيد بن حاتم على الأباضية في المغرب الأدنى كذلك انتصر على الصفرية وبطش بها في المغرب الأوسط، وكانت دعامته في ذلك ابنه المهلب، والعلاء بن سعيد. وهكذا استطاع يزيد بن حاتم أن يفرض نفوذ العباسيين في المغرب قبل نهاية حكم المنصور، وبقي يزيد بن حاتم في المغرب حتى عام ١٧٠.

---

(١) يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة.

-٣-

المهدي

محمد بن عبد الله

١٥٨ - ١٦٩هـ

ولد محمد المهدي بن المنصور عام ١٢٦ ببلدة إيذج[١]، وأمه أروى بنت منصور بن عبد الله الحميري، وتُكنّى بأم منصور كما تُكنّى بأم موسى، وكان أسمر طويلاً، جعد الشعر، على إحدى عينيه نكتة بيضاء.

بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المنصور في ذي الحجة من عام ١٥٨، وعندما بلغه نبأ وفاة والده كتم الخبر يومين، ثم نادى في الناس الصلاة جامعة فاجتمع الناس فخطبهم فقال: «إن أمير المؤمنين عبد دُعي فأجاب، وأُمر فأطاع، واغرورقت عيناه، فقال: قد بكى رسول الله ﷺ عند فراق الأحبة، ولقد فارقت عظيماً، وقُلّدت جسيماً، فعند الله أحتسب أمير المؤمنين، وبه أستعين على خلافة المسلمين، أيها الناس أسرّوا مثل ما تعلنون من طاعتنا، نهبكم العافية، وتحمدوا العاقبة، وأخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم، وطوى الإصر عنكم، وأهال عليكم السلامة من حيث رآه الله مقدماً ذلك، والله لأفنين عمري بين عقوبتكم والإحسان إليكم».

وكان جواداً كريماً محبباً إلى الرعية فمذ تولّى الأمر أخذ في ردّ المظالم، وأخرج ما جمع أبوه وفرّقه بين الناس، ولم يعط أهله ومواليه.

وأول من عزّاه بأبيه وهنّأه بالخلافة أبو دلامة فقال:

عـيـنـاي واحـدة تـرى مـسـرورةً بـأمـيـرهـا جـذلـى وأخـرى تـذرف

---

(١) إيذج: كورة وبلد بين خوزستان وأصبهان، وهي وسط الجبال، تقوم الزراعة فيها على الأمطار، ويشرب أهلها من عين سليمان.

تبكي، وتضحك تارةً ويسوؤها ... ما أنكرت، ويسرّها ما تعرف
فيسوؤها موت الخليفة محرماً ... ويسرّها أن قام هذا الأرأف
ما إن رأيت كما رأيت ولا أرى ... شعراً أسرحه وآخر ينتف
هلك الخليفة يا لدين محمدٍ ... وأتاكم من بعده من يخلف
أهدى لهذا الله فضل خلافةٍ ... ولذاك جنّات النعيم تزخرف

أطلق السجناء إلاّ من كان مسجوناً على دم، أو فسادٍ في الأرض، أو عنده حق لأحد.

ومن أخبار جوده أن امرأةً وقفت للمهدي فقالت: يا عصبة رسول الله اقض حاجتي. فقال المهدي: ما سمعتها من أحدٍ غيرها، اقضوا حاجتها واعطوها عشرة آلاف درهم. ودخل ابن الخياط على المهدي فامتدحه فأمر له بخمسين ألف درهم ففرّقها ابن الخياط وأنشأ يقول:

أخذت بكفي كفه أبتغي الغنى ... ولم أدر أن الجود من كفه يعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى ... أفدت وأعداني فبددت ما عندي

وبلغ ذلك المهدي فأعطاه بدل كل درهم ديناراً.

واشتهر عنه أنه كان يحب اللعب بالحمام والسباق بينها، فدخل عليه جماعة من المحدثين فيهم غياث بن إبراهيم[1] فحدّثه بحديث أبي هريرة: «لا سبق إلا في خفّ أو نعل أو حافر». وزاد في الحديث «أو جناح» فأمر له بعشرة آلاف. ولما خرج قال: والله إني لأعلم أن غياثاً كذب على رسول الله ﷺ. ثم أمر بالحمام فذبح، ولم يذكر غياثاً بعدها.

بنى مسجد الرصافة عام ١٥٩، ووسّع المسجد الحرام عام ١٦٧.

---

(١) غياث بن إبراهيم كذاب: قال عنه أحمد بن حنبل: ترك الناس حديثه. وقال يحيى بن معين: ليس بثقة. وقال الجوزجاني: سمعت أكثر من واحد يقول: إنه يضع الحديث. وقال البخاري: تركوه.

وولّى القضاء أبا يوسف[1] عام ١٦٦، وتتبع الزنادقة وعمل على إبادتهم.

بايع لولديه موسى الهادي عام ١٦٠ ثم لهارون الرشيد، وذلك بعد أن أكره ابن عمه عيسى بن موسى على خلع نفسه.

وعرف بسماحة الأخلاق، وقد ذهب مرةً إلى البصرة فخرج ليصلي بالناس فجاء أعرابي فقال: يا أمير المؤمنين مُر هؤلاء فلينتظروني حتى أتوضأ ـ يعني المؤذنين ـ فأمرهم بانتظاره، ووقف المهدي في المحراب لم يُكبّر حتى قيل له هذا الأعرابي قد جاء. فكبّر فتعجّب الناس من سماحة أخلاقه.

تزوج عام ١٥٩ ابنة عمه أم عبد الله بنت صالح بن علي، كما تزوج وهو في المدينة رقية بنت عمرو العثمانية، وأعتق جاريته الخيزران وتزوج بها، وهي أم ولديه الهادي والرشيد، وكان مفتتناً بها.

وعزم في أواخر عهده أن يقدّم ابنه الرشيد في الخلافة على الهادي، وكان الهادي بجرجان فدعاه فلم يُلب فسار إليه بنفسه، وبينما هو في ماسبذان إذ أدركته الوفاة في ٢٢ محرم من عام ١٦٩ فكانت خلافته عشر سنوات وشهر ونصف الشهر. واختلف في سبب موته أكان بالسم غلطاً من إحدى جواريه أم بإصابة ظهره بجانب خربةٍ دخل فيها جواده.

---

(١) أبو يوسف: يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري، الكوفي، البغدادي: صاحب أبي حنيفة وتلميذه، وأول من نشر مذهبه. كان فقيهاً علامة، من حفاظ الحديث، لزم أبا حنيفة فغلب عليه الرأي، ولي القضاء أيام المهدي، والهادي، والرشيد، ولد بالكوفة عام ١١٣، وتوفي ببغداد وهو على القضاء عام ١٨٢.

الغزو والفتح

منذ أن تولّى المهدي الخلافة بعث العباس بن محمد على رأس جيش إلى بلاد الروم، كما أرسل جيشاً آخر إلى بلاد الهند. وكان متجهاً بصورةٍ عامة إلى بلاد الروم حيث ما تنفك الصوائف تنطلق من الثغور فتغير على أرض الروم، وإن كانت لم تحدث فتوح واسعة أو تُضمّ مدن كبيرة إلى بلاد الإسلام بصورةٍ دائمةٍ إلا أن الانتصارات كانت كبيرةً والغنائم كثيرة، وأعداد الأسرى من الروم وفيرة. وكانت الثغور هي نفسها على ذرا جبال طوروس وتمتد من طرسوس على ساحل البحر المتوسط نحو الشمال الشرقي حتى أرضروم.

وتوغل الحسن بن قحطبة عام ١٦٢ في بلاد الروم، وأحرز انتصاراً واضحاً، ولكن كثرت الفتوح بعد ذلك حيث تولى ابنه الرشيد أمرها إذ سار على رأس قوة من بلاد خراسان ومعه خالد بن برمك، ونال من الأعداء نيلاً عظيماً. وأصبح بعد ذلك والياً على الشطر الغربي من الدولة الإسلامية من الأنبار حتى الأندلس.

وسار عبد الكبير بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب على رأس قوةٍ إلى بلاد الروم عام ١٦٤، وأصاب غنائم كثيرةً، وأسر من الروم الكثير أيضاً. وبعد عام سار الرشيد ووصل إلى سواحل بحر مرمرة، وصالح أغسطة امرأة ليون، وكانت عاهلة الروم. واستمرت الهدنة سنتان ثم نقض الروم العهد عام ١٦٨ فسار إليهم والي الجزيرة وهو يزيد بن بدر بن البطال فغنم وظفر.

الحركات

لقد وطّد المنصور لابنه الأوضاع، وأخضع له الرقاب، لذا لم تقم في أيام المهدي حركات واسعة، ولم ينشط منافسوه سواء من الطالبيين أم من غيرهم، ومع هذا فقد قامت حركات محلية بسيطة منها:

١ ـ خروج يوسف بن إبراهيم المعروف بالبرم، وكان خروجه بخراسان عام ١٦٠ فسار إليه يزيد بن مزيد فتمكّن منه وأسره، وأرسله إلى المهدي مع كبار أنصاره فقُتلوا جميعاً.

٢ ـ وخروج المقنع في قرية من قرى مرو حاضرة خراسان، واسمه عطاء، وكان يقول بتناسخ الأرواح، وأن الله قد ظهر في صورة آدم لذا سجدت له الملائكة، ثم ظهر في صورة نوح، ثم في صور الأنبياء الواحد بعد الآخر حتى كان في صورة أبي مسلم وأخيراً صار إليه لذا فقد ادعى الربوبية. وكان أعور قبيح المنظر لذا فقد اتخذ له وجهاً من ذهب. وكان خروجه عام ١٦١ فأرسل له المهدي عدداً من القادة، ثم أفرد له سعيد الحرشي فلجأ المقنع إلى قلعة (كَشّ)[1]، وكان قد جمع فيها الطعام، وحصّنها، فلما اشتد عليه الحصار وشعر بالغلبة احتسى السم هو وأهله فماتوا جميعاً وذلك عام ١٦٣هـ.

٣ ـ وخروج عبد السلام بن هاشم اليشكري بالجزيرة، وقوي أمره، وأحرز النصر على عددٍ من قادة المهدي وجيوشه، وسار إليه أخيراً

---

(١) كشّ: مدينة في بلاد ما وراء النهر، وهي المقصودة هنا، كما توجد بلدة على جبل بالقرب من جرجان على بعد ثلاثة فراسخ تحمل الاسم نفسه، وثالثة من قرى أصبهان.

شبيب بن واج المروروذي ولكنه هزم أمامه أيضاً، فلما جاء دعم إلى شبيب انتصر وفرّ عبد السلام أمامه إلى قنسرين فتبعه، وتمكّن من قتله فيها عام ١٦٢، وعبد السلام هذا من الخوارج الصفرية.

٤ ـ وخروج دحية بن مصعب بن الإصبع بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم عام ١٦٥ وتغلّب على أكثر بلاد الصعيد، وكاد نفوذ الدولة العباسية ينتهي من الصعيد، وهذا ما جعل الخليفة المهدي يغضب على واليه في مصر إبراهيم بن صالح بن علي العباسي ويعزله ويرسل مكانه موسى بن مصعب بن الربيع الخثعمي عام ١٦٧، ولكنه فشل كذلك في القضاء على ثورة دحية، وقسا على السكان فسلّمه الجند، وتخلوا عنه للثائرين فقتل، وجاء بعده حسام بن عمرو المعافري، وقد فشل كذلك. واستمرت الثورة حتى أيام الهادي.

* * *

الخوارج

بقيت دولة الخوارج في سجلماسة، وتوفي عام ١٦٨ أبو القاسم سمكو وخلفه ابنه إلياس الذي عرف باسم «أبو الوزير». وبقي على سيرة أبيه في موادعة ولاة القيروان.

كما قامت دولة للخوارج من الأباضية في تاهرت(١) إذ أسسوا هذه المدينة عام ١٦١، وأصبح عبد الرحمن بن رستم(٢) إماماً لهذه الدولة. وقد هادن ولاة القيروان أيضاً مثل حكام الدولة الصفرية في سجلماسة.

---

(١) تَاهَرْت: اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب، يقال لإحداهما تاهرت القديمة وللأخرى تاهرت المحدثة. بينهما وبين المسيلة ست مراحل، وهي بين تلمسان وقلعة بني حماد. وهي مدينة مسورة لها أربعة أبواب: باب الصفا، وباب المنازل، وباب الأندلس، وباب المطاحن، وهي في سفح جبل يقال له جزّول، ولها قصبة مشرفة على السوق تسمى المعصومة، وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة، وهو في قبلتها، ونهر آخر يجري من عيون تجتمع يسمى تاتُش، ومنه شرب أهلها وأرضها، وهو في شرقيها، وفيها جميع الثمار، وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسناً وطعماً.

(٢) عبد الرحمن بن رستم: عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن رستم بن بهرام، وبهرام هو مولى سيدنا عثمان بن عفان، رضي الله عنه. انتقل عبد الرحمن إلى المغرب في نهاية القرن الأول، واتجه إلى المشرق مع الأباضيين حيث بقوا هناك من ١٣٥ ـ ١٤٠. تولى نيابة القيروان عندما أخذها الأباضيون من الصفرية عام ١٤١، وخرج منها لنصرة إمامه المعافري في قابس حيث قتل هناك عام ١٤٤ على يد محمد بن الأشعث الخزاعي، فرجع عبد الرحمن إلى القيروان، ثم غادرها واتجه إلى المغرب الأوسط حيث تحصن فيها من ابن الأشعث، وسار بعدها إلى موقع تاهرت.

الأندلس

حاول المهدي - كما حاول أبوه المنصور - التخلص من عبد الرحمن غير أنه فشل كسابقه. إذ كان حاكم سرقسطة سليمان بن يقظان الأعرابي الكلبي يختلف مع عبد الرحمن الداخل لأمورٍ سياسيةٍ. فاتفق هذا مع شارلمان حاكم الفرنجة لمداهمة عبد الرحمن الداخل، وقد كان المهدي على رضى من هذا الاتفاق، وأرسل هو أيضاً من طرفه عبد الرحمن بن حبيب الفهري لينزل على شواطئ الأندلس الجنوبية، في الوقت الذي يجتاز شارلمان حدود الأندلس من الشمال.

نزل عبد الرحمن الفهري في تدمير[1] (مرسيه) على شاطئ الأندلس الجنوبية، ولكن كان وصوله قبل دخول شارلمان، فسار إليه عبد الرحمن الداخل وتمكّن من قتله.

ووصل شارلمان إلى سرقسطة غير أن السكان رفضوا تسليم بلدهم لرجل نصراني، وقاموا بثورةٍ قادها رجل منهم اسمه الحسين بن يحيى الأنصاري، وأغلقوا أبواب المدينة في وجه شارلمان وحليفه ابن الأعرابي، وذلك عام ١٦١ فاضطر شارلمان إلى العودة من حيث أتى وأخذ معه سليمان بن يقظان بن الأعرابي كأسير حرب إذ عدّه قد خدعه، وكان من أسباب عودة شارلمان أيضاً أن القبائل الجرمانية - السكسونية قد تركت النصرانية وعادت شارلمان.

وبينما كان شارلمان يجتاز الحدود من جبال البرانس إذ هاجمت قبائل

---

(١) تدمير: كورة بالأندلس تتصل بأحواز كورة جَيّاني، وهي شرقي قرطبة بينهما سبعة أيام.

البشكنس مؤخرة جيشه ومعها أبناء سليمان الذين أعادوا أبيهم، وكان عبد الرحمن الداخل قد شجع هذا الهجوم... ثم قتل سليمان هذا، وحكم الحسين بن يحيى الأنصاري سرقسطة، واستقر وضع الداخل في الأندلس، خاصةً أنه سار عام ١٦٤ إلى سرقسطة ودخلها، وحسّن علاقاته مع شارلمان.

* * *

- ٤ -

الهادي

موسى بن محمّد

١٦٩ - ١٧٠ هـ

ولد موسى الهادي بالسيروان من الري عام ١٤٤ أيام خلافة جده المنصور، وأمه أم ولد بربرية هي الخيزران. ونشأ في بيت الخلافة. كان طويلاً جسيماً جميلاً، أبيض مشرباً بالحمرة، في شفته العليا تقلّص. ومع ذلك كان فصيحاً، أديباً، قادراً على الكلام. وكان شهماً خبيراً بالملك كريماً. من أفكه الناس مع أصحابه في الخلوة، فإذا جلس في مقام الخلافة كانوا لا يستطيعون النظر إليه، لما له من المهابة والرياسة. وكان يقول: ما أصلح الملك بمثل تعجيل العقوبة للجاني، والعفو عن الزلات ليقل الطمع عن الملك. وغضب يوماً على رجل فاسترضي عنه فرضي، فشرع الرجل يعتذر، فقال الهادي: إن الرضا كفاك مؤونة الاعتذار. وعزّى رجلاً في ولده فقال له: سرّك وهو عدو وفتنة، وساءك وهو صلاة ورحمة.

بدأ في عصره صخب الجند، وكثر السلاح. ومشت الرجال بين يديه بالسيوف، والقِسِي، وقلّده عماله في ذلك.

بويع بالخلافة بعهد من أبيه، وكان بجرجان يحارب أهل طبرستان، وتوفي أبوه في ماسبذان في شهر محرم، وهو قادم إليه، ومعه ابنه الرشيد، وحاجبه الربيع بن يونس مولى أبي جعفر المنصور، ويحيى بن خالد البرمكي. فوارى الرشيد أباه في التراب، وعاد إلى بغداد، ورجع موسى الهادي إلى مقر ملكه فوصل إليه في شهر صفر أي بعد وفاة المهدي بشهر تقريباً فأخذ البيعة، وجلس للأمر.

تتبع الزنادقة وأعمل فيهم السيف مثل والده وحسب وصيته إذ قال له: وقد أمر بضرب عنق زنديق: يا بني، إن صار لك هذا الأمر فتجرّد

لهذه العصابة - يعني أصحاب ماني - فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومسّ الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرّجاً وتحوُّباً، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين: أحدهما النور والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق، لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور؛ فارفع فيها الخشب، وجرّد فيها السيف، وتقرّب بأمرها إلى الله لا شريك له؛ فإني رأيت جدك العباس في المنام قلّدني بسيفين، وأمرني بقتل أصحاب الاثنين[1].

واستعمل على الحجابة بعد الربيع بن يونس ابنه الفضل واستوزره.

وعمل على خلع أخيه الرشيد من ولاية العهد وتولية ابنه جعفر، وكان صغيراً لم يبلغ الحلم، ووافقه عدد من الأمراء والقادة على ذلك، وخالفته أمهما الخيزران، وكانت تميل إلى ابنها الرشيد أكثر من موسى، وألحّ على أخيه في ذلك، وبعث إلى يحيى بن خالد البرمكي، وكان من أكابر الأمراء الذين هم في صف الرشيد، فقال له: ماذا ترى فيما أريد من خلع هارون وتولية ابني جعفر؟ فقال له يحيى: إني أخشى أن تهون الأيمان على الناس، ولكن المصلحة تقتضي أن تجعل جعفراً ولي العهد من بعد هارون، وأيضاً فإني أخشى أن لا يجيب أكثر الناس إلى البيعة لجعفر، لأنه دون البلوغ، فيتفاقم الأمر ويختلف الناس. فأطرق ملياً - وكان ذلك ليلاً - فأمر بسجنه ثم أطلقه. وجاء إليه يوماً أخوه هارون الرشيد فجلس عن يمينه بعيداً، فجعل الهادي ينظر إليه ملياً، ثم قال: يا هارون! تطمع أن تكون ولياً للعهد حقاً؟ فقال: أي والله، ولئن كان ذلك لأصلن من قطعت، ولأنصفن من ظلمت، ولأزوجن بنيك من بناتي. فقال: ذاك الظن بك. فقام إليه هارون ليقبل يده، فحلف الهادي ليجلس معه على السرير، فجلس معه، ثم أمر له بألف ألف دينار، وأن يدخل الخزائن فيأخذ منها ما أراد،

---

(١) تاريخ الطبري.

وإذا جاء الخراج دفع إليه نصفه. ففعل ذلك كله ورضي الهادي عن الرشيد[1].

استحوذت الخيزران على ابنها موسى في أول عهده، كما استحوذت على أبيه من قبل، وبدأت الأمراء تقف على بابها، لكن الهادي لم يلبث أن منعها من التصرف في شيء من المملكة، وحلف لئن وصل أمير إلى بابها ليقطع عنقه ولا يقبل منه شفاعة، فامتنعت من الكلام في الشؤون، وحلفت ألا تكلّم ابنها أبداً، وانتقلت عنه إلى منزل آخر.

ومات الهادي في منتصف ربيع الأول من عام ١٧٠، واختلف في موته، أكان سُمّاً، أم بسبب قرحةٍ أصابته في جوفه. وقد حكم مدة سنة واحدة وثلاثة أشهر. وخلّف سبعة أولاد من الذكور، أكبرهم جعفر الذي كان يرشحه للخلافة، وابنتين اثنتين إحداهما أم عيسى التي تزوجها المأمون ابن أخيه الرشيد. وكان يكنّى بأبي محمد.

* * *

(١) البداية والنهاية.

الحركات[٧٠]

لم تطل أيام الهادي، ولم تحدث في هذه المدة القصيرة أحداث واسعة سوى خروج الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان سبب خروجه أن الهادي عندما عزل عن المدينة إسحاق بن عيسى ولى عليها عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب فطلب الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بتهمةٍ فاختفى، وكان قد كفله الحسين بن علي بن الحسن، ويحيى بن عبد الله بن الحسن فدعاهما الوالي وأغلظ إليهما، ثم أعادها ثانيةً فألجأت الحسين إلى الخروج لما نيل منه، وكان أن خرج الوالي إلى بغداد، فلبس الحسين البياض وجلس في المسجد النبوي والتف حوله جماعة فبايعوه للرضا من أهل البيت، واقتتلوا مع أنصار العباسيين عدة مرات، ثم خرج مع جماعته إلى مكة المكرمة فأقاموا بها إلى موسم الحج، فبعث إليهم الهادي جيشاً فاقتتلوا بعد فراغ الناس من الموسم في وادي فخ فقتل الحسين بن علي وجماعة من أنصاره. . . وأفلت من هذه المعركة إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، واتجه إلى مصر، ومنها انطلق إلى المغرب. وكانت مدة خروج الحسين بن علي تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً.

وقضى على ثورة دحية المرواني في صعيد مصر والتي قامت منذ أيام والده إذ أرسل والياً إلى مصر الفضل بن صالح بن علي فهزم دحية، وتمكّن منه، وقتله، والفضل هذا هو الذي بنى مدينة العسكر قرب الفسطاط، وقد اتسعت واتصلت بالفسطاط.

- ٥ -

الرشيد
هارون بن محمّد

١٧٠ - ١٩٣هـ

بلغت الدولة العباسية أوجها أيام الرشيد، فآباؤه قد وطدوا له الأمر فعمّ الاستقرار، ووصلت الدولة إلى غاية قوتها فساد الأمن، ولم يحدث الصراع على الحكم إذ كانت الدولة في مرحلة الشباب حيث لا يزال الشعور بالمعاناة قائماً للوصول إلى السلطة وانتزاعها من أيدي الأمويين.

وكان الرشيد شجاعاً قوياً فقد قاد الحملات والصوائف في عهد أبيه ولم يتجاوز العشرين من العمر، وسار على رأس الجيوش إلى بلاد الروم، وهو أمير المؤمنين، فطأطأ الروم رؤوسهم وأحنوا هاماتهم له، ورهبوه، وأخافوا رعاياهم به.

وكان تقياً ورعاً يخشى الله في أموره كلها، فقد كان يصلي في اليوم مائة ركعة نفلاً، ويكثر من الحج، فقد ولي أمر المسلمين ثلاثاً وعشرين سنةً حجّ في خلالها تسع مرات وهي مواسم: ١٧٠ ـ ١٧٣ ـ ١٧٤ ـ ١٧٥ ـ ١٧٧ ـ ١٧٩ ـ ١٨١ ـ ١٨٦ ـ ١٨٨، حتى شاع بين الناس أنه يغزو عاماً، ويحجّ عاماً. ويتصدّق من صلب ماله، وقد تتبع الزنادقة وقتل منهم أعداداً.

وكان يستمع إلى الوعّاظ والناصحين، ويبكي من خشية الله. فقد مرّ وهو في طريقه إلى الحج بأحد البهاليل فقال له: قل يا بهلول، فقال:

هب أن قد ملكت الأرض طرّاً ... ودان لك العباد فكان ماذا

أليس غداً مصيرك جوف قبرٍ ... ويحثو عليك التراب هذا ثم هذا

قال: أجدت يا بهلول أفغيره؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين! من رزقه الله مالاً وجمالاً فعفّ في جماله، وواسى في ماله، كتب في

ديوان الله من الأبرار. فظنّ أنّه يريد شيئاً، فقال: إنّا أمرنا بقضاء دينك. فقال: لا تفعل يا أمير المؤمنين، لا يُقضى دين بدين، أردد الحق إلى أهله، واقض دين نفسك من نفسك. قال: إنّا أمرنا أن يُجرى عليك رزق تقتات به. قال: لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنه سبحانه لا يعطيك وينساني، وها أنا قد عشت عمراً لم تُجر عليّ رزقاً، انصرف لا حاجة لي في جرايتك. قال: هذه ألف دينار خُذها. فقال: اردها على أصحابها فهو خير لك، وما أصنع أنا بها؟ انصرف عني فقد آذيتني. قال[١]: فانصرف عنه الرشيد وقد تصاغرت عنده الدنيا[٢].

وقال له ابن السماك يوماً: إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتُبعث منه وحدك، فاحذر المقام بين يدي الله عزّ وجلّ، والوقوف بين الجنة والنار، حين يُؤخذ بالكظم، وتزلّ القدم، ويقع الندم، فلا توبة تُقبل، ولا عثرة تُقال، ولا يُقبل فداء بمال. فجعل الرشيد يبكي حتى علا صوته، فقال يحيى بن خالد له: يا ابن السماك! لقد شققت على أمير المؤمنين الليلة. فقام فخرج من عنده وهو يبكي. وقال له الفضيل بن عياض - في كلام كثير ليلة وعظه بمكة -: يا صبيح الوجه إنك مسؤول عن هؤلاء كلّهم، وقد قال تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ قال حدثنا ليث عن مجاهد: الوصلات التي كانت بينهم في الدنيا. فبكى حتى جعل يشهق. وقال الفضيل: استدعاني الرشيد يوماً وقد زخرف منازله وأكثر الطعام والشراب واللذات فيها، ثم استدعى أبا العتاهية فقال له: صف لنا ما نحن فيه من العيش والنعيم فقال:

عش ما بدا لك سالماً ... في ظلّ شاهقة القصور

تسعى إليك بما اشتهيـ ... ـت لدى الرّواح إلى البكور

فإذا النفوس تقعقعت ... عن ضيق حشرجة الصّدور

---

(١) الراوي: وهو الفضل بن الربيع.

(٢) البداية والنهاية الجزء العاشر.

فهناك تعلم موقناً ما كنت إلاّ في غرور

فبكى الرشيد بكاءً كثيراً شديداً. فقال له الفضل بن يحيى: دعاك أمير المؤمنين تسرّه فأحزنته؟

فقال له الرشيد: دعه فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا عمى. ومن وجه آخر أن الرشيد قال لأبي العتاهية: عظني بأبيات من الشعر وأوجز فقال:

لا تأمن الموت في طرفٍ ولا نفس ولو تمتّعت بالحجّاب والحرس
واعلم بأنّ سهام الموت صائبة لكلِ مُدّرع منها ومُتّرس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس

فخرّ الرشيد مغشياً عليه[1].

ولد الرشيد بالري أيام خلافة جده أبي جعفر المنصور عام ١٤٦، وبويع بالخلافة عام ١٧٠، ولم يكن عمره ليزد يوم بويع على أربع وعشرين سنة، وكان أبيض طويلاً، سميناً جميلاً، وتوفي بـ (طوس) في ٣ جمادى الآخرة من عام ١٩٣ فتكون ولايته ثلاثاً وعشرين سنة.

وتزوج بنت عمه زبيدة أم جعفر بنت جعفر بن المنصور، وأنجبت له ولده الأمين في ١٦ شوال من عام ١٧٠، وكان زواجه من زبيدة عام ١٦٥. كما تزوج عام ١٨٧ العباسة بنت عمه سليمان بن أبي جعفر المنصور، كما تزوج عدة نساءٍ أُخريات، وتوفي عن أربعٍ منهن. وكانت له عدة جوارٍ أنجبن عدة أولادٍ منهم: المأمون، وهو أكبر أولاده، إذ ولد يوم بويع الرشيد بالخلافة أي ١٥ ربيع الأول، وبذا يكون أكبر من الأمين بسبعة أشهرٍ، وتسمى أم المأمون مراجل، والمعتصم، وتدعى أمه ماردة، والقاسم المؤتمن وتسمى أمه قصف.

---

(١) المصدر السابق.

وكان الرشيد يكنى أبا موسى، ثم عرف باسم أبي جعفر.

ولما بويع بالخلافة في ١٥ ربيع الأول أخرج يحيى بن خالد البرمكي من السجن وولاّه الوزارة، إذ كان الهادي قد سجنه لميله للرشيد، وأكمل الخليفة الجديد بناء مدينة طرسوس، وهي الثغر على ساحل البحر المتوسط، وانتهى العمل فيها في العام الأول من خلافة الرشيد.

وتوفيت الخيزران والدة الرشيد عام ١٧٢. وبايع لابنه محمد الأمين ولياً للعهد عام ١٧٥، ولم يتجاوز الأمين الخامس من عمره، وهذا ما ولّد نقداً للرشيد من أهل العلم والعامة على حدٍ سواء، ومع أنّ ابنه عبد الله المأمون أكبر من الأمين بسبعة أشهر إلا أنّ البيعة كانت للأمين إذ أن أمّه زبيدة بنت جعفر ابنة عمّ الرشيد، وذات الحظوة الكبيرة عنده، على حين كانت أم المأمون أم ولد، هي مراجل، لكنه لم يلبث أن بايع بعد سبع سنوات للمأمون بعد أخيه الأمين.

وكان لآل برمك نفوذ كبير في الدولة أيام الرشيد، إذ كان يحيى بن خالد مربياً للرشيد، حتى كان يناديه أبي، وكان أولاد يحيى وهم: الفضل، وجعفر، وموسى، ومحمد أترابه وأقرانه، وكان الهادي يحقد عليهم، وقد سجن والدهم، فلما بويع الرشيد أخرجه من السجن، وقرّبه، وأعطاه الوزارة، وزاد نفوذ هذه الأسرة كثيراً، فهم من جهة قد خدموا الدولة، إذ كان محمد بن خالد حاجب الرشيد، ويحيى بن خالد مربيه، وجعفر بن يحيى والي مصر، والفضل بن يحيى والي خراسان، وفي الوقت نفسه فقد قادوا الجيوش، وأخضعوا الثورات، وأخمدوا الفتن، فقد نُدب الفضل بن يحيى لقتال يحيى بن عبد الله بن الحسن عندما ثار في بلاد الديلم عام ١٧٦، كما سار الفضل نفسه على رأس قوة إلى بلاد الترك فدخل كابُل، وغزا بلاد ما وراء النهر. وفي الوقت الذي خدم فيه البرامكة الدولة كانوا يخدمون أنفسهم، إذ كانوا أصحاب النَفوذ والسلطان، وأهل المشورة والرأي، والمقدّمين في كل أمر، وجلساء الخليفة وندماءه، يدخلون عليه

في كل وقت دون إذن، وإن كان يعزل أحدهم ويستبدله بآخر غير أن مركزهم لم يكن ليتغيّر، فقد عزل جعفراً عن مصر عام ١٧٦، وعزل محمد بن خالد عن الحجابة وأعطاها للفضل بن الربيع عام ١٧٩.

تغيّرت أحوال البرامكة إذ تبدّل لهم الرشيد فجأةً فقتل جعفر بن يحيى، وسجن يحيى وابنه الفضل، وصادر أملاكهم وأموالهم. ولربما كان لما حلّ بالبرامكة أسباب عامة نتيجة زيادة نفوذهم حتى خافهم الرشيد، ومغالاتهم بالتبذير والمصروفات حتى فاقوا الخليفة نفسه وسبقوه، وعدم اهتمامهم بالخليفة حيث أصبحوا يدخلون عليه من غير إذن، وهذا ما جعل العامة والخاصة تحقد عليهم، وتتناولهم بالنقد بل وتتناول الرشيد نفسه الذي فسح لهم المجال، فخاف الرشيد على ملكه من نفوذهم، ومن نقمة العامة عليه، وجاء موضوع جعفر الخاص فاتخذه السبب في قتله وإنزال النكبة بأهله. فقد ذكر بختيشوع بن جبريل عن أبيه أنه قال: إني لقاعد في مجلس الرشيد، إذ طلع يحيى بن خالد ـ وكان فيما مضى يدخل بلا إذن ـ فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلّم ردّ عليه ردّاً ضعيفاً: فعلم يحيى أن أمرهم قد تغيّر.

قال: ثم أقبل عليّ الرشيد، فقال: يا جبريل، يدخل عليك وأنت في منزلك أحد بلا إذنك! فقلت: لا، ولا يطمع في ذلك. قال: فما بالنا يُدخل علينا بلا إذن! فقام يحيى، فقال: يا أمير المؤمنين، قدّمني الله قبلك؛ والله ما ابتدأت ذلك الساعة، وما هو إلا شيء قد خصّني به أمير المؤمنين، ورفع به ذكري، حتى أن كنت لأدخل وهو في فراشه مجرّداً حيناً، وحيناً في بعض إزاره؛ وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب؛ وإذ قد علمت فإني أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن، أو الثالثة إن أمرني سيدي بذلك. قال: فاستحيا ـ قال: وكان من أرقّ الخلفاء وجهاً ـ وعيناه في الأرض، ما يرفع إليه طرفه، ثم قال: ما أردت ما تكره؛ ولكن الناس يقولون. قال: فظننت أنه لم يسنح له جواب يرتضيه فأجاب بهذا القول ثم أمسك عنه، وخرج يحيى.

وذكر عن أحمد بن يوسف أن ثمامة بن أشرس قال: أول ما أنكر يحيى بن خالد من أمره، أن محمد بن الليث رفع رسالةً إلى الرشيد يعظه فيها، ويذكر أن يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئاً، وقد جعلته فيما بينك وبين الله؛ فكيف أنت إذا وقفت بين يديه، فسألك عما عملت في عباده وبلاده، فقلت: يا رب إني استكفيت يحيى بن خالد أمور عبادك! أتراك تحتج بحجةٍ يرضى بها! مع كلام فيه توبيخ وتقريع[1].

قال: وحدثني محمد بن الفضل بن سفيان، مولى سليمان بن أبي جعفر، قال: دخل يحيى بن خالد بعد ذلك على الرشيد، فقام الغلمان إليه، فقال الرشيد لمسرور الخادم: مُر الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار، قال: فدخل فلم يقم إليه أحد، فاربدّ لونه. قال: وكان الغلمان والحجاب بعد إذا رأوه أعرضوا عنه. قال: فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره، فلا يسقونه، وبالحري إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعو بها مراراً[2].

وأما السبب الذي اتخذه الرشيد ذريعةً للبطش بالبرامكة فهو فيما يتعلق بجعفر بن يحيى الذي قرّبه الرشيد إليه كثيراً حتى أصبح سميره الذي لا يكاد يفارقه بل لا يكاد يستطيع مفارقته وأمين سرّه الذي لا يستطيع أن يكتم عنه سرّاً. فعندما ثار يحيى بن عبد الله بن الحسن عام ١٧٦ في بلاد الديلم، ووجّه إليه الرشيد الفضل بن يحيى فأمنه، وجاء يحيى إلى بغداد فدفعه الرشيد إلى جعفر بن يحيى البرمكي فحبسه، ثم دعا به ليلةً من الليالي فسأله عن شيءٍ من أمره، فأجابه، إلى أن قال: اتق الله في أمري، ولا تتعرّض أن يكون خصمك غداً محمد ﷺ، فوالله ما أحدثت حدثاً، ولا أويت محدثاً. فرقّ عليه، وقال له: اذهب حيث شئت من بلاد الله. قال: وكيف أذهب ولا آمن أن أؤخذ بعد قليل فأردّ إليك أو إلى غيرك! فوجّه

---

(١) تاريخ الطبري.

(٢) المصدر نفسه.

معه من أدّاه إلى مأمنه. وبلغ الخبر الفضل بن الربيع، من عين كانت له عليه من خاصّ خدمه، فعلا الأمر، فوجده حقاً، وانكشف عنده؛ فدخل على الرشيد فأخبره، فأراه أنه لا يعبأ بخبره. وقال: وما أنت وهذا لا أمّ لك! فلعلّ ذلك عن أمري؛ فانكسر الفضل؛ وجاءه جعفر فدعا بالغداء فأكلا، وجعل يلقمه ويحادثه، إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال: ما فعل يحيى بن عبد الله؟ قال: بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الضيّق والأكبال. قال: بحياتي! فأحجم جعفر ـ وكان من أدقّ الخلق ذهناً، وأصحّهم فكراً ـ وهجس في نفسه أنه قد علم بشيءٍ من أمره، فقال: لا وحياتك يا سيدي ولكن أطلقته وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده. قال: نعم ما فعلت، ما عدوت ما كان بنفسي. فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد أن يتوارى عن وجهه، ثم قال: قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك! فكان من أمره ما كان[١]. ويبدو أن هذا كان سبباً رئيسياً لقتله والنكبة بالبرامكة، لكن هناك أمر آخر يبدو أنه أكثر أهميةً، وهو أن الرشيد لم يكن يصبر على بعد جعفر بن يحيى إذ كان يحبه جداً، ويحب أن يكون دائماً بجانبه، وفي الوقت نفسه كان يحب أُخته العباسة بنت المهدي حيث كانت على شيء من الأدب والرأي والحكمة فكان لذلك يحب أن يحضرا مجلسه، ولما كان جعفر لا يحق له أن يرى العباسة أخت الرشيد إذ أنه أجنبي عليها لذا قال له الرشيد: أزوّجكها ليحلّ لك النظر إليها إذا حضرت مجلسي على ألا تمسّها، ولا يكون منك شيء مما يكون للرجل إلى زوجته، فزوّجها منه على ذلك. فكانا يحضران مجلس الرشيد، غير أن هذا الشرط لا يكون، وما كان، فهما شابان وجرت خلوات بينهما، وأيّ منهما قد مكر بالآخر لا ندري، فالأمر واحد، وحملت العباسة من جعفر، وولدت غلاماً فخافت على نفسها من أخيها كما خاف جعفر إن علم الرشيد بذلك لذا فقد وجهت المولود مع حواضن له من مماليكها إلى مكة، وبقي الأمر مستوراً عن الرشيد حيناً من الزمن، حتى وقع خلاف بين

---

(١) تاريخ الطبري.

العباسة وبين بعض جواريها، فأعلمت الجارية الرشيد بخبر العباسة ووليدها، فلما حجّ الرشيد عام ١٨٦ تتبع أمر الوليد في مكة فاستيقن الخبر فأخذته النخوة في رأسه مأخذها، وعدّ أن جعفراً قد خانه، وقرّر قتله والانتقام منه ومن أهله، وإن كان هو نفسه السبب في ذلك لما فرّط في أهله. فلما رجع الرشيد من الحج أرسل مسروراً الخادم مع جماعة إلى جعفر فأخرجوه من منزله كرهاً وقيّدوه، وأتوا به إلى منزل الرشيد فأمر بضرب عنقه، وكان ذلك في أواخر أيام شهر محرم من عام ١٨٧. كما أمر الرشيد بسجن يحيى بن خالد، وأولاده الفضل، ومحمد، وموسى وأولادهم، وأعلن أن لا أمان للبرامكة باستثناء محمد بن خالد إذ كان للخليفة ناصحاً، وصادر أموالهم وأملاكهم، ثم أخرج يحيى من السجن لكبر سنه، كما أخرج أبناء أولاده لصغرهم. ومات الفضل بن يحيى في السجن ١٩٢، كما مات أبوه يحيى من قبل عام ١٩٠.

وبايع لابنه القاسم ولياً للعهد بعد الأمين والمأمون، وسمّاه المؤتمن، وولاّه الجزيرة والثغور والعواصم، أما الأمين فقد كان والي الشام والعراق، وأما المأمون فوليّ أمر المشرق من همدان إلى آخر المشرق.

وقد أشيعت الشائعات حول الرشيد، ورُوّجت التهم بصفته كان أعظم خلفاء بني العباس، وإنما توجّه التهم إلى العظماء فإذا ضعُفوا كان الصغار أقزاماً، فأشاعوا الكثير عن لهوه، وندمائه وكأسه، ووصلوا إلى زوجه زبيدة، وعرضه، وإتلافه في ماله، وإعراضه عن ملكه.

* * *

الحركات[7]

لم تقم حركات واسعة أيام الرشيد، وإنما كانت حركات محلية يقوم بها والٍ أغراه سلطانه، وأطمعه نفوذه فيخرج على الخليفة ثم لم يلبث أن يهزم فيُقتل أو يُعفى عنه.

ثار يحيى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب في بلاد الديلم عام ١٧٦، وكان يحيى نجا من معركة (فخّ) عام ١٦٩، فدعا لنفسه فبايعه أُناس من أهل الحرمين، واليمن، ومصر، وذهب إلى اليمن فأقام مدةً فيها، ودخل مصر، والمغرب وعاد إلى المشرق فدخل العراق مُتنكراً، وقصد الري وخراسان، ووصل إلى بلاد ما وراء النهر، واشتد الرشيد في طلبه، فانصرف إلى خاقان ملك الترك، ومعه من شيعته وأنصاره نحو مائة وسبعون رجلاً، فأقام سنتين وستة أشهر. وخرج إلى طبرستان فبلاد الديلم، وأعلن هناك نفسه، وكُثر أتباعه، فندب الرشيد لحربه الفضل بن يحيى البرمكي في خمسين ألفاً، ومعه كبار القادة. وضعف أمر يحيى إذ خاف أن يغدر به ملك الديلم. لأن الفضل البرمكي قد كاتب يحيى ورفق به واستماله، وناشده، وحذّره، وأشار عليه، وبسط أمله. كما كاتب صاحب الديلم وجعل له مليون درهم إن حمل يحيى على الصلح وطلب الأمان. وفعلاً أجاب يحيى إلى الصلح على أن يكتب له الرشيد أماناً بخط يده يبعث به إليه، فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد فسرّه ذلك، وكتب أماناً إلى يحيى بن عبد الله، وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلّة بني هاشم ومشايخهم، منهم عبد الصمد بن علي، والعباس بن محمد، ومحمد بن إبراهيم، وموسى بن عيسى و.... كما وجه مع كتاب الأمان هدايا، فلما وصل هذا إلى الفضل البرمكي أرسلها إلى يحيى بن عبد الله. قبل يحيى بن

عبد الله هذا فأقبل إلى الفضل فسار به إلى بغداد، فلقيه الرشيد، ورحّب به، ومنحه مالاً كثيراً، وأجرى عليه أرزاقاً، وأنزله منزلاً طيباً بعد أن أقام عدة أيام في بيت يحيى بن خالد البرمكي، وكان يتولى أمره بنفسه، وأمر الناس أن يسلّموا عليه. لم يلبث الرشيد أن تنكّر ليحيى فسجنه عند جعفر بن يحيى البرمكي، فرقّ عليه جعفر وأطلقه، وأرسل الرشيد من أعاده إلى السجن في سرداب وكبّله، ووكّل به مسروراً الخادم، ولم يزل في سجنه حتى مات عام ١٨٠، وكثرت الروايات عن أسباب موته فمنهم من قال: جوعاً وعطشاً، ومنهم من قال: عذاباً، ومنهم من قال: انتهى أجله.

وثارت فرقة من قيس وقضاعة في مصر، فقاتلها عامل مصر يومذاك وهو إسحاق بن سليمان، وأمدّه الرشيد بهرثمة بن أعين عامل فلسطين فخمدت الفتنة وذلك عام ١٧٧هـ.

وثار أهل إفريقية عام ١٧٨ بإمرة عبدويه الأنباري، فقتل الفضل بن روح بن حاتم، وأخرج من كان بها من آل المهلب، فوجه إليهم الرشيد هرثمة بن أعين فخمدت الفتنة، بعد أن كاتب يحيى بن خالد البرمكي عبدويه رأس الحركة ودعاه إلى الطاعة وأمّنه وأمّله حتى وافق وطلب الأمان، وعاد إلى الطاعة، وقدم إلى بغداد، فوفّى له يحيى، وأحسن إليه، ووصله، وولاّه.

وثار ببلدة (نسا) من خراسان عام ١٨٣ أبو الخصيب وهيب بن عبد الله النسائي، وكثر أتباعه، ولكنه غلب فطلب الأمان من والي خراسان علي بن عيسى فأعطاه إياه عام ١٨٤، ثم عاد فخرج ثانيةً، وغلب على (نسا) و (أبيورد) و (طوس) و (نيسابور)، وزحف إلى (مرو) فهزم هناك، فمضى نحو (سرخس)، وقوي أمره فخرج إليه علي بن عيسى بن ماهان فانتصر عليه عام ١٨٦ وانتهى أمره.

وثارت العصبية في الشام فكانت فتنة عمياء بين المضرية والنزارية فأرسل لهم الرشيد محمد بن منصور بن زياد فأصلح بينهم.

وثار رافع بن الليث بن نصر بن سيّار بسمرقند من بلاد ما وراء النهر لسببٍ تافهٍ، وهو الزواج من امرأةٍ بحيلةٍ فلما رفع الأمر إلى الرشيد، أمر واليه علي بن عيسى على خراسان أن يفرّق بينهما، وأن يجلد رافعاً، ويعزّره بالطواف به في أسواق سمرقند ليكون عبرةً لغيره، وسُجن رافع، فهرب من السجن، ولحق بعلي بن عيسى ببلخ، فطلب منه الأمان فلم يجبه علي إليه، وسمح له بالعودة إلى سمرقند، فعاد إليها، ووثب على عاملها سليمان بن حميد فقتله، فأرسل إليه علي بن عيسى ابنه عيسى ثم سار إليه بنفسه وذلك عام ١٩٠، وعظم أمر رافع عام ١٩١، وأطاعه أهل (نسف)، ودعمه الأتراك، وقتلوا عيسى بن علي. وولّى الرشيد هرثمة بن أعين على خراسان، وعزل علي بن عيسى عنها. وقاتل هرثمة رافعاً، وتمكّن هرثمة من دخول بخارى وأسر بشير بن الليث أخي رافع وأرسله إلى الرشيد وهو في (طوس) متوجه لقتال رافع فضرب عنق بشير. واستمر أمر رافع إلى ما بعد أيام الرشيد. أما الرشيد فقد توفي وهو في طوس عام ١٩٣.

وفي عام ١٨١ تغلب الزنادقة على جرجان وعاثوا فيها الفساد.

وخرجت الخرّمية في أذربيجان عام ١٩٢ فأرسل إليهم الرشيد عبد الله بن مالك بن هيثم الخزاعي فقتل منهم كثيراً، وأسر، وسبى، فأمره الرشيد بقتل الأسارى، وبيع السبي، ففعل.

وثار رجل من بني عبد القيس فأرسل له الرشيد من قتله وذلك عام ١٩٠.

* * *

الخوارج

نشط الخوارج أيام الرشيد إلا أن حركاتهم كانت موضعيةً وذات أثر ضئيل محدود، مع العلم أن إفريقية كان فيها إمارتان للخوارج إحداهما للصفرية، والأخرى للأباضية.

خرج الفضل بن سعيد الحروري عام ١٧٠ ولكنه لم يلبث أن قُتل.

خرج عام ١٧٨ بالجزيرة الوليد بن طريف الشاري، وقتل كثيراً من أهلها، ومنهم إبراهيم بن خازم بن خزيمة الذي قُتل بناحية نصيبين، ثم توجّه الوليد إلى أرمينيا. ورجع إلى الجزيرة في العام التالي وقويت شوكته، وكثُر أتباعه، فبعث له الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني فالتقى به بالقرب من هيت فقتله، وقد رثته أخته الفارعة بالقصيدة المشهورة التي منها:

أيا شجر الخابور مالك مُورقاً ... كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلاّ من التقى ... ولا المال إلا من قناً وسيوف

واعتمر الرشيد في هذه السنة في شهر رمضان شكراً لله على نصره على الوليد بن طريف، وانصرف بعد أداء العمرة إلى المدينة حيث بقي فيها إلى موسم الحج، فسار إلى مكة، وحجّ بالناس، وأدّى المناسك كلها ماشياً.

كما خرج في العام نفسه (١٧٩) في خراسان حمزة بن أترك السجستاني، وبدأ ينتقل من مكان إلى آخر حتى قوي أمره عام ١٨٥ فعاث فساداً في (باذغيس) من أرض خراسان، ثم غُلب، وفرّ باتجاه كابُل.

وخرج في الجزيرة أيضاً عام ١٨٠ خراشة الشيباني، فسار إليه مسلم بن بكار بن مسلم العقيلي فقتله، وتتبع أعوانه من الخوارج.

وفي عام ١٨٤ خرج بالجزيرة أيضاً أبو عمرو الشاري، ولكنه لم يلبث طويلاً حتى قتل.

وفي عام ١٩١ خرج رجل بسواد العراق يقال ثروان بن سيف، فوجّه إليه الرشيد طوق بن مالك، فتمكّن طوق من الانتصار عليه وقتل عامة أصحابه، وجرح ثروان، فظنه أنه قُتل، وفرّ ثروان جريحاً.

* * *

حروب الرّوم

كان الغزو في بلاد الروم لا ينقطع، وتكاد تكون أيام الصيف كلها حروباً، أما أيام الشتاء فقلما تحدث فيها الحروب لأن البرد شديد في بلاد الروم وخاصةً أن الثغور يقع معظمها في أعالي جبال طوروس حيث تتغطّى بالثلج أغلب فصل الشتاء والربيع.

سار على رأس الصائفة عام ١٧١ سليمان بن عبد الله البكاء. وقادها عام ١٧٢ إسحاق بن سليمان بن علي. واتجه الرشيد بنفسه إلى بلاد الروم عام ١٨١ وافتتح حصناً يقال له: الصفصاف. كما غزا في العام نفسه بلاد الروم عبد الملك بن صالح ووصل إلى أنقرة. وفي العام التالي ١٨٢ سار على رأس الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح فوصل إلى بلدة أصحاب الكهف. وفي هذا العام سملت الروم عيني ملكهم قسطنطين بن أليون، وخلعوه، وأقرّوا أمه (ريني) على الحكم، وتلقب (أُغسطه).

وفي عام ١٨٣ خرجت الخزر من ثلمة أرمينيا على الناس فسبوا كثيراً من المسلمين وأهل الذمة، وقيل: إن عدد السبي قد زاد على مائة ألف، فأرسل الرشيد إلى تلك الجهات خزيمة بن خازم، ويزيد بن مزيد فأصلحوا ما أفسدت الخزر، وطردوهم من تلك الديار.

وفي عام ١٨٧ نقضت الروم العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين، والذي عقده الرشيد مع الملكة (ريني)، إذ أن الروم قد خلعوها، وسملوا عينيها، وولوا عليهم (نقفور). ويقال: إنه من سلالة آل جفنة إذ من المعلوم أن جبلة بن الأيهم الغسّاني قد فرّ إلى بلاد الروم بعد أن ارتد عن الإسلام وبقيت أسرته هناك على النصرانية. وسار القاسم بن الرشيد على

رأس الصائفة فحاصر الجيش الرومي حتى افتدوا أنفسهم بعددٍ كبيرٍ من أسرى المسلمين الذين كانوا بيد الروم يطلقونهم على أن يرجع عنهم. وبعد مدة كتب (نقفور) إلى الرشيد: من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد: فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها، وذلك من ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي هذا فأردد إليّ ما حملته إليك من الأموال وافتد نفسك به، وإلا فالسيف بيننا وبينك. فلما قرأ هارون الرشيد كتابه أخذه الغضب الشديد حتى لم يتمكن أحد أن ينظر إليه، ولا يستطيع مخاطبته، وأشفق عليه جلساؤه خوفاً منه، ثم استدعى بدواةٍ وكتب على ظهر الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم. قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام. ثم شخص من فوره وسار حتى نزل بباب هرقلة ففتحها واصطفى ابنة ملكها، وغنم من الأموال شيئاً كثيراً، وخرّب وأحرق، فطلب نقفور من الموادعة على خراجٍ يؤديه في كل سنة، فأجابه الرشيد إلى ذلك، فلما رجع من غزوته وصار بالرقة نقض الكافر العهد وخان الميثاق، وكان البرد قد اشتد جداً، فلم يقدر أحد أن يجيء فيخبر الرشيد بذلك لخوفهم على أنفسهم من البرد، حتى يخرج فصل الشتاء.

وفي العام التالي (١٨٨) خرج على رأس الصائفة إبراهيم بن إسرائيل فدخل بلاد الروم من درب الصفصاف فخرج نقفور للقائه، فانهزم نقفور، وجرح ثلاث جراح، وقُتل من جيشه أربعون ألفاً.

وفي عام ١٨٩ رابط القاسم بن الرشيد في مرج دابق. وفادى الرشيد الأسارى من المسلمين الذين كانوا ببلاد الروم، حتى لم يبق أسير واحد.

وفي عام ١٩٠ خرج الرشيد لغزو الروم، فخرج إليه نقفور بالطاعة، ودفع الجزية حتى عن نفسه، وعن ابنه، وكان مقدار الجزية خمسة عشر ألف دينار سنوياً. وطلب نقفور من الرشيد جاريةً أسرها المسلمون، هي

ابنة ملك هرقلة، فاشترط الرشيد عليه ألا يُعمّر هرقلة، وأن يدفع ثلاثمائة ألف دينار سنوياً. ورجع الرشيد، واستناب على الغزو عقبة بن جعفر.

ونقض أهل قبرص العهد فغزاهم معيوف بن يحيى، فسبى من أهلها كثيراً، وقتل كثيراً.

وفي عام ١٩١ غزا بلاد الروم يزيد بن مخلد الهبيري في عشرة آلاف، فأخذت عليه الروم المضيق فقتلوه في خمسين من أصحابه، على مرحلتين من طرسوس، وانهزم الباقون، وولّى الرشيد غزو الصائفة لهرثمة بن أعين، وضمّ إليه ثلاثين ألفاً. وخرج الرشيد إلى ثغر (الحدث) ليكون قريباً من الغزو. وأمر الرشيد بهدم الكنائس والأديرة، وألزم أهل الذمة بتمييز لباسهم وهيئاتهم في بغداد وغيرها من البلدان. ثم سار الرشيد في بلاد الروم فدخل مدينة هرقلة في شوال فخرّبها، وسبى أهلها، وبثّ الجيوش والسرايا بأرض الروم إلى عين زربة، والكنيسة السوداء.

وولّى الرشيد على سواحل بلاد الشام ومصر حميد بن معيوف فدخل قبرص، فسبى أهلها، وباعهم.

وفي عام ١٩٢ ولّى الرشيد على الثغور ثابت بن نصر بن مالك فدخل بلاد الروم، وفتح بلدة مطمورة، ثم جرى صلح بين المسلمين والروم.

* * *

الإمارات

بدأت الإمارات المستقلة عن جسم الدولة الإسلامية تظهر، وإن كانت تعود في نشأتها إلى وقتٍ مبكر. أكثر من هذا إذ ظهرت منذ قيام الدولة العباسية وبالتحديد عام ١٤٠ بالنسبة إلى دول الخوارج، وقبل ذلك بالنسبة إلى الأندلس غير أن العباسيين كانوا يحاولون القضاء على هذه الإمارات أو الدول، لذلك كانت تُعدّ حركاتٍ قائمةً في هذه المناطق، ولكن بعد ذاك تركتها الدولة العباسية وشأنها، وأصبحت إماراتٍ منفصلةً بل أعلنت الأندلس الخلافة فيما بعد، وغدت خلافتان في أرض الإسلام، وفي هذا مخالفة شرعية إذ لا يصحّ وجود سوى خليفةٍ واحدٍ. قال عرفجة بن شريح: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أتاكم وأمركم جميع على رجلٍ واحدٍ يريد أن يشق عصاكم، أو يفرّق جماعتكم، فاقتلوه»[1].

١ ـ الدولة الرستمية في تاهرت:

وتوفي مؤسسها عبد الرحمن بن رستم عام ١٧١ أي في أوائل عهد هارون الرشيد. وخلفه ابنه عبد الوهاب بن عبد الرحمن، واستمر حكمه إلى ما بعد أيام الرشيد، وقد هادن والي إفريقية من قبل الرشيد، وهو روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة والذي جاء إلى إفريقية بعد وفاة أخيه يزيد في نهاية عام ١٧٠ وتولى أمرها بعد ابن أخيه داود بن يزيد، ولكن روح قد مات عام ١٧٤، ثم جاء ابنه الفضل بن حاتم غير أن ثورة قامت في إفريقية وقضت على الفضل فتولّى أمر القيروان بعد ذلك

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة برقم ١٨٥٢ باب حكم من فرّق أمر المسلمين وهو مجتمع.

هرثمة بن أعين، وقد أخرجت الثورة في إفريقية آل المهلب من المنطقة، وهادن عبد الوهاب بن عبد الرحمن ولاة القيروان العباسيين سواء هؤلاء أم الذين جاءوا من بعد وهم الأغالبة الذين تولوا أمر القيروان منذ عام ١٨٤.

ولقي عبد الوهاب بن عبد الرحمن حركات ضده بسبب مخالفته المذهب الأباضي الذي لا يقبل بالحكم الوراثي، وإنما يكون الرأي في اختيار الحاكم لأهل الحل والعقد. أما عبد الوهاب فقد تسلّم الحكم من أبيه رغم وجود من هو أفضل منه وأكثر علماً لذا فقد قامت حركة قادها يزيد بن فندين وعرفت بالنُكّار أي الذين ينكرون تصرّف ولي الأمر بالحكم. وجرى قتال بين الطرفين كان في صالح ابن فندين فدعا عبد الوهاب إلى الهدنة لأخذ رأي أهل العلم الذين منهم من أفتى لصالح هذا، ومنهم من أفتى لصالح ذلك، وتجدّد القتال، وانتصر عبد الوهاب وقُتل ابن فندين، ولاذ جماعته بالفرار، منهم من خرج بعيداً عن المنطقة، ومنهم من اعتصم في محلتهم التي عرفت باسم «كدية النُكّار»، واستمر الخلاف طيلة أيام عهد الرشيد، وإن كان من غير المستبعد أن يكون أمراء القيروان يشجعون الحركات ضد الرستميين.

٢ ـ دولة بني مدرار في سجلماسة:

وتوفي أبو القاسم سمكو مؤسس دولة الخوارج الصفرية في سجلماسة عام ١٦٨، وخلفه ابنه إلياس بن أبي القاسم والذي عرف باسم «أبو الوزير»، واستمرت أيامه حتى عام ١٧٤، وخلفه أخوه اليسع بن أبي القاسم، وبقي في حكم هذه الدولة حتى عام ٢٠٨، وقد عرف باسم «أبو المنصور»، وقد ثارت الأباضية في أيامه في وادي (درعه) ولكنه قضى على ثورتهم وبطش بهم.

وكما هادن الأباضيون ولاة العباسيين في القيروان، وكذلك هادنهم الصفرية الذين اتجهوا نحو أوضاعهم الداخلية والاقتصادية حيث كانوا تجاراً بين الشمال والجنوب عبر الصحراء. وكذلك فقد جعلوا الحكم وراثياً كالأباضيين.

٣ ـ الأمويون في الأندلس:

حكم عبد الرحمن الداخل الأندلس ١٣٨ ـ ١٧٢ أي أنه عاصر الرشيد

مدة عامين، وعندما توفي تولّى بعده ابنه هشام الرضا، وقد حكم الأندلس مدة ثمانية أعوام ١٧٢ ـ ١٨٠، ووقع خلاف بينه وبين أخيه سليمان الذي هو أكبر منه، وقد أخذ سليمان البيعة لنفسه في طليطلة، ولكنه هزم أمام هشام عام ١٧٤، ونفي إلى المغرب. وبعد أن وطّد هشام حكمه اتجه إلى قتال النصارى في الشمال فأرسل إليهم حملات، كما أرسل جيوشاً إلى سبتمانيا في جنوبي فرنسا.

وخلفه ابنه الحكم الربضي، واستمر حكمه حتى عام ٢٠٦، ونازعه على الحكم عمّاه سليمان وعبد الله، أما سليمان فقد كان في طنجة وعبر إلى الأندلس بقوةٍ من المرتزقة ولكنه هزم وقتل عام ١٨٤، وأما عمه الآخر عبد الله فقد كان عند الخوارج الأباضيين في تاهرت بالمغرب الأوسط فانتقل إلى الأندلس غير أنه هزم، وعفا عنه ابن أخيه الحكم، وأجبره على الإقامة في بلنسية، ويدفع له مرتباً سنوياً ضخماً، كما قامت ضده عدة حركاتٍ أولاهما في طليطلة قضى عليها بالحيلة إذ ولّى عليها عمروس بن يوسف الذي تظاهر بكره الأمير (الحكم) ودعا كبار أهل البلدة إلى وليمة بالقلعة وتخلص منهم عام ١٨١. وكانت الحركة الثانية بالعاصمة قرطبة إذ حاصر قصر الحكم أهل حي الربض لخلافٍ بسيطٍ مع جندي فأرسل سراً من أشعل النار بحي الربض، فاضطر المحاصرون أن يتركوا مواقعهم ويتجهوا إلى حيّهم لإطفاء الحريق. وعندما انتهت الحركة أمر الأمير (الحكم) أن يهدم حي الربض، وأن يُحرث، ويُزرع مكانه، واضطر عدد من أهله إلى مغادرة الأندلس، فاتجه بعضهم إلى المغرب واستقروا عند الأدارسة هناك، وبين البربر. ووصل بعضهم الآخر عن طريق البحر إلى الإسكندرية ونزلوا فيها.

٤ ـ الأدارسة في المغرب:

فرّ إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب من الحجاز وقد نجا من معركة فخّ عام ١٦٩، واتجه نحو مصر، ومنها إلى المغرب حيث استطاع أن يؤسس بمساعدة السكان دولة الأدارسة عام ١٧٢،

وهي منفصلة عن المشرق، وبنى في المكان المعروف باسم (جراوة) مدينة فاس، واتخذها عاصمةً له، واستمر في حكمه حتى توفي عام ١٧٧ حيث مات مسموماً فخلفه ابنه إدريس الثاني الذي كان جنيناً في بطن أمه عندما مات أبوه، وقام بشؤون البربر مولى أبيه، وهو راشد، فلما قتل راشد، كفل إدريس أبو خالد العبدي، حتى كبر فتولى الأمر عام ١٨٨ وبنى مدينة العالية في المكان المعروف بدار القيطون، وهي مقابل مدينة فاس، يفصل بينهما وادٍ صغير، وهو رافد من روافد نهر (سبو). وقد سكن في هاتين المدينتين الذين فرّوا من الأندلس بعد معركة الربض عام ١٨١هـ، واستمر في الحكم حتى عام ٢١٣ حيث توفي بفاس.

٥ ـ الأغالبة:

أرسل أبو جعفر المنصور عام ١٤٨ إلى إفريقية الأغلب بن سالم التميمي[١] وعهد إليه بولايتها، فوصل إلى القيروان ودخلها، وتمكّن من دحر الحسن بن حرب الكندي والاستيلاء على القيروان وتخليصها منه، إلا أن الحسن بن حرب قد عاد إلى تونس وجهز حملةً ثانية استطاعت أن تقتل الأغلب. وكان للأغلب ولد عمره عشر سنوات حين قتل هو وهو إبراهيم بن الأغلب الذي سيلعب دوراً كبيراً في إفريقية، والذي يعد المؤسس لدولة الأغالبة.

رحل إبراهيم بعد مقتل أبيه إلى مصر، ودرس الفقه فيها، ثم رحل إلى المغرب، وأقام في إقليم الزاب بالمغرب الأوسط.

جاء والياً على إفريقية عمرو بن حفص المهلبي عام ١٥١ فاشتدت عليه الثورات حتى قتل، واستطاع خلفه يزيد بن حاتم بن قبيصة بن

---

(١) كان الأغلب بن سالم من دعاة العباسيين مع أبي مسلم، وشارك أبي جعفر المنصور في حصار يزيد بن عمر بن هبيرة في واسط أثناء الاحتدام بين العباسيين والأمويين، كما شارك أبا مسلم الخراساني في القضاء على حركة عبد الله بن علي عمّ المنصور. ثم أرسله المنصور مع قائده محمد بن الأشعث إلى إفريقية، وقد أصبح والياً عليها بعدها.

المهلب بن أبي صفرة أن يقمع حركات الخوارج حتى عام ١٧٠ حيث توفي، وجاء بعده ابنه داود بن يزيد، ثم أخوه روح بن حاتم، فالفضل بن روح، وفي ١٧٨ ثار عبدويه الأنباري وقتل الفضل بن روح بن حاتم المهلبي، وأخرج آل المهلب من إفريقية.

استطاع العلاء بن سعيد والي الزاب أن يسير إلى القيروان، وأن يستردها، وأن يسلّمها إلى هرثمة بن أعين الذي أرسله هارون الرشيد والياً على إفريقية عام ١٧٩، وكان إبراهيم بن الأغلب مع العلاء، وتقرّب إبراهيم بن الأغلب إلى هرثمة فولاه الزاب.

أرسل الرشيد أخاه من الرضاعة وهو محمد بن مقاتل العكي والياً على إفريقية فثار الشعب والجند ضده، كما ثار عليه واليه على تونس تمام بن تميم التميمي عام ١٨٣، وقد ساعد إبراهيم بن الأغلب العكي في مقاتلة تمام بن تميم، ومكّن له. فعزل الرشيد أخاه محمد بن مقاتل العكي وولى مكانه إبراهيم بن الأغلب على إفريقية عام ١٨٤، وبدأ إبراهيم منذ توليه الإمارة يعمل على تأسيس دولة له ولأبنائه من بعده.

عرف الرشيد رغبة إبراهيم بن الأغلب ومع ذلك فقد استبقاه في الإمارة بل ودعمه ما دام يعمل باسم العباسيين وخاصةً أن الرشيد كان مشغولاً بحروب الروم، وهجوم الخزر، ومشكلات المشرق، وفي الوقت نفسه يريد أن يحمي الأجزاء الغربية من الإمارات التي قامت في المغرب والأندلس من خوارج، وأدارسة، وأمويين. ولم يكن لدى الرشيد أسطول يحمي أقاليم البحر المتوسط فاكتفى بالإشراف على دولة إبراهيم بن الأغلب ورأى في ذلك خيراً وأفضل من أن يخرجوا من إشرافه نهائياً كباقي الإمارات.

ثار على إبراهيم بن الأغلب في المغرب الأدنى حمديس الكندي ولكنه هزم أمام ابن الأغلب. وثار أهل طرابلس عام ١٨٩ على سفيان بن المهاجر عامل إبراهيم على مدينتهم، ولكن ابن الأغلب تمكّن من إخضاعهم، وهكذا قامت دولة الأغالبة في المغرب الأدنى.

ـ ٦ ـ

الأمين

محمّد بن هارون

١٩٣ - ١٩٨ هـ

ولد الأمين بالرصافة في شهر شوال من عام ١٧٠ فهو أصغر من أخيه المأمون بحوالي سبعة أشهر، وبويع له بولاية العهد وهو ابن خمس سنين، وقد لقي الرشيد نقداً من هذه البيعة لفتى صغير، ولكن يبدو أن ضغطاً خضع له من زوجه زبيدة صاحبة الحظوة عنده، فهي ابنة عمه، وصاحبة دين وعقل، ومن العباسيين الذين يرون في هذا الغلام صلة لهم فهو عباسي من ناحية الأب والأم. وكانت السرعة في هذه البيعة خوفاً من نزول حادث مفاجئ بالرشيد، ومن منازعة أخيه الأكبر، فإن البيعة وهما صغيران تحلّ المشكلة. غير أن الرشيد لم يلبث عام ١٨٢ من أخذ البيعة لابنه المأمون ولياً لعهد أخيه الأمين، ثم أتبعها ببيعةٍ ثالثةٍ لابنه الآخر القاسم، وقد أطلق عليه لقب المؤتمن. وقد ولّى كلّ واحدٍ من أبنائه الثلاثة جهةً إذ ولّى المأمون المشرق، وأعطى الأمين المغرب الشامي والمصري، وولّى المؤتمن الجزيرة والثغور.

وعندما شبّ الأولاد يبدو أن الرشيد كان أميل لبيعة المأمون منه لبيعة الأمين وذلك لما رأى من جدية المأمون، وحزمه، وعزمه، وحكمته، على حين كان الأمين أميل للهو، وعدم المبالاة، والدعة. غير أن الرشيد يخضع لمؤثراتٍ أخرى سواء في بيته أم في أسرته الذين كانوا أميل للأمين لأسباب أسرية أو بالأحرى عاطفية.

ويبدو أن الرشيد أراد أن يوثّق بين أبنائه، ويؤكّد ما بينهم ولكنه كان في الوقت نفسه يزيد في البعد بينهم. فلما حجّ الرشيد عام ١٨٦ كان معه ولداه محمد الأمين، وعبد الله المأمون، وقواده، وقضاته، ووزراؤه، أما

ابنه الثالث القاسم المؤتمن فقد أرسله إلى منبج ومن ضمّ إليه من القواد والجند. فلما قضى الرشيد مناسكه كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين، أجهد الفقهاء والقضاة آراءهم فيهما، أحدهما على محمد بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه من تسليم ما ولي عبد الله من أعمال، وصيّر إليه من الضياع والغلّات والجواهر والأموال، والآخر نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله على محمد وعليهم، وجعل الكتابين في البيت الحرام بعد أخذه البيعة على محمد، وإشهاده عليه بها الله، وملائكته، ومن كان في الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتّابه وغيرهم.

وكانت الشهادة بالبيعة والكتاب في البيت الحرام، وتقدّم إلى الحجبة في حفظهما، ومنع من أراد إخراجهما والذهاب بهما، فذكر عبد الله بن محمد، ومحمد بن يزيد التميميّ، وإبراهيم الحجبي، أنّ الرشيد حضر وأحضر وجوه بني هاشم والقوّاد والفقهاء، وأُدخلوا البيت الحرام، وأمر بقراءة الكتاب على عبد الله ومحمد، وأشهد عليهما جماعة من حضر، ثمّ رأى أن يُعلّق الكتاب في الكعبة، فلما رُفع ليُعلق وقع، فقيل: إن هذا الأمر سريع انتقاضه قبل تمامه. وكانت نسخة الكتاب:

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب لعبد الله هارون أميرالمؤمنين، كتبه محمد بن هارون أمير المؤمنين، في صحةٍ من عقله، وجوازٍ من أمره، طائعاً غير مكره. إن أمير المؤمنين ولاّني العهد من بعده، وصيّر البيعة لي في رقاب المسلمين جميعاً، وولّى عبد الله بن هارون العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين بعدي، برضىً مني وتسليم، طائعاً غير مكره، وولاّه خراسان وثغورها وكورها وحربها وجندها وخراجها وطرزها[1] وبريدها، وبيوت أموالها، وصدقاتها وعشرها وعشورها، وجميع أعمالها، في حياته وبعده. وشرطت لعبد الله هارون أمير المؤمنين برضىً مني وطيب نفسي،

---

(١) الطراز: ما ينسج من ثياب للسلطان.

أنّ لأخي عبد الله بن هارون عليّ الوفاء بما عقد له هارون أمير المؤمنين من العهد والولاية والخلافة وأمور المسلمين جميعاً بعدي، وتسليم ذلك له؛ وما جعل له من ولاية خراسان وأعمالها كلّها، وما أقطعه أمير المؤمنين من قطيعةٍ، أو جعل له من عُقدة[١] أو ضيعة من ضياعه، أو ابتاع من الضياع والعقد، وما أعطاه في حياته وصحته من مال أو حلى أو جوهر، أو متاع أو كسوة، أو منزل أو دواب، أو قليل أو كثير؛ فهو لعبد الله بن هارون أمير المؤمنين، موفّراً مسلّماً إليه. وقد عرفت ذلك كله شيئاً شيئاً.

فإن حدث بأمير المؤمنين حدث الموت، وأفضت الخلافة إلى محمد ابن أمير المؤمنين، فعلى محمد إنفاذ ما أمره به هارون أمير المؤمنين في تولية عبد الله بن هارون أمير المؤمنين خراسان وثغورها ومن ضمّ إليه من أهل بيت أمير المؤمنين حيث كان عبد الله ابن أمير المؤمنين بقرماسين[٢] وأن يمضي عبد الله ابن أمير المؤمنين إلى خراسان والريّ والكور التي سمّاها أمير المؤمنين حيث كان عبد الله ابن أمير المؤمنين من معسكر أمير المؤمنين وغيره من سلطان أمير المؤمنين وجميع من ضم إليه أمير المؤمنين حيث أحب، من لدن الريّ إلى أقصى عمل خراسان. فليس لمحمد ابن أمير المؤمنين أن يحوّل عنه قائداً ولا مقوداً ولا رجلاً واحداً ممن ضُمَّ إليه من أصحابه الذين ضمهم إلى أمير المؤمنين. ولا يحوّل عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولاّه إياه هارون أمير المؤمنين من ثغور خراسان وأعمالها كلها، ما بين عمل الريّ مما يلي همذان إلى أقصى خراسان وثغورها وبلادها، وما هو منسوب إليها، ولا يشخصه إليه، ولا يفرق أحداً من أصحابه وقواده عنه، ولا يولّي عليه أحداً، ولا يبعث عليه ولا على أحدٍ من عماله وولاة أموره بُنداراً[٣]، ولا محاسباً ولا عاملاً، ولا يدخل

---

(١) العقدة: الضيعة والعقار الذي اعتقده صاحبه ملكاً.

(٢) قرماسين: اسم بلدة في خراسان.

(٣) البندار: كلمة فارسية تعني العامل في الميناء الذي يجبي أعشار السفن.

عليه في صغير من أمره ولا كبير ضرراً، ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كله برأيه وتدبيره، ولا يعرض لأحدٍ من ضمّ إليه أمير المؤمنين من أهل بيته وصحابته وقضاته وعماله وكتّابه وقوّاده وخدمه ومواليه وجنده؛ بما يلتمس إدخال الضرر والمكروه عليهم في أنفسهم ولا قراباتهم ولا مواليهم، ولا أحد بسبيل منهم، ولا في دمائهم ولا في أموالهم ولا في ضياعهم ودورهم ورباعهم وأمتعتهم ورقيقهم ودوابهم شيئاً من ذلك صغيراً ولا كبيراً، ولا أحد من الناس بأمره ورأيه وهواه، وبترخيص له في ذلك وإدهان منه فيه لأحد من ولد آدم، ولا يحكم في أمرهم ولا أحد من قضاته ومن عماله وممن كان بسبب منه بغير حكم عبد الله ابن أمير المؤمنين ورأيه ورأي قضاته.

وإن نزع إليه أحد ممن ضمّ أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين من أهل بيت أمير المؤمنين وصحابته وقوّاده وعماله وكتابه وخدمه ومواليه وجنده، ورفض اسمه ومكتبه ومكانه مع عبد الله ابن أمير المؤمنين عاصياً له أو مخالفاً عليه؛ فعلى محمد ابن أمير المؤمنين ردّه إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين بصغرٍ له وقماءٍ حتى ينفذ فيه رأيه وأمره.

فإن أراد محمد ابن أمير المؤمنين خلع عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية العهد من بعده، أو عزل عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولاية خراسان وثغورها وأعمالها، والذي من حدّ عملها مما يلي همذان والكوز التي سمّاها أمير المؤمنين في كتابه هذا أو صرف أحد من قواده الذين ضمّهم أمير المؤمنين ممن قدم «قرماسين»، أو أن ينتقصه قليلاً أو كثيراً مما جعله أمير المؤمنين له بوجهٍ من الوجوه، أو بحيلةٍ من الحيل؛ صغُرت أو كبُرت، فلعبد الله بن هارون أمير المؤمنين الخلافة بعد أمير المؤمنين، وهو المقدّم على محمد ابن أمير المؤمنين، وهو ولي الأمر بعد أمير المؤمنين والطاعة من جميع قواد أمير المؤمنين هارون من أهل خراسان وأهل العطاء وجميع المسلمين في جميع الأجناد والأمصار لعبد الله ابن أمير المؤمنين، والقيام معه، والمجاهدة لمن خالفه، والنصر له، والذبّ عنه؛ ما كانت

الحياة في أبدانهم. وليس لأحدٍ منهم جميعاً من كانوا، أو حيث كانوا، أن يخالفه ولا يعصيه، ولا يخرج من طاعته، ولا يطيع محمد ابن أمير المؤمنين في خلع عبد الله بن هارون أمير المؤمنين وصرف العهد عنه من بعده إلى غيره، أو ينتقصه شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون في حياته وصحته، واشترط في كتابه الذي كتبه عليه في البيت الحرام في هذا الكتاب. وعبد الله ابن أمير المؤمنين المصدّق في قوله، وأنتم في حلّ من البيعة التي في أعناقكم لمحمد ابن أمير المؤمنين إن نقص شيئاً مما جعله له أمير المؤمنين هارون، وعلى محمد بن هارون أمير المؤمنين أن ينقاد لعبد الله ابن أمير المؤمنين هارون ويسلّم له الخلافة.

وليس لمحمد ابن أمير المؤمنين هارون ولا لعبد الله ابن أمير المؤمنين أن يخلعا القاسم ابن أمير المؤمنين هارون، ولا يقدّما عليه أحداً من أولادهما وقراباتهما ولا غيرهم من جميع البرية، فإذا أفضت الخلافة إلى عبد الله ابن أمير المؤمنين، فالأمر إليه في إمضاء ما جعله أمير المؤمنين من العهد للقاسم بعده، أو صرف ذلك عنه إلى من رأى من ولده وإخوته، وتقديم من أراد أن يقدّم قبله، وتصيير القاسم ابن أمير المؤمنين بعد من يقدّم قبله، يحكم في ذلك بما أحب ورأى.

فعليكم معشر المسلمين إنفاذ ما كتب به أمير المؤمنين في كتابه هذا، وشرط عليه، وأمر به، وعليكم السمع والطاعة لأمير المؤمنين فيما ألزمكم وأوجب عليكم لعبد الله ابن أمير المؤمنين، وعهد الله وذمّته وذمّة رسوله ﷺ وذمم المسلمين والعهود والمواثيق التي أخذ الله على الملائكة المقربين والنبيين والمرسلين، ووكّدها في أعناق المؤمنين والمسلمين، لتفُنّ لعبد الله أمير المؤمنين بما سمّى، ولمحمد وعبد الله والقاسم بني أمير المؤمنين بما سمّى وكتب في كتابه هذا، واشترط عليكم وأقررتم به على أنفسكم، فإن أنتم بدّلتم من ذلك شيئاً، أو غيّرتم، أو نكثتم، أو خالفتم ما أمركم به أمير المؤمنين، واشترط عليكم في كتابه هذا، فبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله محمد ﷺ وذمم المؤمنين والمسلمين، وكل مالٍ هو

اليوم لكل رجل منكم أو يستفيده إلى خمسين سنة فهو صدقة على المساكين، وعلى كل رجلٍ منكم المشي إلى بيت الله الحرام الذي بمكة خمسين حجّة، نذراً واجباً لا يقبل الله منه إلاّ الوفاء بذلك؛ وكل مملوك لأحدٍ منكم ـ أو يملكه فيما يستقبل إلى خمسين سنة ـ حرّ، وكل امرأةٍ له فهي طالق ثلاثاً البتة طلاق الحرج، لا مثنوية[1] فيها. والله عليكم بذلك كفيل وراعٍ وكفى بالله حسيباً.

نسخة الشرط الذي كتب عبد الله ابن أمير المؤمنين بخط يده في الكعبة.

هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين، كتبه له عبد الله بن هارون أمير المؤمنين، في صحةٍ من عقله، وجوازٍ من أمره، وصدق نيّةٍ فيما كتب في كتابه هذا، ومعرفةً بما فيه من الفضل والصلاح له ولأهل بيته وجماعة المسلمين، إن أمير المؤمنين هارون ولاّني العهد والخلافة وجميع أمور المسلمين في سلطانه بعد أخي محمد بن هارون، وولاّني في حياته ثغور خراسان وكورها وجميع أعمالها، وشرط على محمد بن هارون الوفاء بما عقد لي من الخلافة وولاية أمور العباد والبلاد بعده، وولاية خراسان وجميع أعمالها، ولا يعرض لي في شيءٍ مما أقطعني أمير المؤمنين، أو ابتاع لي من الضياع والعقد والرباع أو ابتعت منه من ذلك، ومما أعطاني أمير المؤمنين من الأموال والجوهر والكساء والمتاع والدواب والرقيق وغير ذلك، ولا يعرض لي ولا لأحدٍ من عمالي وكتّابي بسبب محاسبة، ولا يتّبع لي في ذلك ولا لأحدٍ منهم أبداً، ولا يُدخل عليّ ولا عليهم ولا على من كان معي ومن استعنت به من جميع الناس مكروهاً، في نفس ولا دم ولا شعرٍ ولا بشرٍ ولا مال، ولا صغير من الأمور ولا كبير. فأجابه إلى ذلك، وأقرّ به وكتب له كتاباً، أكّد فيه على نفسه ورضي به أمير المؤمنين هارون وقبله، وعرف صدق نيته فيه. فشرطت لأمير المؤمنين وجعلت له على

---

(١) لا مثنوية: لا استثناء.

نفسي أن أسمع لمحمد وأطيع ولا أعصيه، وأنصحه ولا أغشّه، وأوفي بيعته وولايته، ولا أغدر، ولا أنكث، وأنفذ كتبه وأموره، وأحسن مؤازرته وجهاد عدوه في ناحيتي، ما وفى لي بما شرط لأمير المؤمنين في أمري، وسمّى في الكتاب الذي كتبه لأمير المؤمنين، ورضي به أمير المؤمنين، ولم ينقض أمراً من الأمور التي شرطها أمير المؤمنين لي عليه.

فإن احتاج محمد ابن أمير المؤمنين إلى جند، وكتب إليّ يأمرني بإشخاصه إليه، أو إلى ناحيةٍ من النواحي، أو إلى عدوٍ من أعدائه؛ خالفه أو أراد نقص شيء من سلطانه أو سلطاني الذي أسنده أمير المؤمنين إلينا وولاّنا إياه؛ فعليّ أن أنفذ أمره ولا أخالفه، ولا أقصّر في شيءٍ كتب به إليّ. وإن أراد محمد أن يولّي رجلاً من ولده العهد والخلافة من بعدي؛ فذلك له ما وفى لي بما جعله أمير المؤمنين إليّ واشترطه لي عليه، وشرط على نفسه في أمري، وعليّ إنفاذ ذلك والوفاء له به، ولا أنقص من ذلك ولا أغيّره ولا أبدّله، ولا أقدّم قبله أحداً من ولدي، ولا قريباً ولا بعيداً من الناس أجمعين؛ إلاَّ أن يولّي أمير المؤمنين هارون أحداً من ولده العهد من بعدي، فيلزمني ومحمداً الوفاء له.

وجعلت لأمير المؤمنين ومحمد عليّ الوفاء بما شرطت وسمّيت في كتابي هذا، ما وفى لي محمد بجميع ما اشترط لي أمير المؤمنين عليه في نفسي، وما أعطاني أمير المؤمنين من جميع الأشياء المسمّاة في هذا الكتاب الذي كتبه لي، وعليّ عهد الله وميثاقه وذمة أمير المؤمنين وذمتي وذمة آبائي وذمم المؤمنين وأشد ما أخذ الله على النبيين والمرسلين من خلقه أجمعين، من عهوده ومواثيقه، والأيمان المؤكّدة التي أمر الله بالوفاء بها، ونهى عن نقضها وتبديلها، فإن أنا نقضت شيئاً مما شرطت وسمّيت في كتابي هذا أو غيّرت أو بدّلت، أو نكثت أو غدرت، فبرئت من الله عزّ وجلّ ومن ولايته ودينه، ومحمد رسول الله ﷺ، ولقيت الله يوم القيامة كافراً مشركاً؛ وكل امرأةٍ هي لي اليوم أو أتزوجها إلى ثلاثين سنة طالق ثلاثاً ألبته طلاق الحرج؛ وكل مملوكٍ هو لي اليوم أو أملكه إلى ثلاثين سنة أحرار لوجه الله، وعليّ

المشي إلى بيت الله الحرام، الذي بمكة ثلاثين حجّةً، نذراً واجباً عليّ في عنقي حافياً راجلاً؛ لا يقبل الله منّي إلا الوفاء بذلك، وكل مالٍ لي أو أملكه إلى ثلاثين سنة هدي بالغ الكعبة، وكل ما جعلت لأمير المؤمنين وشرطت في كتابي هذا لازم لا أضمر غيره، ولا أنوي غيره.

وشهد سليمان ابن أمير المؤمنين وفلان وفلان. وكتب في ذي الحجة سنة ستٍ وثمانين ومائة.

فلما فرغ أمير المؤمنين من ذلك كله في داخل بيت الله الحرام وبطن الكعبة، أمر قضاته الذين شهدوا عليهما، وحضروا كتابهما، أن يُعلموا جميع من حضر الموسم من الحاجّ والعمّار ووفود الأمصار ما شهدوا عليه من شرطهما وكتابهما، وقراءة ذلك عليهم ليفهموه ويعوه، ويعرفوه ويحفظوه، ويؤدوه إلى إخوانهم وأهل بلدانهم وأمصارهم، ففعلوا ذلك، وقرئ عليهم الشرطان جميعاً في المسجد الحرام، فانصرفوا. وقد اشتهر ذلك عندهم، وأثبتوا الشهادة عليه، وعرفوا نظر أمير المؤمنين وعنايته بصلاحهم وحقن دمائهم، ولمّ شعثهم وإطفاء جمرة أعداء الله؛ أعداء دينه وكتابه وجماعة المسلمين عنهم، وأظهروا الدعاء لأمير المؤمنين والشكر لما كان منه في ذلك.

كما كتب الرشيد بذلك إلى عماله[١].

كان الأمين سميناً أبيض، أقنى الأنف، صغير العينين، فصيحاً، يقول الشعر. وقد تأدّب على الكسائي، وقرأ القرآن عليه، ولكنه كان يلهو بالصيد، ويكثر من إنفاق الأموال، واقتناء السودان. ويكنى بأبي عبد الله، كما كان يكنى بأبي موسى.

توفي الرشيد في الثاني من جمادى الآخرة في طوس، وهو في طريقه إلى خراسان. وكان الرشيد قد أخذ البيعة ممن معه من الجند إلى المأمون

---

(١) تاريخ الطبري، الجزء الثامن.

على أن يكونوا معه. وكان الأمين ببغداد، أما المأمون فكان بمرو حاضرة خراسان. ولما توفي الرشيد صلّى عليه ابنه صالح، وكان أكبر ولده الذين معه، ثم كتب صالح إلى أخيه الأمين يعلمه بما حلّ، ويبايعه، ووصل الخبر إلى الأمين يوم الخميس منتصف جمادى الآخرة، وكتم الخبر حتى اليوم التالي فنعى الرشيد للناس يوم الجمعة وأخذ منهم البيعة.

أما الجند الذين كانوا مع الرشيد بطوس فقد رجع بهم الفضل بن الربيع إلى بغداد.

وأما المأمون فقد استشار من معه من القادة، فأشار بعضهم بإجبار هؤلاء الجند الذين مع الفضل بن الربيع بالعودة إلى المأمون إذ أخذ الرشيد منهم البيعة له على أن يكونوا بجانبه، وأشار بعضهم الآخر بالاكتفاء بإرسال كتابٍ إليهم يأمرهم بالعودة ويسألهم الوفاء، ويحذّرهم الحنث، وما يلزمهم في ذلك في الدنيا والدين. ومع أن بعض الوجوه قد أوهموا المأمون أن بيعة الجند بطوس للرشيد كانت البيعة للمأمون بالخلافة، غير أن المأمون قد أرسل بالسمع والطاعة لأخيه الأمين. وإن الأمين قد أقرّ لأخويه بما تحت يديهما فالمأمون على خراسان وجميع أعمالها، والمؤتمن على الجزيرة والثغور.

ثم إن الأمين قد عزل عام ١٩٤ أخاه المؤتمن عن الجزيرة والثغور، وولّى عليها مكانه خزيمة بن خازم. كما دعا لولده موسى على المنابر من بعده، ثم للمأمون والقاسم وذلك بوحي الفضل بن الربيع وتخطيطه إذ كان يخشى المأمون. فلما بلغ المأمون ذلك قطع البريد عن الأمين، وأسقط اسمه من الطّرز.

وطلب رافع بن الليث الأمان من المأمون فأمّنه فجاء إليه فأكرمه وقدّمه، وانتهت أحداث سمرقند، فرجع هرثمة بن أعين الذي كان مكلّفاً بحرب رافع فأكرمه المأمون وقرّبه، واجتمعت القادة عند المأمون فكره الأمين ذلك، وأرسل رسلاً للمأمون إلا أنّ أحدهم وهو العباس بن موسى

قد انحاز إلى جانب المأمون فرجع إلى بغداد فكان عين المأمون فيها وخاصة أنه من كبار أهل البيت ووجهاء القوم.

وألحّ الفضل بن الربيع على الأمين في أخذ البيعة لابنه موسى وقد سمّاه الناطق بالحق، فسار الأمين وراء الفضل وخلع أخاه، ومزّق الكتاب الذي أودعه أبوه في جوف الكعبة، وبدأ يدعو لولده.

وفي عام ١٩٥ عقد الأمين لعلي بن عيسى بن ماهان بالإمرة على الجبل وهمذان وأصبهان وقم، وأمره بحرب المأمون، وجهّز معه جيشاً كبيراً، وخرج مشيعاً له، وتمكّن هذا الجيش من الوصول إلى الريّ فتلقّاه طاهر بن الحسين قائد المأمون في أربعة آلاف، فاقتتل الطرفان فقتل علي بن عيسى بن ماهان في المعركة وانهزم أصحابه، ووصل الخبر إلى الأمين في شوال فتأثر أشدّ التأثر، وجهّز جيشاً قوامه عشرين ألفاً بإمرة عبد الرحمن بن جبلة الأنباري، ووجهه إلى همذان ليقاتل طاهر بن الحسين، ولكنه هُزم فلجأ وجنوده إلى همذان حيث اعتصموا فيها فحاصرهم طاهر بن الحسين، فطلبوا منه الأمان فأمّنهم، ووفى لهم، ولكنهم لم يلبثوا أن غدروا بأصحابه إذ داهموهم على حين غرّةٍ وقتلوا منهم عدداً كبيراً، فنهض إليهم طاهر وقاتلهم، فقتل عبد الرحمن بن جبلة الأنباري في شهر ذي الحجة، وفرّ من نجا من القتل، ووصل الخبر إلى بغداد فخاف الناس وكثرت الأراجيف.

ووجه الأمين عام ١٩٦ أحمد بن يزيد في عشرين ألفاً، وعبد الله بن حميد بن قحطبة في مثلهم أيضاً لقتال طاهر بن الحسين غير أن طاهر استعمل الحيلة، وأوقع بين الأميرين فعادا من غير قتال. وعندها أمر المأمون طاهر بن الحسين أن يسير إلى الأهواز ويأخذها، ويسلّم ما تحت يده إلى هرثمة بن أعين ففعل.

أرسل الأمين إلى الشام عبد الملك بن صالح بن علي فسار إلى أهلها، وتحبب إليهم، وأمله أن يجمع الجند لدعم الأمين، غير أن

عبد الملك لم يلبث أن مات بالرقة فتولى أمر الجند الحسين بن علي بن ماهان فعاد بهم إلى بغداد، فدعاه الأمين ليلاً فرفض الحضور وفي الصباح اجتمع عليه الناس، فأرسل إليه الأمين من يحضره فقاتلهم وهزمهم، وألبّ على الأمين، وأنكر عليه لهوه، ودعا إلى بيعة المأمون، وأصبح الرجل القوي.

ضيّق الحسين بن علي بن ماهان على الأمين، ونقله إلى قصر أبي جعفر وسط بغداد، كما أمر العباس بن موسى بن عيسى زبيدة أم الأمين أن تنتقل قهراً من قصرها. وقد انقسم أهل بغداد إلى قسمين، جماعة معه، وأخرى ضده، وأخيراً تغلّبت جماعة الأمين، وقبضت على الحسين بن علي بن ماهان غير أن الأمين قد عفا عنه واستوزره ولكنه فرّ منه على غفلةٍ منه فأرسل إليه الأمين من أدركه وقتله، وجددت العامة البيعة للأمين. واقترب طاهر بن الحسين من بغداد فعاد الناس إلى الاختلاف إذ خلعت أكثر الأقاليم الأمين وبايعت للمأمون. وحجّ في هذا العام العباس بن موسى بن عيسى من قبل المأمون، ودعا هناك له، فكان أول موسم يُدعى فيه للمأمون.

شدّد طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين الحصار على بغداد، وهرب منها القاسم بن الرشيد وعمه المنصور بن المهدي وسارا إلى المأمون فأكرمهما، وولّى أخاه القاسم جرجان، وضعف أمر الأمين كثيراً وخاصةً بعد أن وضع طاهر بن الحسين يده على الضياع والإنتاج، ودعا الأمراء إلى بيعة المأمون وقد أجابه عدد كبير منهم عبد الله بن حميد بن قحطبة ويحيى بن علي بن ماهان، وكثُر أنصار المأمون في حين لم يبقَ عند الأمين ما ينفقه على نفسه وجنده.

دخل طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين بغداد عام ١٩٨ واشتد القتال فيها، وتفرّق عن الأمين أصحابه، فجمع من بقي معه، وشاورهم في الأمر، فمنهم من أشار عليه بالذهاب إلى الجزيرة والشام ومواصلة القتال، ومنهم من أشار عليه بطلب الأمان من طاهر بن الحسين فإن أخاه المأمون

به رحيم، ومنهم من رأى أن يكون طلب الأمان من هرثمة بن أعين، فسار إلى هرثمة وطلب منه الأمان فأمّنه، وركب معه في سفينة، فبلغ الخبر طاهر بن الحسين فغضب فأغرق السفينة، ونجا الأمين سباحةً، والتجأ إلى بيتٍ فسارت إليه جماعة من العجم وقتلته في البيت الذي كان فيه وذلك يوم الأحد الرابع من صفر من عام ثمان وتسعين ومائة.

كان الأمين كثير اللهو، محب الصيد، مكثر من اقتناء السودان والخصيان، تاركاً أمور الدولة، وأما ما أشيع من شربه للخمر فغير ثابت، فقد وجد أبا نواس سجيناً مع الزنادقة في سجن الرشيد وذلك في أول تولّيه الخلافة فأخرجه من السجن، فلما علم بشربه الخمر أعاده إلى السجن ثانيةً.

مَعَ الرُّوم

لم تحدث حروب واسعة مع الروم أيام الأمين، إذ كان الروم مشغولين بأحداثهم الداخلية كالمسلمين، فقد مات نقفور عام ١٩٣ في حربه مع البرغان بعد أن ملكَ تسع سنوات، وخلفه ابنه استبراق، وكان جريحاً، فلم يلبث أن مات بعد شهرين من حكمه، فخلفه ختنه، زوج أخته، ميخائيل بن جورجس، ثم ترك ميخائيل الحكم عام ١٩٤ بعد أن أحسّ الغدر من الروم إذ حاولوا قتله، وأصبح بعدها راهباً، وتولّى حكم الروم بعده إليون.

❋ ❋ ❋

الحركات[7]

عندما تولى الأمين الخلافة كانت حركة رافع بن الليث لا تزال قائمةً، وقد كُلّف هرثمة بن أعين بالقضاء عليها، وقد تمكّن هرثمة في بداية أيام الأمين من حصار رافع في مدينة سمرقند، ثم دخل حائطها، فلجأ رافع إلى داخل المدينة وراسل الترك فوافوه، وأصبح هرثمة بين الترك ورافع محصوراً، ثم رجع الترك فضعُف أمر رافع.. ثم راسل المأمون وطلب منه الأمان فأمّنه، فجاء رافع إليه فأكرمه المأمون وقدّمه.

وثار أهل حمص على عاملهم إسحاق بن سليمان الذي ولاّه الأمين عليهم، فانتقل إسحاق إلى بلدة السلمية، وأرسل الأمين مكانه عبد الله بن سعيد الحرشي ومعه عافية بن سليمان، فسجن عدداً من وجهاء مدينة حمص، وأحرق بعض أحيائها، فسأله أهل المدينة الأمان فأجابهم، وسكنوا ثم ثاروا، فضرب أعناق بعضهم.

وفي عام ١٩٥ ظهر بالشام السفياني وهو علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ودعا إلى نفسه، وقد حاصر والي الأمين على دمشق وهو سليمان بن أبي جعفر، غير أن الوالي قد تمكن من الهرب من دمشق، فأرسل الأمين إلى السفياني الحسين بن علي بن ماهان، فلما وصل إلى الرقة أقام بها، ولم ينفذ إليه.

الإمارات

بقيت الإمارات التي كانت أيام الرشيد هي نفسها أيام ابنه الأمين، فدولة الخوارج الصفرية في سجلماسة، ويحكمها أبو المنصور اليسع بن أبي القاسم.

ودولة الخوارج الأباضيين في تاهرت، ويحكمها عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وهي الدولة المعروفة بالرستمية، وقد قامت عليه بعض الحركات من الخوارج أنفسهم.

أما الأمويون في الأندلس فقد قوي أمرهم، وكان الحكم هناك للحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، وهو المعروف باسم الحكم الربضي.

وكانت دولة الأدارسة تحت حكم إدريس الثاني.

وفي القيروان كانت دولة إبراهيم بن الأغلب يقوى أمرها، وقد ثار عليها في تونس عمران بن مخالد التميمي عام ١٩٥، غير أن هذه الحركات لم يُكتب لها النجاح، وتوفي إبراهيم بن الأغلب عام ١٩٦، وخلفه ابنه عبد الله أبو العباس.

وجاءت أيام المأمون ولم تزل الإمارات المستقلة مقتصرةً على الجناح الغربي من الدولة الإسلامية، وتتدرج في خلافها للعباسيين من الشرق إلى الغرب، فالأغالبة يعدّون عمالاً للعباسيين والخوارج يهادنون الدولة في بغداد وعمّالها في القيروان، فالأدارسة الذين يختلفون معهم حتى نصل إلى الأندلس الذين هم في عداءٍ مع العباسيين.

-٧-

المَـأمـون

عَبْدُاللهبن هَارُون

١٩٨-٢١٨هـ

ولد المأمون في منتصف ربيع الأول من عام ١٧٠ في اليوم الذي توفي فيه عمه موسى الهادي، وبويع فيه أبوه الرشيد، وأمه أم ولد، وتسمى مراجل.

بويع ولياً للعهد بعد أخيه الأمين عام ١٨٢ مع أنه أكبر منه بسبعة أشهر، وبويع بالخلافة يوم الخميس ٢٥ محرم عام ١٩٨ قبيل مقتل أخيه الأمين بعشرة أيام تقريباً مع أنه قد دُعي له بالخلافة مرةً من قبل عامين، والأمين محصور في بغداد.

كان المأمون أبيض جميلاً، طويل اللحية، ضيق الجبهة، بخده خال أسود.

بعد مقتل الأمين ولّى المأمون الحسن بن سهل الجبال، وفارس، والأهواز، والبصرة، والكوفة، والحجاز، واليمن، وولّى طاهر بن الحسين الموصل، والجزيرة، والشام، والمغرب، وطلب منه أن ينتقل إلى الرقة، وعهد إليه حرب نصر بن شبث. وبقي المأمون في مرو وكأنه رمز لأمير المؤمنين، والولاة الكبار يرسلون العمال عنهم إلى الأمصار، ويتصرفون بشؤون البلاد، وهذا ما أضعف هيبة الحكم، وأطمع فيه، ما دام المسؤولون عنه ليسوا من العباسيين. كما طلب المأمون من هرثمة بن أعين أن يرتحل إلى خراسان.

وجاء الحسن بن سهل إلى بغداد ليتولّى ويرسل عماله منها. وحدثت حركات في بغداد نقمة على الحسن بن سهل الذي كان بالمدائن، ونقمة لما حدث من موت هرثمة بن أعين في السجن بشكلٍ غامضٍ فيه كثير من

الشائعات، وأخرجوا علي بن هشام والي الحسن على بغداد، وكما شارك في هذه الأحداث زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذي كان بالسجن وأفلت منه.

وراود أهل بغداد المنصور بن المهدي على الخلافة فأبى عليهم، وطلبوه على الإمارة في بغداد باسم المأمون فوافق على ذلك فأمّروه عليهم.

وبايع المأمون ولياً لعهده علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وسمّاه الرضا من آل محمد، وطلب من جنده طرح السواد ولبس الخضرة فأغضب ذلك آل العباس، فبايع أهل بغداد عمّ المأمون إبراهيم بن المهدي وسمّوه المبارك، وبايعوا من بعده ولياً لعهده ابن أخيه إسحاق بن موسى بن المهدي، وخلعوا المأمون، وذلك في أول يوم من عام ٢٠١.

وأخبر المأمون بأسباب ما حدث من ترك أمر الدولة للحسن بن سهل ولأخيه الفضل بن سهل الذي ينقل له الأخبار مشوهةً غير صحيحة، وبُعده من مركز حكمه، فكان أن جاء إلى بغداد عام ٢٠٢، وقُتل الفضل بن سهل بظروفٍ غامضةٍ، وتزوج المأمون بوران ابنة الحسن بن سهل، كما زوّج ابنته أم حبيب لعلي الرضا، وابنته الثانية أم الفضل لمحمد بن علي بن موسى.

ومات علي الرضا فجأةً، وهو مع المأمون، أثناء قدومهم إلى بغداد، وعند مرورهم بطوس، فدفنه جانب أبيه الرشيد، وهو الذي صلّى عليه، وكاتب الحسن بن سهل وأهل بغداد بأن السبب الذي نقموا عليه قد زال بوفاة علي الرضا.

واختلف أهل بغداد ثانيةً، وانتصر خصوم إبراهيم بن المهدي فخلعوه، فاختفى، وبايعوا للمأمون، وكتب المأمون لطاهر بن الحسين أن يوافيه بالنهروان، فترك طاهر الرقة وسار إليه.

أما هرثمة بن أعين فعندما انتهى من أبي السرايا أرسل له المأمون

كتاباً يوليه فيه الشام أو الحجاز، ولكنه أحب المسير إلى المأمون، فسار إليه إلى مرو، وكان الفضل بن سهل قد أوغر عليه صدره فاتهمه بتحريض أبي السرايا الذي لم يكن إلا أحد رجاله، وأنه كان في الواقع بجانبه، فلما وصل هرثمة إلى مرو وبّخه المأمون وبكّته ثم سجنه، وبعد أيام مات بالسجن ـ والله أعلم ما سبب موته ـ.

ودخل المأمون بغداد فولّى أخاه صالح بن الرشيد على البصرة، وولّى عبيد الله بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب على الحرمين. وأعطى طاهر بن الحسين ولاية خراسان من بغداد إلى أقصى مشرق الدولة الإسلامية. وولّى يحيى بن معاذ الجزيرة، وعيسى بن محمد بن أبي خالد أرمينيا وأذربيجان وكلفه بمحاربة بابك الخرّمي، وأما مصر فكانت للسريّ بن الحكم. وولى طاهر بن الحسين ابنه عبد الله مكانه على الرقة وأمره بقتال نصر بن شبث، وعندما مات يحيى بن معاذ عام ٢٠٥ أصبح عبد الله والياً على الجزيرة.

وتوفي طاهر بن الحسين فجأةً عام ٢٠٧ فتولّى ابنه طلحة المصر مدة سبع سنوات، وقيل باسم أخيه عبد الله، وعندما توفي طلحة، انتقل عبد الله إلى مرو. وكان أحمد بن أبي خالد يساعد طلحة في خراسان ويقوم له بالأمر.

وظفر المأمون بعمه إبراهيم بن المهدي عام ٢٠٩ متخفياً بلباس امرأةٍ، كما ظفر ببعض الذين بايعوه، وتكلم الحسن بن سهل بإبراهيم فعفا عنه المأمون، ولكنه قتل بعض أنصاره.

وأظهر المأمون عام ٢١٢ القول بخلق القرآن، وتفضيل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، على سائر الصحابة، وقال: هو أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ. وفي عام ٢١٨ حدثت المحنة للعلماء بسبب القول بخلق القرآن،وقد تعرّض عدد منهم للتعذيب ومنهم الإمام أحمد بن حنبل.

وبايع من بعده لأخيه المعتصم أبي إسحاق محمد بن الرشيد. وبينما هو في بلاد الروم إذ أدركته الوفاة في ٢٥ محرم من عام ٢١٨ فدفن في طرسوس.

الحركات[*]

لا شك في أن الخلاف على السلطة يقلّل من هيبة الحكم، ويدع المجال لكلّ طامعٍ في أن يُظهر نفسه، ولكلّ من يُفكّر بالإمرة أن يدعو لنفسه، وأكثر من هذا فيما إذا كان الخلاف بين جماعة الحكم أو أفراد الأسرة الحاكمة إن كان الحكم وراثياً. فلما وقع الخلاف بين الأخوين الأمين والمأمون شجّع عدداً في الظهور وقيادة حركات تناوئ السلطة.

ولا شك أن الحركات التي قامت أيام المأمون بل التي تقوم في كل وقت تختلف في دعوتها، وشعارها، وأهدافها، وزعامتها. ولما كان المجتمع الإسلامي في الدولة الإسلامية ينقاد للإسلام وإلى دعوته وشعاره وهدفه لذا فإن الزعماء يتفقون في هذه الأمور ولكنهم يختلفون فيمن يدعون له، فمن يجد في نسبه مجالاً لالتفاف الناس حوله يدعو علناً لنفسه، ومن لم يجد يختفي وراء أسماء موهومة أو غير ظاهرة.

١ - ثار الحسن الهِرْش يدعو إلى الرضا من آل محمد، وقد جبى الأموال، وأغار على التجار، ونهب القرى، واستاق المواشي وذلك عام ١٩٨، وعاث في الأرض فساداً تحت شعار هذه الدعوة، وسار إليه أزهر بن زهير بن المسيب فقتله في شهر المحرم من عام ١٩٩، ولم تدم هذه الحركة أكثر من شهرين، ولكن كان لها أثر إذ كانت مجالاً للاختفاء تحت أسماء غامضةٍ والانطلاق من ورائها، كما كانت مجالاً لادعاء نسبٍ كاذبٍ كي ينقاد له الناس وغالباً ما يكون نسباً لآل البيت.

٢ - وفي الكوفة نقم على المأمون محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب المعروف بابن طباطبا

نقم عليه لسوء تصرفه، ولتملك الفضل بن سهل وأخيه الحسن من دون بني هاشم، وكان قائده السري بن منصور والمعروف بأبي السرايا. وكان عامل الحسن بن سهل على الكوفة سليمان بن أبي جعفر المنصور، ويقوم مقامه خالد بن محجّل الضبي. وقد أخرج ابن طباطبا عامل العباسيين على الكوفة وسيطر على المنطقة.

أرسل الحسن بن سهل زهير بن المسيب في عشرة آلاف مقاتل فهزموا أمام أبي السرايا الذي استولى على ما كان مع الجيش العباسي من مالٍ وسلاحٍ وعتادٍ، وفي اليوم التالي مات ابن طباطبا فجأةً، ويقال: إن أبا السرايا قد سمّه ليستبد بالأمر ـ والله أعلم ـ. وأقام أبو السرايا فتًى صغيراً مكان ابن طباطبا هو محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وبقي هو يسيّر الأمور. وكان أبو السرايا من قبل من رجال هرثمة بن أعين.

سار عبدوس بن محمد بن أبي خالد في أربعة آلاف مقاتل إلى أبي السرايا فهُزم الجمع وقُتلوا كلهم. ودخل أبو السرايا البصرة وواسط، واتجه نحو المدائن فدخلها، ولكنه لم يلبث فيها إلا قليلاً حيث هزم فيها وأُخرج منها.

وهاج الطالبيون في الكوفة وانطلق محمد بن محمد بن زيد على رأس الجموع إلى دور بني العباس في الكوفة، فانتهبوها، وأحرقوها، وأخرجوا بني العباس من مدينتهم.

ووجّه أبو السرايا حسين بن الحسن الأفطس بن علي بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب إلى مكة ليأخذها ويقيم للناس الحج، فلما وصل إلى ضواحي مكة لم يجرؤ على دخولها فحجّ الناس عامهم بلا إمام إذ خرج من مكة واليها العباسي داود بن عيسى، ولم يرغب في قتال في بيت الله الحرام، واتجه نحو العراق. وبعد الموسم دخل الحسين بن الحسن الأفطس بعد أن شجّعه بعض الطالبيين فاستولى على مكة واستقرّ فيها.

ووجّه أبو السرايا أيضاً إلى المدينة محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب فدخلها دون قتال.

وفي عام ٢٠٠ توجه هرثمة بن أعين إلى أبي السرايا فدارت الدائرة على هرثمة، ثم كانت له، وفرّ أبو السرايا من الكوفة، وسار إلى واسط فهُزم أيضاً هرثمة هزيمة نكراء، وفرّ مع من بقي معه يريد بلدة رأس العين، وفي الطريق قُبض عليهم فأخذوا إلى الحسن بن سهل فقُتلوا.

أما البصرة فبقيت بيد زيد بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذي عُرف باسم زيد النار لكثرة ما أحرق من دور العباسيين في البصرة ولكنه هُزم أيضاً، وأُخذ أسيراً فسُجن في بغداد.

وأما الحسين بن الحسن الأفطس فقد كرهه أهل مكة لما أساء ولما أقام من ظلم، وحين رأى الطالبيون انصراف الناس عنهم ولّوا عليهم محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب على كرهٍ منه إذ كان مخالفاً لتصرّف أهل بيته، محبوباً عند الناس، وهو من أهل العلم والفضل، أخذ العلم عن أبيه جعفر الصادق ـ رحمه الله ـ وأطلقوا عليه اسم أمير المؤمنين، ولم يكن له من الأمر شيء، وإنما المتصرف بشؤون البلد هو ابنه علي والحسين بن الحسن الأفطس، والظلم قائم.

وجاء إسحاق بن موسى من اليمن مغادراً لها. ومرّ على مكة فقاتل الطالبيين أياماً ثم كره الحرب، فتركهم وسار نحو العراق فجاءته نجدة فرجع إلى مكة فهزم الطالبيين ودخل مكة وتفرّق الطالبيون في البلاد. ولكن عاد محمد بن جعفر، وأعلن خلع نفسه، وجدّد بيعته للمأمون، واعتذر مما كان قد حدث منه.

٣ ـ وخرج في اليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وقد سار إليها من مكة عندما بلغه خروج أبي السرايا في الكوفة، ولما وصل إليها غادرها واليها إسحاق بن

موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، وفعل كما فعل عمه داود بن عيسى في مكة. ولما سيطر على اليمن أرسل أحد أحفاد عقيل بن أبي طالب ليقيم للناس الحج، ولكنه لم يجرؤ على دخول مكة لوجود أبا إسحاق محمد بن الرشيد فيها، ولذا فقد اعترض الحجاج وسلبهم... فأرسل إليه أبو إسحاق من قتله وأخذ منه ما سلب فأعاده إلى الحجاج، وعاد بقية جمعه إلى اليمن.

٤ ـ وثب أخو أبو السرايا عام ٢٠٢ بالكوفة فبيّض، ولكنه قتل بأول لقاء، وأرسل رأسه إلى إبراهيم بن المهدي في بغداد.

٥ ـ خرج في بغداد المطوّعة بزعامة خالد الدريوش، وسهل بن سلامة الأنصاري ضد الفساق والشطّار الذين كثر بلاؤهم، وانتشر فسقهم، وعمّ اعتداؤهم.

٦ ـ تحرّك الخوارج بإمرة مهدي بن علوان فسار إليهم أبو إسحاق محمد بن الرشيد فهزمهم.

٧ ـ خرج عام ٢٠٧ عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ببلاد (عك) باليمن يدعو إلى الرضا من آل محمد، وكان خروجه بسبب سوء تصرف العمال في تلك الجهات، فأرسل له المأمون دينار بن عبد الله، وكتب معه كتاب أمان لعبد الرحمن، فحضر دينار الموسم، واتجه إلى اليمن، فلما وصل إلى تلك الجهات أعطى كتاب الأمان لعبد الرحمن، فقبل ذلك منه، وأقبل إليه، وسار معه إلى بغداد.

٨ ـ وفرّ الحسن بن الحسين بن مصعب من خراسان إلى بلاد كرمان، وتحصّن بها، فسار إليه أحمد بن أبي خالد، فقبض عليه، وأرسله إلى المأمون، فعفا عنه، وذلك عام ٢٠٨.

٩ ـ وثار نصر بن شبث العقيلي، وكان أسلافه من رجالات بني أمية، ونقم على العباسيين، لانصرافهم عن تقديم العرب، حسبما ارتأى، فلما مات هارون الرشيد وحدث الخلاف بين الأمين والمأمون زادت نقمته،

فعندما بويع المأمون رفض بيعته، ثار في (كيسوم)[1] شمالي حلب حيث كان يقيم وتغلّب على ما جاورها من البلدان، وملك (سُمَيْساط)[2]، وانتقل إلى الجانب الشرقي من الفرات، واجتمع عليه كثير من الأعراب، وقوي أمره، وحاصر حران عام ١٩٩، وحاول أن يتقرّب إليه الطالبيون، فلم يقرّهم على رأيهم، كما رفض البيعة لبعض أفراد بني أمية. وكان عبد الله بن طاهر في الرقة مكلّفاً بحربه حتى عام ٢٠٤، ثم أصبح عبد الله والياً على الجزيرة عام ٢٠٥، ومكلّفاً بالمهمة نفسها، وطالت حرب نصر، حتى ضيّق عليه عبد الله وحصره عام ٢٠٩، وأعطاه المأمون أماناً فوافق ضمن شروط، منها ألا يطأ بساط المأمون، فرفض الخليفة شرطه، واشتد عبد الله بن طاهر في حربه، وطال حصاره في كيسوم، وانتهى أمره بالاستسلام عام ٢١٠، فسيّره عبد الله إلى المأمون، وهو ببغداد، فدخلها في صفر عام ٢١٠.

١٠ ـ وخرج في مصر عبيد الله بن السريّ فلما انتهى عبد الله بن طاهر من قتال نصر بن شبث وجهه المأمون إلى مصر، وتمكّن من هزيمة ابن السريّ وحصاره في الفسطاط، وإرغامه على الاستسلام والموافقة على طلب الأمان. وسار عبد الله بعدها إلى الإسكندرية وقد غلب عليها بعض الأندلسيين الذين انتقلوا من الأندلس بعد موقعة الربض، فآذنهم بالحرب إن لم يُعلنوا الطاعة، ثم اتفق معهم على أن يخرجوا إلى إحدى بلاد الروم وليس إلى البلاد الإسلامية، وأن يقيموا فيها وفعلاً فقد خرجوا إلى جزيرة كريت (إقريطش)، واستقروا فيها بعد أن غلبوا عليها، وذلك عام ٢١١.

١١ ـ وخلع أهل (قم) الطاعة مستكثرين ما عليهم من خراج فأرسل إليهم علي بن هشام فأخضعهم وهدم سور (قم).

---

(١) كيسوم: من أعمال سميساط فيها حصن كبير على قلعة كانت لنصر بن شبث.

(٢) سُمَيْساط: مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات، ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن.

١٢ ـ وفي عام ٢١٣ خرج في مصر عبد السلام، وابن جليس، فسار إليهم عام ٢١٤ المعتصم أبو إسحاق بن الرشيد، وقبض عليهما وقتلهما.

١٣ ـ وفي السند خالف بشر بن داود بن يزيد المهلبي عام ٢١٣ فولّى المأمون على السند غسّان بن عبّاد فاستأمنه بشر عام ٢١٦ فأمّنه، وعفى عنه.

١٤ ـ وخرج عام ٢١٤ بلال الضبّابي الشاري فوجه المأمون إليه ابنه العباس ومعه علي بن هشام، وهارون بن محمد بن أبي خالد، واستطاع هارون أن يقتل بلالاً.

هذه الحركات الكثيرة التي قامت أيام المأمون إن دلت على شيء فإنما تدل على ضعف هيبة الحكم الذي نتج عن الخلاف بين الأخوين على السلطة، ثم بقاء المأمون مدة من الزمن بعيداً عن مركز الحكم في مرو الأمر الذي أطمع الكثير من الطامحين بالمخالفة وعدم الطاعة، وإن قوي الحكم نسبياً عندما رجع المأمون إلى بغداد إذ بدأ يتعرف على الأوضاع بنفسه وعلى قرب منها بينما كانت تصل إليه كثير من الأمور مغلوطةً أو تخفى عنه عن طريق الحسن بن سهل.

١٥ ـ وأعظم الحركات التي قامت أيام المأمون هي حركة بابك الخرميّ الذي كان فقيراً وضيعاً إذ مات أبوه وهو صغير، وقد يكون مجهول النسب، وعمل راعياً لمساعدة أمّه. هذه النشأة قد أثرت على نفسية بابك وجعلته يحقد على مجتمعه وعقيدته. وعمل خادماً بعد ذاك عند «جاويذان بن سهرك» فأخذ عنه بعض الأفكار الخرّمية التي تقوم على العقيدة بالتناسخ، والاعتقاد بوجود إلهين أحدهما للنور والآخر للظلمة، والقول بإباحة النساء، وقد تكون هذه الأفكار وجدت لها مكاناً في نفسية بابك السيئة، والتي تحمل حقداً على الناس. وعندما مات «جاويذان بن سهرك» ورثه بابك بتدبيرٍ وتخطيطٍ من زوجة «جاويذان» التي تزوجت بعد ذلك بابك.

وجد بابك الخرّمية على شيءٍ من القوة فتحرّك عام ٢٠١، واستطاع أن يُحرز بعض النصر، وأن يستولي على بعض القلاع، وكان المأمون لا يزال في مرو فعندما جاء إلى بغداد أرسل الولاة وبعث الجيوش لقتال بابك، وحدث قتال بين يحيى بن معاذ والي الجزيرة وبين بابك عام ٢٠٤ ولم يظفر أحدهما بالآخر. ومات يحيى عام ٢٠٥، واستمر قتال بابك من قبل والي أذربيجان وأرمينيا عيسى بن محمد بن أبي خالد الذي بعث حملةً إلى الخرمي استمر تجهيزها سنةً كاملةً، ولكنه هُزم.

وولّى المأمون على أذربيجان وأرمينيا زريق بن علي بن صدقة الأزدي فندب أحمد بن الجنيد لقتال بابك وذلك عام ٢٠٩ فتمكّن بابك من أسر أحمد بن الجنيد.

ولّى المأمون على أذربيجان إبراهيم بن الفضل التجيبي، فكان القتال مع بابك ضعيفاً، وأرسل المأمون عام ٢١٢ محمد بن حميد الطوسي لقتال بابك فتمكّن بابك من محمد بن حميد وقتله عام ٢١٤، وكان لقتله أكبر الأثر في نفس المأمون بل ونفوس المسلمين جميعاً. وقد رثاه أبو تمام في قصيدته المشهورة التي مطلعها:

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر فليس لعينٍ لم يفض ماؤها عذر

وفيها يقول:

ألا في سبيل الله من عُطلت له فجاج سبيل الله وانثغر الثغر
تُوفِّيت الآمال بعد محمَّدٍ وأصبح في شُغلٍ عن السفر السفر
فتىً مات بين الطعن والضرب ميتةً تقوم مقام النصر إن فاته النصر
تردّى ثياب الموت حمراً فما دجى لها الليل إلاّ وهي من سندسٍ خضر

وقوي أمر بابك، وبعث له المأمون عام ٢١٨ إسحاق بن إبراهيم غير أن المأمون قد توفي، ولم يعلم بالنصر الذي أحرزه إسحاق على الخرّمية، إلا أن أمرهم بقي قوياً فجاء المعتصم ليتابع ما بدأ به المأمون وقد حصل على ما يريد.

الفتوحات

حدثت فتوحات قليلة أيام المأمون، وبالأصل فإن الفتوحات أيام الدولة العباسية تعدّ محدودةً وعلى نطاقٍ ضيقٍ، بل تمّ توقف الفتوحات الواسعة منذ أواخر الدولة الأموية.

فتح والي طبرستان عام ٢٠٢ (اللاز) و (الشيزر) من بلاد الديلم، وأصبحت هاتين المنطقتين ضمن أرض الدولة الإسلامية منذ ذلك اليوم.

وفتح أحمد بن أبي خالد (أشروسنة) في بلاد ما وراء النهر عام ٢٠٧.

أما الروم فقد بقوا يعانون من مشكلاتهم الداخلية. في عام ٢٠٠ قتل الروم ملكهم إليون، وأعادوا ميخائيل بن جورجس حاكماً عليهم مرةً ثانيةً، وبعد أن حكم إليون ست سنوات، وبقي ميخائيل ملكاً حتى توفي عام ٢٠٩، فخلفه ابنه تيوفيل بن ميخائيل، فلما قوي أمره كان بابك الخرمي قد اشتد ساعده في منطقة أذربيجان القريبة من بلاد الروم، وهذا ما أخاف المأمون من أن يحدث تعاون بين العدوين اللدودين للإسلام هذا من جهة ومن جهةٍ ثانيةٍ فقد كان المأمون قد انتقل إلى بغداد وتعرّف على حالة البلاد بشكل جيد لذا فقد رغب أن يقاتل الروم لتقوى هيبة المسلمين في نظرهم، ويمنعهم من مدّ يد المساعدة لبابك الخرمي، ولينصرف الناس عن المشكلات الداخلية بتوجيههم نحو الخارج.

سار المأمون بنفسه لحرب الروم عام ٢١٥ عن طريق بغداد - الموصل - منبج - دابق - إنطاكية - المصيصة - طرسوس، ومن طرسوس دخل بلاد الروم، وفتح حصن «قره» عنوةً وهدّمه، ثم دخل حصن «ماجدة» وعفا عن أهله، وخرج من بلاد الروم إلى دمشق.

وعاد عام ٢١٦ إلى غزو بلاد الروم، وربما كان الغزو في هذه المرة بسبب اعتداء الروم على أهل طرسوس والمصيصة، وخرج المأمون من بلاد الروم إلى دمشق ومصر.

وغزا الروم أيضاً عام ٢١٧، كما وجه ابنه العباس لحرب الروم عام ٢١٨، كما انطلق هو بنفسه على رأس جيش، وأدركته المنية في بلاد الروم حيث نُقل إلى طرسوس ودفن فيها.

ويبدو أن المأمون قد شعر ما آل إليه العرب من رفاهيةٍ فركنوا إليها وتركوا القتال بل إن ذلك قد أضعف عندهم روح الجهاد، كما أن الفرقة قد عصفت ريحها عليهم فمزّقتهم، وأطمعت بعضهم بالمراكز فشجّع ذلك المتمردين وقوّى أمرهم، وأمر الفرس كان قريباً من أمر العرب إضافةً إلى أن بعضهم، وإن كانوا قلةً، لا تزال أفكار المجوسية تراودهم، كما تراودهم فكرة الدولة الفارسية القديمة وأمجادها ـ على حدّ زعمهم ـ لذا فقد بثّوا بعض أفكارهم واستغلّوا بعض أبناء جنسهم باسم العصبية أحياناً، وباسم المعرفة والبساطة أحياناً أخرى، لذا فقد طلب المأمون من أخيه المعتصم أن يجلب الجند الأتراك إذ كانوا على درجةٍ من القوة لم تُفسد طباعهم الرفاهية بعد، كما لم تمزّقهم الخلافات إلى ذلك الحين.

ويمكن أن نعدّ من الفتوحات ما تمّ في بلاد النوبة، والبجاة، وكان النوبيون النصارى قد وقفوا في وجه الفتوحات الإسلامية، وعقدوا صلحاً مع المسلمين، ولكنهم لم يلبثوا أن نقضوا هذا الصلح، فقاتلهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح عام ٣١هـ وأجبرهم على عقد صلح جديدٍ. ثم تجمّعوا من جديد عام ١١٨ للوالي عبيد الله بن الحبحاب الذي هادنهم إذ كان مشغولاً بأحداث إفريقية. ولكن هؤلاء النوبيين والبجاة لم يحفظوا هذا العهد وكثُرت تعدّياتهم على منطقة أسوان، وزاد أذاهم أيام المأمون فقاتلهم، وعقد معهم عهداً جديداً عُدّت بلادهم ضمن أرض الدولة الإسلامية، وأهم شروط هذا العهد:

١ ـ أن تكون بلاد البجاة من حدود أسوان إلى البلاد التي تمتد بين

دهلك[1] وباضع[2] مُلكاً للخليفة، وأن يكون كنّون بن عبد العزيز ملكاً على البجاة.

٢ ـ أن يؤدي ملك البجاة كل عام الخراج على ما كان عليه أسلافه مائة من الإبل وثلاثمائة دينار.

٣ ـ أن يحترم البجاة الإسلام، وألا يذكروه بسوءٍ، ولا يُعينوا أحداً على أهله.

٤ ـ ألا يمنعوا أحداً من المسلمين من الدخول في بلادهم والتجارة فيها براً وبحراً.

٥ ـ ألا يمنعوا أحداً من المسلمين تاجراً أو مُقيماً أو مُجتازاً أو حاجّاً، فهو آمن حتى ينزح من بلادهم.

٦ ـ إذا نزل البجاة صعيد مصر مُجتازين أو تُجّاراً فلا يُظهرون سلاحاً ولا يدخلون المدن والقرى بحال[3].

كما فتحت جزيرة صقلية في عهد المأمون على يد الأغالبة ـ كما سيأتي إن شاء الله ـ.

* * *

(١) دهلك: جزر في البحر الأحمر مقابل ميناء مصوع الإريتري.

(٢) باضع: ميناء قديم جنوب مصوع.

(٣) تاريخ الإسلام ـ حسن إبراهيم حسن ـ الجزء الثاني.

الإمارات

لم يتغير وضع الإمارات كثيراً في مغرب الدولة الإسلامية، وإنما كانت استمراراً لما حدث في عهد أسلاف المأمون.

١ ـ الدولة الرستمية:

كانت دولة الخوارج الأباضيين في تاهرت تحت حكم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وقد توفي عام ٢٠٨، وخلفه ابنه أفلح بن عبد الوهاب، وبقي يحكم هذه الدولة حتى عام ٢٥٨ أي إلى آخر أيام هذه الدولة.

٢ ـ دولة بني مدرار:

كانت دولة بني مدرار، وهم من الخوارج الصفرية، تحت حكم أبي المنصور اليسع بن أبي القاسم، وقد توفي عام ٢٠٨، وخلفه ابنه مدرار بن أبي المنصور، وتزوج ابنة عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية الأباضية السابقة الذكر، وأنجب منها ولداً أسماه ميموناً، وعرف باسم ميمون ابن الرستمية وذلك لأن مدراراً كان له ولد آخر يحمل الاسم نفسه «ميمون» ومن زوجة ثانية اسمها (بقية) لذا قيل له ميمون بن بقية. وقد حدث الخلاف بين هذين الأخوين فيما بعد.

٣ ـ الدولة الأموية في الأندلس:

كان حاكم الأندلس أيام المأمون الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، وهو المعروف بالربضي، وتولّى الحكم عام ١٨٠ وبقي في الحكم

حتى عام ٢٠٦، وخرج عليه عمّاه واستوليا على طليطلة وبلنسية، فحاربهم الحكم، واسترد البلاد التي استوليا عليها. واستغل النصارى في الشمال هذا الخلاف وهاجموا أرغونة إلا أن الحكم استطاع أن يردّهم على أعقابهم خاسرين.

وثار على الحكم والي برشلونة واستنجد بشارلمان ملك الفرنج غير أنه فشل في ثورته.

ولما توفي الحكم عام ٢٠٦ خلفه ابنه عبد الرحمن الذي عرف باسم عبد الرحمن الأوسط، وفي عهده استتب الأمن، وساد النظام فانصرف إلى العلم والبناء والاهتمام بشؤون الدولة، كما اعتنق في أيامه الإسلام عدد كبير من النصارى الإسبان. ومع الحرية والأمن التي عاش بهما النصارى إلا أنه قد نشأت عندهم حركات الاستخفاف وهي شتم رسول الله ﷺ، والكلام السيء عن كتاب الله القرآن وذلك بتحريض بعض رجال الدين.

وفي عهد عبد الرحمن الأوسط هاجم أمير ليون وبعض أمراء نصارى في الشمال البلاد الإسلامية غير أنهم لم يظفروا بشيء.

٤ ـ الأدارسة:

كان همّ إدريس الثاني حرب الصفرية من الخوارج، وقد توفي عام ٢١٣، وهو في السادسة والثلاثين من العمر، وخلفه ابنه محمد بن إدريس، وفي عهده اختلف الأدارسة إذ نازعه أخوه عيسى بن إدريس وكان والياً على أزمور، فأراد أن يستعين عليه بأخيه القاسم بن إدريس والي طنجة غير أن القاسم قد رفض ذلك، فاستنجد بأخيه عمر والي مكناس فساعده، وهزم أخويه اللذين في أزمور وطنجة.

٥ ـ الأغالبة:

تولى حكم الأغالبة في القيروان عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب عام ١٩٦، وهو المعروف باسم عبد الله الأول، والمكنى بأبي العباس، وكان

سيء السيرة، وزاد في الضرائب، وملّ الناس حكمه حتى أهله وعشيرته، وتوفي عام ٢٠١، وخلفه أخوه زيادة الله بن إبراهيم أبو محمد الذي قضى ست سنوات آمناً هادئاً، وفي سنة ٢٠٧ ثار عليه زياد بن سهل المعروف بابن الصقلبية، وحاصر مدينة باجه فسيّر إليه زيادة الله العساكر، فأزالوه عنها وقتلوا من وافقه على المخالفة[1].

وفي عام ٢٠٨ ثار على زيادة الله بتونس منصور بن نصير فأرسل له جيشاً بقيادة محمد بن حمزة فهزم، فبعث له جيشاً آخر بقيادة الأغلب بن عبد الله بن الأغلب، وهدّد الجيش بالقتل إن هُزم فهُزموا فخافوا من العودة إلى العباسية فالتحقوا بالثائر منصور، واستولوا على عدة مدن.

وسار منصور إلى القيروان وحاصرها ولكنه هُزم، وعاد منصور ثانيةً إلى حصار القيروان عام ٢٠٩، ولم يبقَ تحت يد زيادة الله سوى قابس، والساحل، وطرابلس، وقد ضرب منصور السكة باسمه، ولم تنته ثورة منصور إلا عام ٢١١ حيث اختلف منصور مع قائده عامر بن نافع الأمر الذي مكّن لزيادة الله.

وفي عهد زيادة الله فتحت جزيرة صقلية.

سبق أن غزا المسلمون جزيرة صقلية أيام معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهما، يوم كان والي مصر وإفريقية معاوية بن حديج، وكان الغزو بقيادة عبد الله بن قيس الفزاري.

ثم غزا المسلمون الجزيرة ثانيةً عام ١٠٣ أيام يزيد بن عبد الملك إذ سار إليها محمد بن إدريس الأنصاري وقد غنم كثيراً.

وغزا المسلمون في إفريقية صقلية عام ١٢٢، واستولى حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري على مدينة سرقوسة على ساحل الجزيرة الشرقي.

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير ـ الجزء الخامس.

وغزاها أيضاً عبد الرحمن بن حبيب عام ١٣٠ ولكن أقدام المسلمين لم تثبت إلا أيام الأغالبة.

ففي سنة ٢١١ عيّن إمبراطور القسطنطينية ميخائيل الثاني على جزيرة صقلية قسطنطين البطريق، فاستعمل قسطنطين هذا على الأسطول رجلاً رومياً اسه فيمي، فأغار فيمي على سواحل إفريقية ونهبها، وبقي مدةً فيها، ولما وصل نبأ هذه الغارة إلى امبراطور الروم كتب إلى عامله على صقلية قسطنطين يأمره بالقبض على فيمي، ولما بلغ الخبر فيمي أخبر أصحابه وأثارهم فاتجهوا إلى صقلية مُغاضبين ومُخالفين واستولوا على سرقوسة، وسار إليهم قسطنطين فهُزم إلى مدينة قطانيا شمال سرقوسة، فتبعه جيش أخذه وقتله، ونودي بفيمي ملكاً على الجزيرة، ثم ثار عليه أحد عمّاله على بعض نواحي الجزيرة، ووالي «بلرم»، وساروا إليه، واستولوا على سرقوسة ففرّ منهم، واتجه إلى إفريقية وأرسل إلى زيادة الله يستنجده بحكم الجزيرة.

جهز زيادة الله جيشاً كبيراً بإمرة قاضي القيروان أسد بن الفرات[(١)]، فانتصر المسلمون، ثم جاءت نجدات من الروم إلى نصارى صقلية، كما انقلب عليهم فيمي، وحلّ الوباء بالمسلمين، ومات أميرهم أسد بن الفرات، لذا لم يستطع المسلمون أن يتوغلوا داخل الجزيرة.

ولّى المسلمون عليهم محمد بن أبي الجواري، وجاءتهم نجدة من القيروان، كما وصلت إلى الجزيرة سفن من الأندلس فساعدت المسلمين، فحاصر المسلمون مدينة «بلرم» عام ٢١٥، ورغم عودة الأندلسيين فقد تمكّن المسلمون من فتح مدينة «بلرم» عام ٢١٦، وتوفي المأمون ولا يزال الفتح في جزيرة صقلية.

---

(١) أسد بن الفرات بن سنان مولى بني سليم، أبو عبد الله: ولد عام ١٤٢ بحران، وأصله من خراسان. رحل أبوه في جيش ابن الأشعث إلى القيروان فحمله معه وهو طفل، فنشأ بها. ثم بتونس، ورحل عام ١٧٢ إلى المشرق في طلب الحديث، ثم عاد إلى القيروان، وولي قضاءها عام ٢٠٤، وهو من أصحاب مالك وله مصنف «الأسدية» في فقه المالكية.

- ٨ -

المعتَصِم

محمَّد بن هَارُون الرَّشيد

٢١٨ - ٢٢٧هـ

ولد محمد المعتصم بن الرشيد ببغداد في العاشر من شهر شعبان من عام تسعة وسبعين ومائة. وهو أحد ستة أولاد للرشيد كل منهم يدعى محمداً، ويُكنّى المعتصم أبا إسحاق. كان مربوعاً، أبيض مشرّباً بالحمرة، حسن العينين... ضعيف الكتابة أقرب إلى الأمية، قوياً، شجاعاً، له همة عالية في الحروب، ومهابة عظيمة في القلوب. أمه تدعى: «ماردة» أم ولد، ومن مولدات الكوفة، وكانت أمها صغدية.

ولي الخلافة في الثاني عشر من شهر رجب عام ٢١٨ بعد وفاة أخيه المأمون، وكان قد أوصى له بحضور ابنه العباس بن المأمون، وقد سعى بعض الأمراء في ولاية العباس بن المأمون فخرج عليهم العباس وقال: إني قد بايعت عمي المعتصم. ورجع المعتصم إلى بغداد من طرسوس بعد دفن أخيه.

كان على المعتصم أعمال جسام منها قتال بابك والقضاء عليه، وقد تمكّن من ذلك، ومنها حرب الروم وتأديبهم على مناصرتهم أعداء الدولة وخاصةً بابك، وقد استطاع ذلك.

واستخدم المعتصم الجند الترك وأكثر من ذلك حتى زاد أذاهم في بغداد، وتضايق الناس منهم، حتى اضطر أن يُقيم مدينة سامراء في مكان «القاطول» حيث كان يصيف الرشيد أحياناً أو يقضي بعض وقته، وهي إلى الشمال من بغداد على بعد مائة كيلو متر منها، وانتقل إليها عام ٢٢٠. ولعلّ من الأمور التي استدعت المعتصم إلى زيادة الجند الأتراك قضية ابن أخيه العباس بن المأمون إذ ندم على ما يظهر على هذه البيعة بعد أن لامه

عدد من الأمراء والقادة، وحرّضه بعضهم على المخالفة والفتك بعمّه وخاصةً عندما كان معه في طريقهما إلى عمورية، غير أن العباس رفض ذلك كي لا يحرم المسلمين من الغزو، وفي العودة حرّضه بعض الأمراء للفتك بعمّه في بعض الفجاج فأحسّ المعتصم بذلك فقبض على العباس وقيّده وسجنه، وحقق في الموضوع حتى أحاط بكل دقائقه، ثم قتله ومن كان معه في هذه القضية، وربما أكثر المعتصم بعدها من جلب الأتراك إذ أن عدداً من الأمراء بدا عليه الخوف، ولم يعُد يأمنهم.

وغضب المعتصم على قائده الإفشين بما وصل إليه من تشجيعه لمازيار، كما اتُهِم أنه من وراء «منكجور»، وتغيّر فلما شعر الإفشين بهذا التغيّر، فكر بالفتك بالمعتصم وقوّاده بالسمّ، كما فكر بالفرار إلى أرمينيا، ومنها إلى بلاد الخزر، فاستدعاه وحبسه وذلك في عام ٢٢٥، ولم يلبث أن مات الأفشين في السجن عام ٢٢٦. وأما ابنه الحسن بن الأفشين فقد كتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر أن يحتال عليه، فكتب عبد الله بن طاهر للحسن بولايته على المشرق مكان نوح بن أسد، وكتب إلى نوح يأمره أن يعتقل الحسن عندما يأتي إليه، وكانت ضغائن بين نوح والحسن. وسار الحسن بن الأفشين إلى المشرق ليتولى أمره من نوح فقبض عليه نوح وسيّره إلى عبد الله بن طاهر الذي وجّهه بدوره إلى المعتصم.

واحتجم المعتصم فأصابته علّة فتوفي من أثرها، وكانت وفاته في السابع عشر من شهر ربيع الأول من عام ٢٢٧، وكان عمره يومذاك ثماني وأربعين سنة.

وتابع المعتصم مقالة المأمون في خلق القرآن، وقد امتحن أحمد بن حنبل، رحمه الله، في هذه القضية وناله ما ناله من العذاب.

الحركات[70]

١ ـ توفي المأمون ولا يزال أمر بابك الخرمي قوياً، واعتنق عدد من سكان الجبال مذهب الخرمية في السنة التي توفي فيها المأمون، فأرسل إليهم المعتصم جيشاً قوياً بإمرة إسحاق بن إبراهيم فانتصر عليهم. ثم سيّر إليهم عام ٢٢٠ جيشاً آخر بإمرة أبي سعيد محمد بن يوسف فأحرز نصراً آخر على هؤلاء الخرمية، وجهز جيشاً أيضاً بإمرة حيدر بن كاوس الأشروسني وهو المعروف باسم الإفشين، والإفشين لقب أمراء أشروسنة قبل الإسلام، وأمدّ الإفشين بقوةٍ كبيرةٍ أيضاً بقيادة بُغا الكبير. تعرّف الإفشين قبل قتاله الخرّمية على مناطقهم وطريقتهم في الحروب التي غالباً ما كانت ليلاً وعلى شكل غاراتٍ سريعة، ونصب كمائن في الفجاج بين المرتفعات. وبقي الإفشين سنتين كاملتين في قتال بابك، وتمكّن من دخول مدينة «البذ» مقر بابك وحصنه المنيع في التاسع من رمضان عام ٢٢٢.

وكان أتباع بابك عندما تحلّ بهم الهزيمة يلجؤون إلى بلاد الروم فيقيمون في المرتفعات، ويضمّهم الروم إلى جنودهم الذين يرسلون لقتال المسلمين. وعندما حوصر بابك في «البذ» أرسل إلى تيوفيل بن ميخائيل ملك الروم يحثّه على مهاجمة المسلمين، ويشجّعه بأن الخليفة لم يبقَ لديه من الجند ما يكفي لحراسته إذ بعَث بكل ما لديه إلى القتال في أذربيجان ضد الخرّمية. وقد دفع هذا تيوفيل إلى الاعتداء على المسلمين. وفرّ بابك من «البذ» غير أن الإفشين قد تمكّن من إلقاء القبض عليه، وحمله إلى سامراء مع بعض أتباعه ووصل إلى سامراء عام ٢٢٣. فقُتل بابك ومن حمل معه من الأسرى. وهكذا انتهت حركة بابك الخرمي بعد أن أقضّت مضاجع المسلمين مدةً تزيد على عشرين سنة.

٢ ـ في عام ٢١٩ خرج في الطالقان محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ويدعو إلى الرضا من آل محمد، فانتصر عليه عبد الله بن طاهر ففرّ مختفياً، فلمّا كان بـ (نسا) دُلّ عليه فأُخذ إلى عبد الله بن طاهر فسيّره إلى المعتصم، فسجنه فلما كانت ليلة عيد الفطر هرب من السجن، واختفى عن أعين الدولة.

٣ ـ وعاث الزطّ الفساد في منطقة البصرة فأرسل إليهم المعتصم قوةً بإمرة عجيف بن عنبسة فغلبهم، وبقي في ملاحقتهم وتتبع أفرادهم ما يقرب من تسعة أشهر، وقد أرهبهم إذ كان يقتل كل من يستطيع القبض عليه.

٤ ـ أظهر «مازيار بن قارن» خلاف المعتصم في طبرستان، وقد كان مازيار على خلافٍ مع عبد الله بن طاهر، ويبدو أن الأفشين قد شجّع مازيار إذ كان يطمع في ولاية خراسان، فوجه عبد الله بن طاهر جيشاً لقتال «مازيار» عن أمر المعتصم، كما بعث المعتصم جيشاً من بغداد لقتاله فلما أحدقت الجيوش بمازيار طلب الأمان فأُعطيه.

٥ ـ وفي عام ٢٢٤ أظهر الخلاف منكجور الأشروسني، وكان الإفشين قد ولاه أذربيجان بعد الانتهاء من قتال بابك الخرمي، فأصاب على مالٍ عظيمٍ من قرى الخرّمية، فأخذه لنفسه، ولم يُعلم الإفشين، ولا الخليفة، فأخبرَ عنه بعض الشهود، فأنكر منكجور وهمّ بقتل المخبر الشاهد الذي التجأ إلى أردبيل واستغاث بأهلها فمنعوه، ووصل الخبر إلى المعتصم فطلب من الإفشين أن يعزله، فوجّه إليه الإفشين قوةً كبيرةً فلما علم منكجور خلع الطاعة، وجمع حوله الصعاليك، واعتصم بالحصون، ولم يلبث سوى شهر حتى وثب عليه أصحابه، وسلموه لجيش الإفشين فحُمل إلى سامراء.

٦ ـ وخرج في فلسطين عام ٢٢٧ أبو حرب المبرقع اليماني وذلك بسبب قتله جندي اعتدى على داره فهرب عندما طلبه الخليفة، ولجأ إلى بعض جبال الأردن، ووضع على وجهه برقعاً كي لا يعرف، وادعى أنه من بني أمية عندما كثر أتباعه أرسل له المعتصم، وكان عليلاً في علّة المرض الذي مات فيه، رجاء بن أيوب فوجده كثير الرجال فتركه حتى وقت الزرع إذ تركه رجاله وانصرفوا إلى أعمالهم، فنازله وتمكّن من أسره وحمله إلى سامراء.

مَعَ الرُّوم

لما حثّ بابك تيوفيل بن ميخائيل ملك الروم على قتال المسلمين، وأن جندهم جميعهم في أذربيجان طمع تيوفيل في بلاد المسلمين فسار على رأس مائة ألف، وسارت معه الخرمية الذين التجؤوا إلى بلاده، واتجه إلى حصن «زبطرة» فخرّب البلد، وسبى النساء، وقتل الذراري، وأخذ الأسرى ومثّل بكل من وقع في يده، ولما انتهى من «زبطرة» سار إلى ملاطية فأغار على أهلها، وعلى حصون المسلمين.. ووصل الخبر إلى المعتصم فأعلن النفير، وسار على رأس الجيش، وعسكر في غربي نهر دجلة. وبعث عجيف بن عنبسة وعمراً الفرغاني نجدةً لأهل زبطرة فوجدا أن الروم قد ارتحلوا عنها بعد أن فعلوا بأهلها ما فعلوا.

ولما انتهى المعتصم من أمر بابك سار إلى بلاد الروم، وسأل عن أقوى الحصن فقيل له عمورية ولم يتعرض لها أحد من القادة المسلمين من قبل، وأنها عين النصرانية، وأشرف عندهم من القسطنطينية[١]. وأقام هو على نهر سيحان[٢]، وأمر الإفشين أن يدخل بلاد الروم عن طريق «الحدث»، كما أمر «أشناس» أن يدخل بلاد الروم عن طريق طرسوس، وحدد لهما يوماً يلتقيان فيه عند أنقرة. ودخل المسلمون أنقرة، وساروا بعدها إلى عمورية، وكان المعتصم على القلب، والإفشين على الميمنة، وأشناس على الميسرة، وأرهبوا السكان فيما بين أنقرة وعمورية والمسافة

---

(١) تاريخ الطبري، الجزء التاسع.

(٢) سيحان: نهر يصب في البحر المتوسط شرقي طرسوس، ويسميه ابن الأثير «السن» والطبري «اللمس».

بينهما سبعة مراحل (١٤٠ كيلو متر)، ووصل المعتصم إلى عمورية في السادس من رمضان عام ٢٢٣، وحاصر المسلمون المدينة، وتمكّنوا من إحداث ثغرة في سورها، دُلّوا على مكانها، كان السيل قد هدّمها، ورُفعت بشكلٍ سريعٍ على حجرٍ واحدٍ سُمكاً، فدكّها ودخلوا المدينة، وكان لهذا الفتح أثر عظيم بما قوّى من معنويات المسلمين، وما أضعف من معنويات الروم. وخلّد هذا النصر أبو تمام بقصيدته التي يذكر فيها هذا الفتح ويمدح المعتصم والتي يقول فيها:

السيف أصدق أنباءً من الكتب[1] ... في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... مُتونهنّ جلاء الشّكّ والرّيب
والعلم في شُهب الأرماح لامعةً ... بين الخمسين لا في السبعة الشهب
أين الرواية أم أين النجوم وما ... صاغوه من زخرفٍ فيها ومن كذب
تخرّصاً وأحاديثاً مُلفقةً ... ليست بنبعٍ إذا عُدّت ولا غرب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تَفَتّحُ أبواب السماء له ... وتبرز الأرض في أثوابها القُشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... منك المنى حفّلاً معسولة الحلب
أبقت جَدّ بني الإسلام في صعدٍ ... والمشركين ودار الشرك في صبب
لقد تركت أمير المؤمنين بها ... للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
تدبير معتصم بالله منتقمٍ ... لله مرتقبٍ في الله مرتغب
رمى بك الله برجيها فهدّمها ... ولو رمى بك غير الله لم يصب
لبيت صوتاً زبطرياً[2] هرقت له ... كأس الكرى ورضاب الخُرّد العُرُب

---

(١) كان المنجمون قد قالوا: رأينا في الكتب أن عمورية لا تفتح في هذا الوقت، وإنما وقت نضج التين والعنب.

(٢) كانت امرأةٌ اعتدي عليها في «زبطرة» فصرخت «وامعتصماه» فلما وصل الخبر إلى المعتصم أخذته الحمية، والغضب لله وقال: لبيك وأخذ في الاستعداد.

حتى تركت عمود الشرك مُنعفراً ولم تعرّج على الأوتاد والطُّنُب
خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والإسلام والحسب
بصُرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلاّ على جسرٍ من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رحمٍ موصولةٍ أو ذمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتي نُصرت بها وبين أيام بدرٍ أقرب النسب

الإمارات

لم تتغير أوضاع الإمارات المستقلة عن الدولة العباسية أو المنفصلة عما كانت عليه أيام المأمون.

١ ـ **الدولة الرستمية** كان يحكمها أفلح بن عبد الوهاب.

٢ ـ أما دولة **بني مدرار** فقد خلع مدرار بن أبي المنصور نفسه من الحكم، وولى مكانه ابنه ميمون بن الرستمية، وطرد ابنه الآخر ميمون بن بقية وذلك عام ٢٢١ فنشأ خلاف بين الطرفين استمر ثلاث سنوات، تغلّب إثر ذلك ميمون بن بقية حيث كانت الصفرية تدعمه، وعندما استقر الوضع لميمون بن بقية طرد أخاه ميمون بن الرستمية إلى وادي درعه، ونصّب أباه ثانيةً إماماً، وهكذا عاد مدرار بن أبي المنصور مرةً أخرى حاكماً للدولة غير أنه عاد وطلب ابنه ميمون بن الرستمية فعندها أرغمت الصفرية ميمون بن بقية على قبول الإمامة، وطرد أبيه، فطرد إلى إحدى قرى سجلماسة حيث بقي فيها حتى توفي عام ٢٥٣.

وبقي ميمون بن بقية حاكماً لدولة بني مدرار وإماماً للصفرية حتى عام ٢٦٣.

٣ ـ وكان يحكم **الأندلس** عبد الرحمن الأوسط (الثاني)، وقد أرسل إليه تيوفيل بن ميخائيل ملك بيزنطة وفداً وهدايا في محاولةٍ لعقد حلف بينهما ضد العباسيين، وقد كان ذلك عام ٢٢٥ بعد الهزيمة التي مُني بها الروم أمام المعتصم في أنقرة وعمورية. وقد ذكّر تيوفيل عبد الرحمن بمعاداة العباسيين لبني أمية وتخليص الحكم منهم، وما قُتل من الأمويين على أيدي بني العباس، وردّ عبد الرحمن بإرسال وفدٍ إلى القسطنطينية،

ونال من العباسيين، ولكن لم تتعد الوفود الكلام المعسول الذي يلائم كلا الطرفين.

٤ ـ **الأدارسة**: توفي محمد بن إدريس الثاني عام ٢٢١ فخلفه ابنه علي بن محمد، وكان عمره تسع سنوات عندما تولى الحكم، ولُقِّب باسم حيدرة، واستمر في الحكم ثلاث عشرة سنة حيث توفي عام ٢٣٤. ولم يحدث في أيام علي بن محمد ما يستحق الذكر.

٥ ـ **الأغالبة**: توفي زيادة الله بن إبراهيم عام ٢٢٣، ولم يتمكن المسلمون من فتح (قصر يانه) إذ ساروا إليها عام ٢١٩ ولم يستولوا عليها، وكانوا يعودون إليها مرةً بعد أخرى ثم يرتدون عنها فيحاولون دخول غيرها من المدن.

وعندما توفي زيادة الله خلفه أخوه أبو عفان الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب فأزال المظالم، ومنع الخمر في القيروان، وأرسل الجند إلى صقلية، وأخذ المسلمون عدة حصون في الجزيرة في أيامه، كما انتصروا على أسطولٍ رومي فعاد إلى القسطنطينية مهزوماً، وسارت سرية إلى (قصر يانة) فحاصرتها، وتوفي أبو عفان عام ٢٢٦ وهو في الثالثة والخمسين من عمره وخلفه ابنه أبو العباس محمد الأول.

* * *

- ٩ -

الوَاثِق

هَارُون بن محمّد

٢٢٧-٢٣٢هـ

ولد هارون الواثق في العشرين من شهر شعبان من عام ستةٍ وتسعين ومائة بطريق مكة المكرمة، وكان أبيض مشرباً بالحمرة، جميلاً، ربعة، حسن الجسم، على عينه اليسرى نكتة بياض، شاعراً، وراوية للشعر، حليماً صابراً. وكان عمه المأمون يفضّله على بعض ولده. وأمّه أمّ ولدٍ تُدعى «قراطيس».

بويع بالخلافة في التاسع عشر من شهر ربيع الأول من عام سبعة وعشرين ومائتين بعد وفاة أبيه المعتصم. وكان يقول بخلق القرآن كأبيه وعمّه وذلك في أول أمره، وأرسل إلى أمير البصرة يمتحن الأئمة وأهل العلم بهذا القول. وقتل أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي الذي كان ذا منزلةٍ إذ كان جده مالك بن الهيثم أحد دعاة بني العباس الأوائل والمقدّمين، كما كان أحمد من أهل الحديث والعلم، وقد رفض القول بخلق القرآن، وتهجّم وحمل على القائلين تلك المقالة، وبدأ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فأحضره الواثق من بغداد إلى سامراء وقتله، غير أن الواثق قد عدل عن هذه المقالة في آخر أمره.

ولما مات المعتصم ثارت القيسية بدمشق وحاصروا أميرهم فبعث إليهم الواثق قوةً بإمرة رجاء بن أيوب الحضاري وقد عسكروا في مرج راهط فقاتلهم في دوما، وانتصر عليهم، وأصلح أمر دمشق وسار بعدها إلى فلسطين لقتال أبي حرب المبرقع.

وفي عام ٢٢٩ حبس الواثق كتّاب الدواوين، وضرب بعضهم، وفرض على بعضهم مالاً كبيراً، إذ اتهم هؤلاء الكتّاب بالخيانة وعدم الإخلاص بالعمل.

وفي عام ٢٣٠ عاث الأعراب حول المدينة فساداً فأرسل إليهم الواثق جيشاً عليه بغا الكبير فغلبهم، وأدّب القبائل التي أساءت كبني سُليم بين مكة والمدينة، وغطفان في شرق المدينة، وبني نمير من تميم.

أما بالنسبة إلى بلاد الروم، فقد مات تيوفيل بن ميخائيل عام ٢٢٧، وكان ابنه ميخائيل صبياً صغيراً، فحكمت الروم أم ميخائيل «تيودورة». وقد تبادل المسلمون والروم الأسرى عام ٢٣١ وكان عدد أسرى المسلمين ٤٣٦٢ أسيراً، وعدد أسرى الروم أكبر من هذا بكثير. وبعد تبادل الأسرى غزا أحمد بن سعيد بلاد الروم شاتياً.

ومات عبد الله بن طاهر والي خراسان عام ٢٣٠ فولّى الواثق مكانه ابنه طاهراً، فأصبحت ولاية خراسان وراثيةً.

وخرج محمد بن عمرو الخارجي في ديار ربيعة، فأُسر وسيق إلى سامراء حيث قُتل.

وتوفي الواثق في نهاية عام ٢٣٢ (٢٤ ذي الحجة)، وبويع بعده أخوه المتوكل بن المعتصم، ولم يزد حكمه على خمس سنوات، وتسعة أشهر وعدة أيام.

أما بالنسبة إلى الإمارات فلم يتغير وضع دولتي الخوارج الأباضية في تاهرت والصفرية في سجلماسة فالأولى يحكمها أفلح بن عبد الوهاب والثانية يحكمها ميمون بن بقية. وكذلك فإن دولة الأدارسة يحكمها علي بن محمد بن إدريس من قبل عهد الواثق.

وكان حاكم الأندلس عبد الرحمن الأوسط (الثاني)، وقامت الحرب بينه وبين والي «تطيلة» موسى بن موسى وذلك عام ٢٢٨. وأغار الفرنجة على بلاد المسلمين عن طريق البحر، فأغاروا على شذونة وانتقلوا منها إلى إشبيلية، وهزموا المسلمين عدة مرات، وباتوا على مقربة من إشبيلية يوماً وليلة ثم خرجوا إلى مراكبهم في النهر، وسمع عبد الرحمن بالخبر فأرسل

قوةً لأهل أشبيلية قاتلت الفرنجة الذين تراجعوا وخرجوا إلى «لبله» حتى قُهروا.

أما الأغالبة فقد كان والي القيروان أبو العباس محمد بن الأغلب الذي سيّر عام ٢٢٨ الفضل بن جعفر الهمداني على رأس قوةٍ بحريةٍ نزلت في ميناء «ماسينا»، وبقي الفضل هناك يقاتل مدة سنتين، واستطاع المسلمون من دخول مدينة «ماسينا» عام ٢٣٢، وكذلك سار أبو الأغلب العباس بن الفضل الفزاري على رأس سريةٍ عام ٢٢٩ دعماً للمسلمين هناك، وقد تولى قيادة فتح صقلية وإتمامه.

ووقعت الحرب بين محمد بن الأغلب وأخيه أحمد بن الأغلب فانتصر محمد بعد هزيمة، ونفى أخاه أحمد إلى المشرق فمات بالعراق. ولما انتهى محمد من أخيه أحمد فوجئ بثورة سالم بن غلبون أمير الزاب، وكان محمد قد عزله عن هذه الإمارة فأظهر الخلاف، وسار نحو القيروان، وجرت بين الطرفين معارك كان نتيجتها قتل سالم وانتهاء أمر حركته.

* * *

- ١٠ -

المتوكّل

جَعفَر بن محمّد المعتَصِم

٢٣٢-٢٤٧هـ

وُلد جعفر المتوكل عام ٢٠٥، وأمّه أمّ ولد تُسمّى «شجاع»، وكان أسمر، حسن العينين، خفيف العارضين، نحيفاً. وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الواثق في ذي الحجة من عام ٢٣٢، وكان الجند الأتراك يرغبون في تولية محمد بن الواثق، ولكنهم استصغروه فعدلوا عنه إلى جعفر المتوكل، وكان أول من بايعه أحمد بن أبي دؤاد.

أمر بالقبض على وزير الواثق محمد بن عبد الملك الزيّات حيث كان يكرهه إذ كان ابن الزيّات يرغب بأخذ البيعة لمحمد بن الواثق، ويحرص في زيادة بغض الواثق للمتوكل وقد مات في السجن بعد مدة وجيزة من العذاب. كما غضب على جماعةٍ من كتّاب الدواوين، وولّى ابنه المنتصر على الحجاز واليمن.

وأمر بالقبض على القائد «إيتاخ» وأودعه السجن الذي بقي فيه حتى مات.

وأمر أهل الذمّة أن يتميزوا بلباسهم عن المسلمين. كما أمر بهدم البيع والكنائس المحدثة في الإسلام.

وأمر بهدم قبر الحسين بن علي، رضي الله عنهما، في كربلاء، وكذلك المنازل التي حوله.

وغضب بعد ذلك وفي عام ٢٣٧ على أحمد بن أبي دؤاد، وكان قد أصابه الفلج ثم توفي سنة ٢٤٠.

وبايع لأبنائه الثلاثة من بعده بولاية العهد: محمد وسمّاه المنتصر،

والزبير وسمّاه المعتز، وإبراهيم وسمّاه المؤيد. وضمّ لابنه المنتصر إفريقية والمغرب، وجزيرة العرب، والثغور الشامية، وضمّ للمعتز خراسان، وطبرستان، والري، وفارس، وأرمينيا، وأذربيجان. وضم لابنه المؤيد بلاد الشام.

ومنع القول بخلق القرآن، وكتب بذلك المنع إلى الأمصار، وأزال المحنة التي وقعت بسبب ذلك، وأكرم الإمام أحمد بن حنبل، واستدعاه من بغداد إليه وأكرمه، ولم يكن ليولي أحداً القضاء حتى يستشيره، وكان تعيين يحيى بن أكثم قاضياً للقضاة مكان ابن أبي دؤاد عن رأيه. وقد أخذ المتوكل بمذهب الإمام الشافعي، ويعدّ أول الخلفاء بهذا الأخذ. وفي سنة ٢٤٠ عزل يحيى بن أكثم من منصب قاضي القضاة.

سار المتوكل إلى دمشق بعد أن أحبها وأراد أن ينتقل إليها ويجعلها مقراً للحكم، ووصل إليها عام ٢٤٤، وأمر ببناء القصور، ونقل الدواوين، ثم لم يطب له جوها فغادرها، وقد عمل على بناء القصور على طريق داريّا أي من جهة الجنوب من دمشق، وبنى له قصراً بداريّا. وكان يقول: إن الخلفاء تتصعب على الرعية لتطيعها، وأنا ألين لهم ليحبوني ويطيعوني.

وعندما رجع من دمشق التي لم يمكث فيها أكثر من شهرين وعدة أيام أمر ببناء مدينة الماحوزة قرب سامراء، وعرفت باسم المتوكلية، كما تعرف باسم الجعفرية، وبنى فيها قصر الخلافة الذي يُدعى قصر اللؤلؤة وسمي بالجعفري نسبةً إليه، وانتقل إلى المدينة الجديدة سنة ٢٤٦.

وفي أواخر حياته أراد تقديم المعتز على أخيه المنتصر، فطلب من المنتصر أن ينزل عن العهد فرفض، فكان بعدها يُحقّره، ويحطّ من منزلته أمام العامة، وهذا ما أوغر صدر الابن على أبيه. وانحرف الترك عن المتوكل لأمور، فاتفقوا مع ابنه المنتصر على قتل أبيه فدخلوا عليه في أواخر أيام عيد الفطر، وقتلوه في جوف الليل مع وزيره الفتح بن خاقان، وبايعوا للمنتصر، وقد رثاه البحتري بقصيدةٍ إذ كان حاضراً مصرعه، ولكن لم ينله أذى إذ اختبأ، ومطلع هذه المرثية:

محل على «القاطول»أخلق داثره وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره

ويقول فيها:

تغيّر حسن «الجعفري» وأُنسه وقوّض بادي «الجعفري» وحاضره
تحمّل عنه ساكنوه فُجاءةً فعادت سواءً دوره ومقابره
إذا نحن زرناه أجدّ لنا الأسى وقد كان قبل اليوم يَبْهَجُ زائره
ولم أنس وحش القصر إذ ريع سِربه وإذ ذُعرت أطلاؤه وجآذره
وإذ صيح فيه بالرحيل فهُتّكت على عجل أستاره وستائره
ووحشته حتى كأن لم يقم به أنيس، ولم تحسُن لعينٍ مناظره
كأن لم تبت فيه الخلافة طلقةً بشاشتها، والمُلك يشرق زاهره
ولم تجمع الدنيا إليه بهاءها وبهجتها والعيش غضّ مكاسره
فأين الحجاب الصعب حيث تمنّعت بهيبتها أبوابه ومقاصره؟
وأين عميد الناس في كلّ نوبةٍ تنوب، وناهي الدهر فيهم وآمره؟
تخفّى له مُغتاله تحت غِرّةٍ وأولى لمن يغتاله لو يُجاهره
فما قاتلت عنه المنونَ جنودُهُ ولا دافعت أملاكه وذخائره
ولا نصر «المعتز» من كان يُرتجى له، وعزيز القوم من عزّ ناصره
تعرّض ريب الدهر من دون «فتحه» وغيّب عنه في خراسان «طاهره»
ولو «لعبيد الله» عون عليهم لضاقت على ورّاد أمرٍ مصادره
حلوم أضلّتها الأماني، ومدّة تناهت، وحتف أوشكته مقادره
ومغتصَب للقتل لم يُخش رهطه ولم يحتشم أسبابه وأواصره
صريع تقاضاه السيوف حُشاشةً يجود بها والموت حمر أظافره
أُدافع عنه باليدين، ولم يكن ليثني الأعادي أعزال الليل حاسره
ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي درى الفاتك العجلان كيف أساوره
حرام عليّ الراح بعدك أو أرى دماً بدمٍ يجري على الأرض مائره

وهـل أرتـجـي أن يـطـلـب الـدم واتـر ... يد الدهر، والموتور، بالدم واتره؟

أكـان ولـيّ الـعـهـد أضـمـر غـدرةً؟ ... فمن عجبٍ أن وُليّ العهد غادره

فلا مُلّي الباقي تراث الذي مضى، ... ولا حـمـلـت ذاك الـدعـاء مـنـابـره

ولا وأل الـمـشـكـوك فيه، ولا نـجـا ... من السيف ناضي السيف غدراً وشاهره

لنعم الدم المسفوح ليلة «جعفر» ... هرقتم، وجنح الليل سود دياجره

كـأنّـكُـمُ لـم تـعـلـمـوا مَـنْ ولـيّـه ... وناعيه تحت المرهفات وثائره

وإنـي لأرجـو أن تـردّ أمـوركـم ... إلى خلفٍ من شخصه لا يغادره

مُـقـلّـب آراءٍ تُـخـاف أنـاتـه ... إذا الأخرق العجلان خيفت بوادره

* * *

الحركات[70]

١ ـ فرّ محمد بن البعيث من السجن، وكان قد جيء به من أذربيجان أسيراً، واتجه بعد فراره إلى أذربيجان، وقصّر واليها محمد بن حاتم بن هرثمة في طلبه فقوي أمره. فولّى المتوكل على أذربيجان حمدويه بن علي بن الفضل السعدي فسار إلى ابن البعيث الذي اعتصم بمدينة «مرند» وأرسل إليه القوة إثر الأخرى حتى تمكّن بغا الشرابي من محاصرته، ثم أسره، وحمله إلى سامراء فعفا عنه المتوكل بعد أن همّ بقتله.

٢ ـ ادعى محمود بن الفرج النيسابوري النبوة في سامراء وأيّده بعض الناس، فقبض عليهم، وضُرب النيسابوري حتى مات، وألقي أصحابه في السجن.

٣ ـ طلب كبير البطارقة في أرمينيا الإمرة فقبض عليه الوالي يوسف بن محمد وقيّده وبعث به إلى الخليفة، فأسلم وابنه، أما نصارى أرمينيا فقد حاصروا يوسف بن محمد فقاتلهم حتى قُتل فأرسل إليهم المتوكل جيشاً بقيادة بُغا الشرابي فسار إليهم عن طريق الجزيرة فأخذ قتلة يوسف بن محمد فقتل من قتل، وباع من باع، ووطّد الأمن بأرمينيا ثم سار إلى تفليس فحاصرها ودخلها.

٤ ـ وفي ٢٤٠ ثار أهل حمص على عاملهم أبي الغيث موسى بن إبراهيم الرافقي لأنه قتل أحد أشرافهم، وأخرجوه من مدينتهم، فأرسل إليهم المتوكل عاملاً جديداً فقبلوه رغم أنه أغلظ عليهم، وهو محمد بن عبدويه، وسكن الوضع، غير أن نصارى حمص قد حرّكوا الفتنة من جديد فوثب السكان على محمد بن عبدويه، وأرادوا قتله وذلك عام ٢٤١ فكتب إلى

الخليفة المتوكل الذي أمر والي دمشق أن يدعم عامل حمص، وأن يُخرج النصارى من حمص، وأن يهدم كنيستها العظمى.

٥ ـ ظهر في سجستان عام ٢٣٧ يعقوب بن الليث، وكان من قبل مع صالح بن النضر الكناني الذي غلب على المنطقة، ولكن طاهر بن عبد الله بن طاهر والي خراسان استعادها منهم. ثم عاد فغلب عليها درهم بن الحسين، وكان معه يعقوب، ولما كان درهم ضعيفاً لذا فإن المخالفين قدّموا عليهم يعقوب بن الليث.

* * *

مَعَ الرُّوم

أغار الروم على الميناء المصري دمياط عام ٢٣٨، وقد جاءوا في ثلاثمائة مركب، ففر الناس من وجههم فمروا على بحيرة المنزلة فنجا الرجال وغرق عدد من الصبيان والنساء. وقد أحرق الروم ما وصلوا إليه من دورها، ونهبوا ما استطاعوا نهبه، وقتلوا ما أمكنهم قتله من الرجال، وسبوا حوالي ستمائة امرأة، وحرقوا المسجد الجامع، ثم رجعوا دون أن يتعرّض لهم أحد.

وغزا علي بن يحيى الأرمني بلاد الروم على رأس صائفة في عامين متتاليين ٢٣٨ و ٢٣٩.

وفي عام ٢٤١ قتلت ملكة الروم «تيودورة» اثني عشر ألف أسير من المسلمين، وكانوا قد قاربوا العشرين ألفاً، وقد عرضت الملكة على الأسرى النصرانية فمن قبلها منهم عاش بين الروم، ومن رفضها قُتل فرفضها الأسرى فقتلت منهم هذا العدد، وأغار الروم هذا العام على عين زربة قرب المصيصة، وأسروا أعداداً من الزط وذلك بعد طلب الفداء، وتمّ فداء سبعمائة وخمسة وثمانين رجلاً، ومائة وخمس وعشرين امرأة من المسلمين. وغزا بعدها علي بن يحيى الروم.

وفي العام التالي أغار الروم على بلاد الجزيرة من ناحية شِمشاط[1] وذلك بعد خروج علي بن يحيى، ونهبوا عدة قرى، وأسروا ما يقرب من عشرة آلاف مسلم، وقاربوا مدينة آمد، ثم رجعوا إلى بلادهم فارّين ولحق

---

(١) شمشاط: مدينة في بلاد الروم على شاطئ الفرات.

بهم المتطوعة من المسلمين وعمر بن عبد الله الأقطع فلم يدركوا أحداً منهم، وكتب المتوكل إلى علي بن يحيى الأرمني أن يدخل بلاد الروم شاتياً.

أزاح ميخائيل بن تيوفيل أمه عن حكم بلاد الروم، واتهمها في أخلاقها و. . . وتسلّم هو الأمر وكان قد كبر.

وفي عام ٢٤٣ وجه المتوكل من دمشق القائد بغا لغزو بلاد الروم فدخلها على رأس صائفة.

وطلب ملك الروم ميخائيل بن تيوفيل المفاداة بين المسلمين والروم عام ٢٤٥ ولكن لم تتم إلا بعد عام، وأغار الروم في هذه السنة على مدينة «سُميساط» فقتلوا وسبوا ما يقرب من خمسمائة مسلم، وغزا علي بن يحيى الأرمني الروم على رأس صائفة، كما غزا الصائفة أيضاً في العام التالي، وغزا أيضاً عمر بن عبد الله الأقطع في العام نفسه وفي الصيف وكان على رأس قوة، وغزا المسلمون بلاد الروم عن طريق البحر إذ سار الفضل بن قارن في عشرين راكباً إلى إنضاليا وفتحوها، وكان ما أخذ المسلمون من الروم، أسارى في هذا العام أكثر من ثمانية عشر ألفاً. وتمّ فداء ٢٣٦٧ مسلماً، منهم عشرون امرأةً، وعشرة من الصبيان.

وأغار البجاة على جيش في مصر، ونهبوا كثيراً، ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين المسلمين فأرسل لهم المتوكل جيشاً بإمرة محمد بن عبد الله القمي فأقبل إليه ملك البجاة علي بابا في جموع عظيمة، فانتصر المسلمون عليهم ـ بإذن الله ـ وأُخذ علي بابا أسيراً فحمل إلى سامراء فعفا هناك عنه المتوكل. وجعله ملكاً على بلاد البجاة باعتبارها جزءاً من أملاك الخليفة حسب المعاهدة السابقة. كما جعل المتوكل الأمير محمد بن عبد الله القمي أميراً على المنطقة المجاورة لبلاد البجاة.

الإمارات

لم يتغير شيء في وضع دولتي الخوارج الأباضية والصفرية في بلاد المغرب.

أما في الأندلس فقد توفي عبد الرحمن الأوسط عام ٢٣٨ فخلفه ابنه محمد الأول، وقامت في عهده ثورات في شمالي الأندلس في برشلونة، وطليطلة وغيرها فأرسل إليها حملات أحرزت النصر، ووطدت الأمن في تلك الجهات، واستمر في حكمه حتى توفي عام ٢٧٣.

وأما الأدارسة فقد ملكهم علي بن محمد حتى توفي عام ٢٣٤ فخلفه أخوه يحيى «الأول» بن محمد فتوسعت في عهده الدولة، وهدأت الأوضاع، ولما مات خلفه ابن أخيه يحيى«الثاني» بن علي بن محمد وكان سيئاً فثار عليه الناس واستولى عبد الرحمن بن أبي سهل على مدينة فاس، فأرسلت زوجة يحيى إلى أبيها والي بلاد الريف علي بن عمر بن إدريس فجاء وأخمد حركة ابن أبي سهل وسيطر على البلاد.

وأما الأغالبة فقد خرج عمرو بن سليم التجيبي بمدينة تونس على محمد بن الأغلب، وانتصر على جيشٍ بعثه ابن الأغلب إليه غير أنه هُزم في المعارك التي تلت ذلك وقُتل. وفتح المسلمون في جزيرة صقلية مدينة «قصريانة» وهي مقر الحكم بعد أن كانت «سرقوسة» إذ نقل إلى الأولى بعد أن دخل المسلمون الثانية وكان فتح «قصريانة» عام ٢٣٧. وتوفي أمير الأغالبة أبو العباس محمد الأول عام ٢٤٢ فخلفه ابنه أبو إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب، وفي عهده ثار البربر في منطقة طرابلس وهزموا عاملها عام ٢٤٥ فأرسل إليهم أحمد أخاه زيادة الله فانتصر عليهم وغلب على أمرهم.

ومع انتهاء حكم المتوكل على الله انتهى العصر العباسي الأول وهو عصر القوة، وبدأ عصر الضعف حيث تسلّط العسكر على الحكم فحكموا من وراء الخلفاء الذين كانوا صورةً بل ألعوبة أحياناً بيد العسكريين، وأذلّوا الشعب وبالتالي بدأت الدولة تتداعى وينهدّ منها ركن بعد ركن حتى تهاوت على أيدي التتار، وقد تراخى أبناؤها وذُلّ أفرادها. [illegible] الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

فهرس الموضوعات